

نفحات القرآن

بإشراف

سماحة العلامة المحقق الشيخ ناصر مكارم الشيرازي (دام ظله)

اسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

الجزء الاول
العلم والمعرفة في القرآن

بمساعدة
مجموعة من الفضلاء

بإشراف
سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي (دام ظله)

نفحات القرآن

اسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

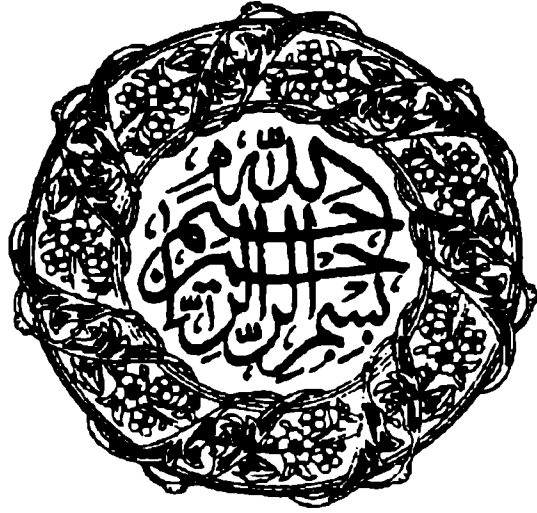
الجزء الاول
العلم والمعرفة في القرآن

بمساعدة
مجموعة من الفضلاء



هوية الكتاب

- الكتاب نفحات القرآن / ج ١
- المؤلف آية الله العظمى مكارم الشيرازي
- عدد النسخ ٢٠٠٠
- قطع وزيري ٤٨٠ صفحة
- المطبعة الحيدري
- الناشر مؤسسة أبي صالح للنشر والثقافة



الاهداء:

الى الذين يعشقون القرآن .
الى الذين يريدون أن يشربوا من عين الحياة الصافية أكثر .
والى الذين يريدون ان يعرفوا القرآن ويفهموه أكثر .

بمساعدة العلماء الافاضل وحجج الاسلام السادة:

محمد رضا الآشتياني .
محمد جعفر الامامي .
عبد الرسول الحسني .
محمد الاسدي .
حسين الطوسي .
سيد شمس الدين الروحاني .
محمد محمدي الاشتهاردي .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

- ١ - الانماط المختلفة للتفسير .
- ٢ - ماهو التفسير الموضوعي ؟
- ٣ - ماهي المشكلات التي يمكن حلُّها بالتفسير الموضوعي ؟ (فائدة التفسير الموضوعي) .
- ٤ - تاريخ التفسير الموضوعي .
- ٥ - المنهج الصحيح في التفسير الموضوعي .
- ٦ - المشاكل التي تعترض التفسير الموضوعي .
- ٧ - لماذا لم يتكامل هذا اللون من التفسير بما فيه الكفاية ؟



الانماط المختلفة للتفسير :

عندما يجري الحديث عن تفسير القرآن الكريم تَنَشِدُ الانظار نحو التفسير المتعارف (التفسير الترتيبي) حيث يجري بحث آيات القرآن الكريم بالترتيب ويتم توضيح مضمونها وماهيتها ، وهو الاسلوب المتَّبَع في تفسير القرآن منذ صدر الاسلام والى يومنا هذا ، وقد قام علماء الاسلام بتأليف مئات أو آلاف الكتب تحت عنوان «تفسير القرآن الكريم» في هذا المجال .

وبالطبع فقد كان هناك نوع آخر من التفسير الرائج الى حد ما والذي يهدف

الى تفسير «مفردات القرآن» أي أنه يبحث كلمات القرآن كل على حدة وبالتسلسل على نحو الفباء على هيئة مُعْجَم ، ومن أبرز نماذج ذلك كتاب «مفردات الراغب» و «وجوه القرآن» و «تفسير غريب القرآن» للطريحي ، واخيراً كتاب «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» و «نثر طوبى أو دائرة معارف القرآن الكريم» .

بينما توجد هنالك انواع اخرى من تفسير القرآن منها «التفسير الموضوعي» الذي يحقق ويبحث آيات القرآن الكريم على اساس مختلف المواضيع المتعلقة باصول الاسلام وفروعه والقضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والاخلاقية .

والنوع الآخر من التفسير الذي نطلق عليه «التفسير الارتباطي» أو التسلسلي ، حيث نتناول فيه مواضيع القرآن المختلفة من حيث ارتباطها ببعضها . فعلى سبيل المثال ، بعد بحث موضوع «الايمان» ، و «التقوى» و «العمل الصالح» ، كل على حدة في التفسير الموضوعي يُتَطَرَّق الى تفسير هذه المواضيع الثلاث من حيث ارتباطها ببعضها من خلال الاعتماد على الآيات والملاحظات الواردة في ذلك ويوضح علاقتها ببعضها ، ومن المسلّم به أنّ حقائق جديدة سوف تنكشف لنا عن كيفية ارتباط هذه المواضيع ببعضها تكون بالغة القيمة والفائدة .

نحن نعلم ان الاسلوب الصحيح في دراسة كتاب «التكوين» أي عالم الخلق وكائنات عالم الوجود هو في مطالعتها من حيث ارتباطها مع بعضها ، ففي الحقيقة أنّ الشمس والقمر والارض والانسان والمجتمعات البشرية هي مواضيع لا تنفصل عن بعض وهي تشكّل في مجموعها كياناً واحداً متلازماً ، والاسلوب الصائب في دراستها هو ان نبحثها من حيث ارتباطها مع بعضها .

وهكذا الأمر في كتاب «التدوين» أي القرآن الكريم ، فهناك علاقات دقيقة

ولطيفة فيما بين مواضيع القرآن الكريم ، ولابد من تفسيرها من حيث ارتباطها مع بعضها .

النوع الآخر من التفسير هو «التفسير العام» أو «الرؤية الكونية للقرآن» وهنا يتناول المفسر جميع مضمون القرآن فيما يتعلق بعالم الوجود ، ويستعير أكثر وضوحاً: يربط كتاب «التكوين» مع كتاب «التدوين» وينظر اليهما معاً ، ويفسّرهما من حيث ارتباطهما ببعضهما .

وعليه يلاحظُ اجمالاً بأنّ هناك خمسة انماط من تفسير القرآن :

١ - تفسير مفردات القرآن .

٢ - التفسير الترتيبي .

٣ - التفسير الموضوعي .

٤ - التفسير الارتباطي .

٥ - التفسير العام ، أو النظرة الكونية للقرآن .

والمشهور بيننا من بين هذه الانواع الخمسة هو النوع الاول والثاني ، والى حد ما النوع الثالث ، أي أنّ التفسير الموضوعي لازال يسير في مراحله الاولى ، على أمل أن يقطع مراحله التكاملية تدريجياً من خلال الاهتمام الذي أولاه علماء الاسلام به مؤخراً ومن خلال المزيد من الجد والمثابرة ، وأن يحتل مكانه اللائق من المستقبل القريب .

اما النوع الرابع والخامس من تفسير القرآن فلم يحظيان باهتمام المفسرين بعد ، وهذا العمل يقع على عاتق الجيل الحاضر واجيال المستقبل بأن يتطرقوا اليه بعد تكامل التفسير الموضوعي بما فيه الكفاية ، ويقومون باداء حقّه بالمقدار الممكن .

ماهو التفسير الموضوعي ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال لابد من طرح سؤال آخر وهو: لماذا لم يُجمع القرآن بأسلوب موضوعي بحيث يشبه الكتب المتداولة ؟ بل أنّه يختلف معها

جميعاً.

والجواب هو: انّ المؤلف أو المؤلفين يأخذون بنظر الاعتبار مختلف المواضيع المتشابهة في بوتقة واحدة من أجل اعداد الكتب المتداولة ، فمثلاً في علم الطب يؤخذ بنظر الاعتبار «مختلف الامراض التي ترتبط بمسألة سلامة الانسان» ثم تُقسم المسائل المتعلقة بهذه المواضيع على فصول وابواب (امراض القلب ، الامراض العصبية ، امراض الجهاز الهضمي ، امراض الجهاز التنفس ، الامراض الجلدية وسائر الامراض).

ومن ثم يبحثون كلّ فصلٍ وكلّ بابٍ من خلال الاعتماد على المقدمات ونتائجها وبهذا النحو يتم تأليف كتاب باسم كتاب «الطب».

بيد انّ القرآن ليس كذلك ، فهذا الكتاب نزل على مدى ٢٣ سنة وفقاً للحاجات والظروف الاجتماعية المختلفة والوقائع المتباينة ، والمراحل التربوية المتفاوتة ، وسائر حياة المجتمع الاسلامي ، وفي نفس الوقت لم يتعلق بزمانٍ ومكانٍ معين!

فخلال يوم كاملٍ تدور كافة بحوث القرآن حول محور مقارعة الوثنيين والشرك وتعليم التوحيد بكل فروع ، والصور والآيات النازلة في هذه المرحلة كلّها في المبدأ والمعاد (كالسور التي نزلت في مكة خلال السنوات الثلاث عشرة الاولى من البعثة).

وفي يوم آخر تكون البحوث ساخنة وقوية حول الجهاد ومواجهة الاعداء الداخليين والخارجيين والمافيين.

ويومٌ تقع غزوة الاحزاب فتنزل سورة الاحزاب ، وما لا يقل عن ١٧ آية منها تتحدث عن هذه المعركة والتجارب والقضايا التربوية فيها ووقائعها.

وفي يوم آخر جرت واقعة صلح الحديبية فتنزل سورة الفتح ، وبعدها فتح

مكة وغزوة حنين فتنزل سورة الاخلاص وآيات اخرى .

والخلاصة ، فتزامناً مع انتشار الاسلام والتحرك العام للمجتمع الاسلامي كانت تنزل الآيات المناسبة وتصدر الأوامر اللازمة ، وهذا ما كان يكمل المسيرة التكاملية للانسان .

استناداً الى ما قيل اعلاه ، يتضح المغزى من التفسير الموضوعي ألا وهو تجميع الاحداث والمجالات وترتيبها لتتجلى وجهة نظر القرآن الكريم بشأن ذلك الموضوع وأبعاده .

فمثلاً ، تُستجمع الآيات المتعلقة ببراهين معرفة الله كالفطرة ، وبرهان النظم وبرهان الوجوب والامكان وباقي البراهين ، وحيث ان القرآن يفسر بعضه بعضاً تتضح أبعاد هذا الموضوع ^(١) .

وهكذا الآيات المتعلقة بالجنة أو النار ، والصراط صحيفة الاعمال ، والآيات المتعلقة بالقضايا الاخلاقية والتقوى وحسن الخلق والشجاعة ، ... والآيات المتعلقة باحكام الصلاة والصوم والزكاة والخمس والانفال ، والآيات المتعلقة بالعدالة الاجتماعية وجهاد الاعداء وجهاد النفس و.... من المسلم به ان هذه الآيات التي نزلت في مناسبات مختلفة ، عندما تُجمع كلُّ

(١) لقد رويت عبارة «القرآن يفسر بعضه بعضاً» عن ابن عباس وليس من المستبعد ان يكون قد اخذها عن النبي (ص) واميرا المؤمنين (ع) نتيجة لعلاقته القوية معهما في مسائل القرآن ، كما ورد مضمونها في نهج البلاغة حيث يقول : «وَذَكَرْتُ أَنَّ الْكِتَابَ يَصْدُقُ بَعْضُهُ بَعْضاً (نهج البلاغة الخطبة ١٨) وقد اورد بعض العلماء في كتبهم جملة «القرآن يفسر بعضه بعضاً» على انها حديث ، كما في صفحة ١٠٦ من كتاب «تنزيه التنزيل» للمرحوم الشهرستاني اذ وردت هذه العبارة باعتبارها رواية بدون ان ترد عليها مؤاخذه ، كما تلاحظ في نهج البلاغة اشارة اخرى الى هذا الأمر ، حينما يقول بشأن القرآن الكريم : وينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض «نهج البلاغة الخطبة (١٣٣)» .

طائفة على حدة وتنظم وتُفسَّر معاً ستتكشف عنها حقائق جديدة ومن هنا تتضح أهمية التفسير الموضوعي حيث سيأتي الكلام فيه في البحث الآتي ان شاء الله .

ماهي المشكلات التي يُمكن حلُّها بالتفسير الموضوعي ؟

إنَّ الاجابة على هذا السؤال واضحة للغاية من خلال ملاحظة مأمَر ذكره آنفاً ، ولكن للمزيد من التوضيح ينبغي الالتفات الى هذا الأمر وهو :
إنَّ الكثير من آيات القرآن الكريم تأخذ بُعداً واحداً من ابعاد موضوع ما ، فمثلاً فيما يخص مسألة «الشفاعة» فقد ورد في بعض الآيات اصل امكان الشفاعة .

وفي البعض الآخر «شروط الشفاعة» (سبأ ٢٣ ، ومريم ٧٨) .

وفي بعضها شروط «المشفَّع لهم» (الانبياء ٢٨ ، غافر ١٨) .

وفي بعض تُنفى الشفاعة عن الجميع ماعدا الله تعالى (الزمر ٤٤) .

وفي بعض آخر ثبتت الشفاعة لغير الله (المدثر ٤٨) .

نجد انَّ حالة من الغموض تحيط بامور الشفاعة بدءً من حقيقة الشفاعة وحتى سائر الشروط والخصائص ، ولكن عندما نأخذ آيات الشفاعة من القرآن ونضعها الى جانب بعضها ونفسرها في ظلِّ بعضها البعض يرتفع هذا الغموض وتُحلُّ المشكلة على أحسن وجه .

وكذلك الآيات المتعلقة بأبعاد الجهاد . أو الغرض من أحكام الاسلام ، أو الآيات المتعلقة بالبرزخ ، أو مسألة علم الله ، وكذلك موضوع علم الغيب ، وهل انَّ العلم بالغيب ممكنٌ لما سوى الله ام لا ؟ فلو وُضعت آيات كل موضوع في جانب فمن الممكن اداء حق الموضوع وتُحلُّ الاشكالات الموجودة عن طريق التفسير التفسير الموضوعي .

واساساً فإن الآيات المتعلقة بـ «المحكم» و «المتشابه» التي توعد بتفسير الآيات «المتشابهات» على ضوء «المحكمات» هي في حد ذاتها نمطاً من التفسير الموضوعي .

على أية حال ، فمن خلال تفسير الآيات المتعلقة بموضوع ما على ضوء بعضها البعض تنبثق عنها ومضات جديدة ، الومضات التي تكمن فيها معارف القرآن والحلول لكثير من المعضلات العقائدية واحكام الاسلام .

من هذا الباب يُمكن تشبيه آيات القرآن بالكلمات المتفرقة ، حيث ان لكل منها مفهوماً ذاتياً ، ولكن حينما تُرتَّب سوياً فهي تُعطي مفاهيم جديدة .

أو تشبيهها بالعناصر الحياتية مثل «الوكسجين» و «الهيدروجين» التي حينما تُركَّب مع بعضها ينتج عنها الماء الذي هو عنصر حياتي آخر .

خلاصة القول فلا يمكن حل الكثير من اسرار القرآن إلا عن هذا الطريق ، ولا يمكن النفوذ الى عمقها إلا من خلال هذا السبيل ، ونعتقد بأن هذا القدر كافٍ لتوضيح أهمية التفسير الموضوعي .

وباختصار يمكن تلخيص فائدة التفسير الموضوعي في النقاط التالية :

١ - ازالة الاشكالات التي تبرز في بعض الآيات للوهلة الاولى ، وحل المتشابه في القرآن .

٢ - الاطلاع على ظروف ومزايا واسباب ونتائج المواضيع والامور المختلفة المطروحة في القرآن الكريم .

٣ - الحصول على تفسير جامع بشأن مواضيع مثل «التوحيد» و «معرفة الله» و «المعاد» و «العبادات» و «الجهاد» و «الحكومة الاسلامية» ومواضيع مهمة اخرى .

٤ - الحصول على اسرار وايحاءات جديدة من القرآن من خلال الحاق الآيات

بعضها .

تاريخ التفسير الموضوعي

بوادر التفسير الموضوعي موجودة في نفس القرآن وكما قلنا فان أمر القرآن بتفسير الآيات المتشابهة بواسطة الآيات المحكمة هو نوع من التفسير الموضوعي .

وفي كلام أئمة الهدى عليهم السلام امثلة كثيرة تعلمنا اسلوب جمع الايات المرتبطة بموضوع معين وترتيبها ثم الاستفادة منها ، ولاجل اثبات هذا الأمر نكتفي بذكر عدد من الامثلة :

١ - في الرواية المعروفة ^(١) بعنوان وصية النبي ﷺ وموعظته لعبد الله بن مسعود المذكورة في بحار الأنوار - وهي رواية طويلة وكثيرة المضامين ، وفيها امثلة كثيرة بنحو يمكن القول ان الرواية تدور حول محور التفسير الموضوعي - عندما يتكلم ﷺ عن ذم الدنيا يقول : يا ابن مسعود ان الاحمق من طلب الدنيا زائلة . ثم يستدل على هوان الدنيا وزخارف هذا العالم بالآيات التالية :

﴿ أَمَّا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ... ﴾

(الحديد / ٢٠)

﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبَيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُورًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴾

(الزخرف / ٣٣ و ٣٤)

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلِيهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا ﴾

(الاسراء / ١٨)

وفي محل اخر يتكلم حول (القول بغير علم) ، ويقول ﷺ : يا ابن مسعود لا تقل شيئاً بغير علم ولا تتفوه بشيء ما لم تسمعه وتراه ، ثم يذكر آيات عديدة حول هذا الموضوع :

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (الاسراء / ٣٦) .

وقال تعالى : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (الزخرف / ١٩) .

وقال تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق / ١٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق / ١٦) .

وكذلك ذكرت الرواية ابحاثاً حول الذكر والإنفاق في سبيل الله ، ومكارم الاخلاق وغيرها اعتماداً على جمع الآيات وتبويبها .

٢ - جاء في حديث اخر عن امير المؤمنين علي عليه السلام تقسيم لمعنى «الكفر

في القرآن المجيد» .

إنَّ الكفر في القرآن على خمسة انحاء :

الاول : الكفر بمعنى الجحود والانكار ، وهو على قسمين :

الاول : انكار اصل وجود الله والجنة والنار والقيامة كما يحكي القرآن عن لسانهم ﴿ وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (الجاثية / ٢٤) .

والثاني : الكفر المقارن للمعرفة واليقين كما جاء في القرآن :

﴿ وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلُوًّا ﴾ (النمل / ١٤) .

الثالث : الكفر بمعنى المعصية وترك الطاعة كما أخبر الله سبحانه عن قوم من بني اسرائيل يؤمنون ببعض الكتاب ويكذبون ببعض اذ يقول سبحانه : ﴿ أَفْتَوْمُنُونَ بِنِعْصِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضِ ﴾ (البقرة ٨٥) .

الرابع : الكفر بمعنى البراءة والتنصل كما قال سبحانه عن لسان ابراهيم عليه السلام لعبد الاصنام (كفرنا بكم) (الممتحنة ٣) ، وقال سبحانه ايضا ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بِنِعْصِكُمْ بِبَعْضِ ﴾ (العنكبوت / ٢٥) .

الخامس : الكفر بمعنى عدم شكر النعمة كما قال سبحانه : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (ابراهيم / ٧) .

ثم يجمع عليه الآيات الواردة في الشرك واقسامه في القرآن فيقسمها الى الشرك في العقيدة ، والشرك في العمل ، والشرك في الطاعة ، وشرك الرباء ويوضح كلاً منها بذكر الآيات القرآنية ^(١) .

وكما تلاحظ فان الامام عليه السلام بتقسيمه لآيات الكفر والشرك يلقي نظرة كلية على هذا الموضوع ، ويوضح بان لهذين المصطلحين مفهوماً واسعاً شاملاً ، فالكفر يشمل كل تغطية للحق سواء كان في العقائد او في العمل أو في المواهب الالهية ، والشرك يتضمن كل جعل لقرب مع الله سبحانه سواء كان في العقائد او في العمل او الطاعة للقوانين . ويتضح جيداً بهذا العرض الجميل للتفسير الموضوعي في المثالين المذكورين لكلمات الامام عليه السلام الدور الكبير لهذا التفسير في توسيع رؤية الانسان والفهم العميق للآيات القرآنية .

والنموذج البديع الاخر ما ورد في كلام الامام موسى بن جعفر عليه السلام لهشام

بن الحكم .

فالإمام عليه السلام وفي مقام بيان منزلة العقل يذكر الآيات المرتبطة بـ « اولي الالباب » ويجمعها كلها ويقول لهشام :

« أنظر كيف ان الله سبحانه وصف اولي الأبواب على أحسن وجه وزينهم بافضل لباس » ، ثم يذكر سبع آيات من القرآن المجيد تتكلم عن منزله اولي الالباب وهي (البقرة / ٢٦٩ - ال عمران ٧ - ال عمران ٩ - ص ٢٩ - المؤمن ٥٤)^(١) .

فالقيام بجمع هذه الآيات والنظر اليها جنباً الى جنب يعطي للانسان رؤية عميقة يستطيع معها فهم معنى اولي الالباب ومقامهم ومنزلتهم ، وهذا عمل لا يتم الا عن طريق التفسير الموضوعي .

هذه نماذج من اصول التفسير الموضوعي في كلمات قادة الاسلام العظام ، النبي ﷺ وائمة الهدى عليهم السلام ، وهناك نماذج عديدة اخرى لم نذكرها تجنباً للاطالة .



التفسير الموضوعي في كلمات العلماء السابقين

ان التفسير الموضوعي لم يذكو الا في فترات محددة وحول موضوعات خاصة ، الا انه ورد كثيراً على السنة العلماء السابقين ، ولكن يجب الاعتراف باننا لانعرف احداً منهم تناول التفسير الموضوعي على جميع المحاور .

(١) اصول الكافي الجزء ١ الصفحة ١٥ كتاب العقل والجهل .

ومن الرواد الاوائل في هذا المضمار العلامة المجلسي رحمته الله حيث نراه قد تصدى لجمع كل الآيات المرتبطة بالموضوع عند دخوله في كل فصل من فصول بحار الانوار، ثم يلقي عليها نظرة شاملة وينقل احياناً آراء المفسرين ويسعى لتوضيح ما يذكره من الآيات .

فنرى مثلاً في المجلد (٦٧) عندما يتكلم حول «القلب» و «السمع» و«البصر» ومعنى كل منها في القرآن الكريم ، يجمع عشرات الآيات ثم يذكر رواية من الكافي ثم يقوم بذكر بيان جامع لها ، فيستغرق بحثه في هذا المجال عشر صفحات تقريباً^(١) .

وفي المجلد (٥٨) في فصل حقيقة الرؤيا وتعبيرها يذكر أولاً أكثر من عشر آيات من القرآن حول هذا الموضوع ثم يبحث في تفسيرها عدة صفحات^(٢) .

وفي المجلد ٢٢ في الباب الاول يبحث عن ما جرى لليهود والنصارى والمشركين بعد الهجرة ، فيذكر عشرات الآيات من مختلف السور حول هذا الموضوع ثم يقوم بتفسيرها^(٣) . وقد اتبع هذا المحقق العظيم نفس الاسلوب في الفصول الاخرى من الكتاب .

ومن الامثلة الاخرى للتفسير الموضوعي في كلمات المتقدمين ، الكتب المؤلفة تحت عنوان آيات الاحكام . ففي هذه الكتب ذكرت الآيات المرتبطة بالاحكام الفقهية ، مثل الآيات المرتبطة باجزاء وشروط الصلاة وأقسام وشروط الصوم ، والحج والنكاح والطلاق واحكام الحدود والديات والقضاء وغيرها ، حيث جمعت الآيات وتم بحثها على نحو موضوعي وجنباً الى جنب .

(١) بحار الانوار الجزء ٦٧ الصفحة ٢٧ الى ٤٣ .

(٢) بحار الانوار الجزء ٥٨ الصفحة ١٥١ الى ١٥٨ .

(٣) نفس المصدر الجزء ٢٢ الصفحة ١ الى ٦٢ .

ويبدو ان اول كتاب في هذا المجال هو كتاب (احكام القرآن) تأليف (محمد بن صاحب الكلبي) ، وهو من اصحاب الامام الباقر عليه السلام والامام الصادق عليه السلام والمتوفي سنة (١٤٦) هـ فهو سابق حتى للشافعي الامام المعروف المتوفي سنة (٢٠٤) هـ بتأليف كتاب بهذا النحو .

وبعده تصدى العديد من الفقهاء والعلماء لتأليف الكتب في مجال آيات الاحكام (تارة بهذا الاسم وتارة باسماء اخر) وقد ذكر المرحوم المحدث الطهراني في كتاب «الذريعة» ثلاثين كتاباً من هذه السلسلة ^(١) ، واشهرها بين العلماء والفقهاء المعاصرين كتاب آيات الاحكام للمحقق الاردبيلي المسمى بـ «زبدة البيان» ، وآيات الاحكام للفاضل المقداد المسمى بـ (كنز العرفان) .

وجاء في الكتاب الاخير أن من المشهور بين العلماء انه يوجد خمسمائة آية في القرآن المجيد حول الاحكام الفقهية ، وهذا مع حساب الآيات المتكررة في هذا المجال والا فالعدد اقل من ذلك ^(٢) .

وكذلك كتب مثل « اعجاز القرآن في العلوم المعاصرة » وفيه الايات المرتبطة بالاكتشافات العلمية المعاصرة ، والتي تعد من المعجزات العلمية للقرآن ، وكتاب «المجتمع والتاريخ» او «الحقوق في القرآن المجيد» ، وكلها تعبير عن السعي المستمر في مجال التفسير الموضوعي .

كما ألقت كتب حول قصص القرآن تم فيها توضيح قصص الانبياء بواسطة جمع آيات القرآن .

ولكن مع هذا يجب الاعتراف بأن كل هذه الكتب ناظرة للتفسير الموضوعي في فرع معين وزاوية محددة ، وليست بصدد تفسير جامع وشامل

(١) الذريعة الى تصانيف الشيعة الجزء ١ الصفحة ٤٠ - ٤٤ .

(٢) كنز العرفان الجزء ١ الصفحة ٥ .

لكل موضوعات القرآن . وفي الفترة الاخيرة بذلت محاولات ومساع للتفسير الموضوعي الواسع للقرآن وتستحق كل التقدير .

ومن جملة هذه الكتب يمكن ذكر كتاب « مفاهيم القرآن » وقد صدر عدد من مجلداته بالفارسية والعربية وهو كتاب قيّم .

ولكن مع هذه المساعي التي تستحق التقدير يجب الاعتراف بأنّ مسألة التفسير الموضوعي للقرآن لا زالت في مرحلة الطفولة . وتحتاج الى سنين كي تحتل مكانها ومنزلتها المناسبة لها كالتفسير الترتيبي ، وهذا لا يتم الا بالسعي المستمر الدائب للعلماء والمفسرين ، وبلاستفادة من تجارب الماضين وتنميتها وايصالها الى درجة الكمال المطلوب .

وما تراه في هذا الكتاب هو حلقة من هذه السلسلة التي نأمل لها ان تنضم الى الحلقات المعتمرة الاخرى . والمهم ان يتجنب اصحاب النظر والمعرفة الاعمال المكررة في هذا المجال ، وان يبادر كل منهم الى الابداع والتجديد حتى يمكن تحت ظل هذه الابداعات ان نطوي هذا الطريق الطويل .



الاسلوب الصحيح في التفسير الموضوعي :

يوجد اسلوبان للتفسير الموضوعي :

الاسلوب الاول : الذي اختاره بعض المفسرين في عملهم ، هو انهم

يتناولون المواضيع المختلفة كالموضوعات العقائدية (التوحيد والمعاد و....) او

الموضوعات الأخلاقية (التقوى حسن الخلق و ...) ، وبعد ذكر بحوث فلسفية

وكلامية او اخلاقية يذكرون بعض الآيات القرآنية المرتبطة بالموضوع بعنوان

الشاهد .

الأسلوب الثاني : وهو الذي يتم فيه قبل كل شيء جمع الآيات الواردة حول الموضوع من جميع أنحاء القرآن ، وقبل أي حكم أو ابداء نظر يتم جمع الآيات وتفسيرها جنباً الى جنب ، وجمعها وبملاحظة ترابطها نحصل منها على الصورة الكاملة .
وهنا لا يملك المفسر شيئاً من عنده مطلقاً ، ويسير كالظل خلف آيات القرآن فيفهم كل شيء من القرآن ويكون كل همه كشف محتوى الآيات ، وإذا استعان بكلمات الآخرين بل حتى بالاحاديث فهو في المرحلة الثانية وبنحو منفصل .

ونحن اخترنا هذا الأسلوب في (نفحات القرآن) وقد جمعنا كل الآيات الواردة في كل موضوع وجعلناها في مقدمة كل بحث . وجعلنا كل مسائل البحث تسير تحت ظل الآيات ، ونعتقد ان هذا هو السبيل الأمثل لايصالنا الى حقائق القرآن .

وهذان الاسلوبان متبعان في التفسير المعتاد (التفسير الترتيبي حسب السور والآيات) فجماعة يحملون آيات القرآن على آرائهم وجماعة اخرى يجعلون آراءهم تابعة لآيات القرآن ومن الواضح ان الاسلوب التفسيري الصحيح هو الثاني .

القرآن (نور وكتاب مبين) فهو يبين كل الحقائق المرتبطة بسيادة الانسان ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ ^(١) .

مشكلات التفسير الموضوعي :

يواجه المفسر في طريقه ثلاث مشكلات مهمة على الأقل .

١ - ليس التفسير الموضوعي بان تجعل فهارس الآيات امامك وتجمع الآيات التي يرد فيها ذكر لكلمات المواضيع التي تريد البحث فيها ، مثل الجهاد والتقوى لان الكثير من الآيات تتكلم حول هذه المواضيع بدون أن تذكر فيها كلمة التقوى او الجهاد وامثال هذا كثير .

ولا بأس هنا ان نذكر مثلاً واحداً ، نحن نعلم أن الله سبحانه « رحمَن » و « رحيم » و « أرحم الراحمين » وهذا المعنى منعكس في الكثير من آيات القرآن ، ولكن توجد آيات تبين هذه الحقيقة بدون استعمال مادة « رحم » منها الآية (٦١) من سورة النحل ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ ذَابَّةٍ ﴾ (١)

ونفس هذا المعنى مع اختلاف يسير ذكر في الآية (٤٥) من سورة فاطر ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ ذَابَّةٍ ﴾ .
هاتان الايتان تشيران الى رحمة الله ولطفه المطلق على عباده من غير أن تستعمل مادة (رحم) في الايتين .

٢ - المشكلة الاخرى في التفسير الموضوعي مشكلة جمع الآيات واخذ النتيجة منها ، فهذه العملية تحتاج الى دقة وظرافة وذوق ووعي كامل واحاطة تامة بالآيات القرآنية والتفاسير ، وعندما تكون الآيات المرتبطة بموضوع ما كثيرة ويكون لكل منها بعدٌ خاصٌ بها فان الجمع سيكون اكثر تعقيداً .

(١) لا بد من الاشارة ان الآية الاولى تشير الى ظلم الناس وفي الآية الثانية جاء بدل الظلم الاكتساب ، ومن جمع الآيتين معا يظهر ان الكثير من الاعمال التي تصدر من الناس ليست خالية من نحو من انحاء الظلم .

مضافاً الى ذلك فإنّ التفسير الموضوعي لا يزال يخطو خطواته الاولى ولم يُبذل فيه سعي وعمل كثير . وهذا بجعل امر البادئين بهذا العمل صعباً ومعقداً ويختلف كثيراً عن التفسير المعتاد المتبع منذ نزول القرآن .

٣ - المشكلة الكبيرة الثالثة ان موضوعات القرآن الكريم هذا الكتاب الالهي العظيم لا حد لها ولا حساب ففيه المسائل العقائدية والعملية ، وفيه المسائل الاخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، واداب العشرة واحكام الحرب والسلم وتاريخ الانبياء وأمور الكون و ...

وفي كل واحدة من هذه الامور موضوعات كثيرة بحثها القرآن . ومناقشة كل هذه المسائل تحتاج الى وقت طويل وصدر واسع . وحياناً تبحث الآية الواحدة في التفسير الموضوعي ابحاثاً عديدة من جهات مختلفة ، وفي كل بُعد من ابعادها يجب بحث فصل خاص به ، في حين تفسر الآية في التفسير الترتيبي تفسيراً واحداً فقط .



لماذا لم ينم هذا النوع من التفسير نمواً كافياً ؟

يبدو ان جواب هذا السؤال قد اتضح من الابحاث السابقة ، فالمشكلات الكثيرة في طريق التفسير الموضوعي ، قد منعت من نموّه خاصة ، وان التفسير الموضوعي يحتاج الى معاجم دقيقة وجامعة بحيث يمكن استخراج الآية منها بسهولة ولم تكن توجد في السابق ، ولكنها اليوم بحمد الله في متناول الايدي . ومن الطريف ما جاء في مقدمة المعجم القرآني المعروف بـ « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » حيث قال : (ان المتقدمين اهتموا كثيراً بالعلوم

العلوم القرآنية ولكن لم يهتموا باعداد معجم دقيق لتعيين آيات القرآن ، والسبب في ذلك انّ اغلبهم كان من حفظة القرآن) !

ولا نعلم مدى صحة هذا الرأي ، وافترض كون الانسان حافظاً للقرآن لايجعله مستغنياً عن المعجم ، الذي هو وسيلة لابد منها من أجل التفسير الموضوعي (وان كانت بوحدها ليست كافية) ، وهذا العمل لم يتم في السابق الا بنحو ناقص ودون الهدف احياناً .

ولابد من الاشارة الى مسألة هنا وهي ان جمعاً من العلماء الغربيين والاجانب المحبين للقرآن المجيد بذلوا أتعاباً من اجل اعداد معاجم لهذا الكتاب السماوي ومن نماذجها المعتمدة كتاب « نجوم الفرقان في اطراف القرآن » اعداد المستشرق الالماني «فلوغل» وتأليفات اخرى بواسطة المسلمين مثل « مفتاح كنوز القرآن » وكتاب « فتح الرحمن » .

وبناءً على تصريح مقدمة «المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم» فان هؤلاء هم الذين امكنوا المؤلف على اعداد هذا المعجم الغني البديع وجعله في متناول ايدي علماء الاسلام .

وأخر ما نقوله هنا هو انه على الرغم من جميع المشكلات والمعوقات الموجودة في طريق التفسير الموضوعي ، فان بركاته ومعطياته كثيرة بنفس النسبة وخاصة العلماء والمحققين ، حيث تتكشف لهم في ضوئه الحقائق التي تزيدهم ايماناً وقوة ونشاطاً لمواصلة العمل وتؤجج في قلوبهم نار الشوق والمحبة حيث ان مثل الآية القرآنية عندما نتحدث حول موضوع ما لوحدها ، كمثل النقطة التي اذا اجتمعت مع نقاط اخرى ورتبت كونت شكلاً جذاباً وصورة بديعة لم تكن موجودة من قبل ، وهذا امر مهم جداً ويبعث على النشاط والاشتياق ، وكما ذكرنا فان النبي ﷺ وائمة اهل البيت عليهم السلام ، ارشدونا منذ البداية الى التفسير

الموضوعي ووردت في كلامهم نماذج مختلفة جميلة وجذابة وقد اشرنا الى البعض منها .



وحيث ننتهي من هذه المقدمة نجد انفسنا امام هذا العمل الهائل المستصعب ولا ريب في اننا لا نستطيع اعتماداً على انفسنا ان نحمل هذه الأمانة ونوصلها الى الهدف الا بلطف الله وعونه وعنايته ، ونحن هنا بكامل وجودنا نصب اليه وجوهنا ونمد اليه ايدينا قائلين .

الهنا ! خذ بايدينا في هذا الطريق ، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم ، احفظنا في هذا الطريق الكثير المزالق من السقوط في وادي الضلالة ، وتفضل علينا بالتوفيق لاتمام هذا العمل على النحو الاحسن .

آمين رب العالمين



كل عمل باسم الله

كل عمل باسم الله

تمهيد :

علّمنا القرآن الكريم في بداية كل سورة (عدا سورة التوبة) وفي آيات كثيرة اخرى أن نبدأ عملنا باسم الله وأن نعطر أجواء قلوبنا وأرواحنا بطيب اسمه .
باسم « الله » وهو الجامع للصفات الكمالية .
باسم « الرحمن » و « الرحيم » .
بسمه الذي على كل شيء قدير .
بسمه الذي بكل شيء عليم .
ان هذا الاسم المقدس ينور القلب ويهب لروح الصفاء والقوة والنشاط .
ذكر رحمته الخاصة والعامة تبعث في الإنسان عالماً من الأمل .
ذكر قدرته وجبروته يبعث في الانسان الجرأة لمواجهة المصاعب .
ذكر علمه واحاطته بكلّ إنسان وبكل شيء يُطمئنُ الانسان بانه ليس لوحده .

فاذا بدأنا عملنا بهذه الروح فانه سيصل الى غايته بلا شك ، وكل سعي وجهاد يبذل وفق هذا المنهج نتيجه النصر والفلاح .

لذلك فقد رأينا أن أفضل ما نبدأ به بحثنا في هذا الكتاب هو موضوع
(بداية كل عمل باسم الله) .

فنبداً أولاً بمناقشة الآيات المرتبطة بهذا المعنى ، ثم نقوم بعملية التفسير
والجمع ، وفي المرحلة الأخيرة نذكر بحوثاً مكملّة تحت عنوان «توضيحات»
وسنواصل اتباع هذا الأسلوب بالترتيب المذكور الى آخر الكتاب ان شاء الله .

الآيات :

١ - ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

(كل سور القرآن عدا سورة براءة)

٢ - ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

(العلق / ١)

٣ - ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُزْسُهَا إِنَّ رَبِّي
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(هود ٤١)

٤ - ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ الْكِتَابَ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ
سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي
مُسْلِمِينَ ﴾

(النمل ٢٩ - ٣٠ - ٣١)

شرح المفردات:

الاسم : يعتقد الكثير من علماء اللغة ان هذه الكلمة في الاصل مشتقة من مادة « سمو » (على وزن علو) بمعنى الارتفاع وحيث ان التسمية سبب للمعرفة والظهور وعلو المنزلة لكل شيء استخدمت كلمة اسم في هذا المعنى ^(١).

(الرحمن) و (الرحيم) كلمتان مشتقتان من ماده « رحمة » والمعروف ان (الرحمن) يعني ذو الرحمة العامة الشاملة للجميع و (الرحيم) يوصف بها ذو الرحمة الخاصة وعلى هذا فان رحمانية الله جعلت فيضه ونعمته شاملة للعدو والصديق والمؤمن والكافر ، ولكن رحيمته أوجبت للمؤمنين مواهب خاصة في الدنيا والاخرة في حين ان هذه المواهب محرمة على الغافلين والبعيد عن الله . والشاهد على هذا الاختلاف مايلي :

١ - « الرحمن » صيغة مبالغة والرحيم صفة مشبهة ، وصيغة المبالغة تفيد معنى التأكيد بنحو اكثر وتدل على سعة هذه الرحمة ولكن البعض يرى ان كليهما صفة مشبهة او ان كليهما صفة مبالغة ، ولكن مع ذلك صرحوا بان الرحمن تفيد معنى المبالغة الكثيرة ^(٢).

٢ - وقال البعض ان الرحيم صفة مشبهة وتفيد الإستمرار والثبات لذلك هي مختصة بالمؤمنين ، لكن الرحمن صيغة مبالغة ولاتدل على المعنى المذكور.

(١) البعض يرى ان الاسم من مادة (وسم) بمعنى (العلامة) ولكن يبدو ان هذا غير تام لان جمعه على هيئة اسماء وتصغيره بـ (سُمي) و (سَمِيه) يدل على عدم وجود (الواو) في اصله والبعض يعتبره مشتقاً من كلمة (شما) وهي اصطلاح عبري وعند التعريب صارت بهيئة اسم وسماء (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) ولكن هذا مستبعد ايضاً ولا شاهد عليه . والشاهد الاخر على عدم كون الاسم مشتقاً من مادة (وسم) ان الهمزة في اسم تسقط عند وصل الكلام ولو كانت من مادة (وسم) فالهمزة بدلاً عن الواو ولا ينبغي ان تسقط .

(٢) راجع تفسير مجمع البيان وروح المعاني والميزان الجزء ١ الصفحات ٢٠ و ٥٥ و ١٦ على التوالي .

٣ - (الرحمن) اسم خاص بالله ولا يطلق على غيره ، في حين ان الرحيم يقال له ولغيره ، وهذا دليل على ان مفهوم الرحمن يدل على رحمة اوسع .

٤ - هناك قاعدة معروفة في الادب العربي وهي زيادة المباني تدل على زيادة المعاني ، يعني ان الكلمة التي حروفها اكثر فان مفهومها يكون اكبر وحيث ان (رحمن) خمسة احرف و (رحيم) أربعة احرف فمفهوم (رحمن) اوسع ^(١) .

٥ - كما ان البعض استفاد هذا المعنى من آيات القرآن حيث أن (الرَّحْمَنُ) . ذكر غالباً بنحو مطلق ، في حين ان (رحيم) ذكر مقيداً في كثير من الموارد مثلاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّوُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة / ١٤٣) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ (النساء / ٢٩)

اما الرحمن فذكر من غير قيود فهو يدل على عموم رحمته .

٦ - وتشهد بعض الروايات على هذا الاختلاف ، ففي حديث عميق عن الامام الصادق عليه السلام نقراً : (الرحمن اسم خاص بصفة عامة والرحيم اسم عام بصفة خاصة) ^(٢) .

ولكن مع هذا لا يمكن ان ننفي استخدام الكلمتين في معنى واحد ، كما ورد في دعاء الامام الحسين عليه السلام في يوم عرفة : (يا رحمن الدنيا والاخرة ورحيمهما) ويمكن ان يعد هذا استثناءً فلا ينافي الاختلاف المذكور .

« مجراها » و « مرساها » .

كلتا الكلمتين اسم زمان او اسم مكان بمعنى مكان الحركة وزمانها ، أو مكان التوقف وزمانه ^(٣) .

(١) تفسير شبر الصفحة ٣٨ وروح المعاني الجزء ١ الصفحة ٥٦ .

(٢) مجمع البيان ، المجلد ١ الصفحة ٢١ .

(٣) قال بعض المفسرين انها اسم زمان فقط كما (مجمع البيان) والبعض اعتبرها اسم مكان فقط كما

الاولى مشتقة من مادة (جريان) والثانية من مادة (رسو) على وزن (رَسَم) بمعنى الثبات والاستقرار لذلك يقال للجبال (الرواسي) جمع (راسية) لانها ثابتة ومستقرة .

جمع الآيات وتفسيرها

لماذا نبدأ فقط باسم الله ؟

في الآية الاولى (بسم الله الرحمن الرحيم) التي تصدرت كل سور القرآن (ما عدا سورة براءة) يعني نعلمكم ان تبدأوا عملكم باسم الله الرحمن الرحيم وتستعينوا به في اداء عملكم وتنفيذ خططكم^(١) .

ان اعمالنا مهما تكن فهي فانية زائلة وصغيرة محدودة ، أما عندما نربطها بتلك الذات القدسية الباقية الخالدة التي لا حد لها ولا نهاية ، فانها ستصطبغ بصبغته وتستلهم من عظمته وازليته .

قوتنا مهما تكن فهي ضعيفة لكن عندما ترتبط تلك القطرات بالبحار العظيمة للقدرة الالهية فانها ستجد العظمة وتكتسب روحاً جديدة وهذا كله رمز بسم الله في بداية كل عمل .



→ في (الميزان) والبعض اعتبرها اسم زمان ومكان كما في (تفسير شبر) .

(١) البعض يعتقد ان هناك جملة محذوفة وهي (ابتدء) ، والبعض قال هي (استعين) ، نعم في صورة كون الجملة عن الله سبحانه (كما في جميع السور عدا الحمد) فحينئذ يتعين المعنى الاول ولكن في خصوص سورة الحمد حيث ان الجملة تعبير عن لسان العباد فيكون فيها المعنى الاول او الثاني او كلاهما وعلى هذا فان (ب) في بسم الله اما بمعنى الاستعانة او بمعنى الأبتداء (تأمل جيداً) .

في الآية الثانية كلام عن خطاب جبرئيل الأمين في بداية البعثة للنبي
الأكرم ﷺ عندما احتضن النبي وضمه وقال ﴿ إقرأ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ .
وبهذا فقد بدأ جبرئيل منهاج رسالته عند بعثة النبي ﷺ باسم الله ..

الآية الثالثة تتحدث عن قصه نوح عندما حلت لحظة الطوفان والعقاب
الالهي الشديد على قومه الكفرة والطغاة ، وعندما استعدت السفينة للحركة
وصدر الأمر لأصحاب نوح الذين لم يتجاوز عددهم الثمانين بان يركبوا في الفلك
قال (بسم الله مجريها ومرسها) ثم استعان بمغفرة الله ورحمته وقال ﴿ إِنَّ رَبِّي
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وفي الآية الاخيرة كلام عن كتاب سليمان الى ملكة سبأ بعد ان أخبره
الهدهد عن قوم سبأ وعبادتهم للاصنام .
وعندما تناولت ملكة سبأ الكتاب جمعت اعوانها وافراد البلاط وقالت
﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

من مجموع الآيات الأربع المذكورة ندرك جيداً ان ابتداء كل عمل يجب ان

يكون بـ (بسم الله) ، سواء كان في التعليم والهداية مثل سور القرآن او كان دعاءً من العباد مع الذات القدسية مثل سورة الحمد ، او بداية البعثة والرسالة وأول نداء للوحي مثل بداية سورة العلق ، أو أنه بداية الحركة للنجاة من الاخطار والطوفان وبداية توقف السفينة والنزول منها للابتداء بالمنهج الجديد كما في قصة نوح ، أو ابتداء الكتاب المرسل من أجل الدعوة للتسليم الى الحق كما في كتاب سليمان لملكة سبأ .

وخلاصة الكلام ان العمل سواء كان من الله سبحانه او من الخلق او من جبرئيل او من الانبياء مثل نوح وسليمان او من عامة الافراد ، يجب ان يبدأ بـ (بسم الله) ويرتبط بالذات المقدسة ويستمد منه القوة والعلم والادراك .

وهذا هو معنى الحديث المعروف للنبي ﷺ (كل امر ذي بال لم يذكر فيه اسم الله فهو ابتر)^(١) .

والأمر الذي ينبغي ملاحظته ان الصفات التي ذكرت بعد بسم الله في الآيات المذكورة تناسب العمل الذي بدأ بـ (باسم الله) ففي قصة نوح جاء ذكر (غفور رحيم) وهو اشارة الى شمول الرحمة الالهية لاصحاب نوح ، وفي قصة نزول اول آية جاء ذكر صفة الربوبية والخالقية ونحن نعلم ان مسألة الوحي بداية لعمل تربوي وعلى هذا فان التربية التشريعية تقترن بالتربية التكوينية .

وبهذا نعلم ان الاستفادة من ذكر الصفات المناسبة لتعليم للجميع حول كيفية ابتداء اعمالهم بـ (بسم الله) .

(١) سفينة البحار الجزء ١ مادة (سما) .

توضيحات :

١ - الهمية الخاصة لـ « بسم الله »

نلمس في الروايات الاسلامية اهمية كبيرة لهذه الآية المباركة وانها في درجة (الاسم الاعظم الالهي) ، كما روي عن الامام الصادق عليه السلام من انه قال : (بسم الله الرحمن الرحيم أقرب الى اسم الله الاعظم من ناظر العين الى بياضها)^(١).

وفي حديث اخر عن الامام الرضا عليه السلام (أقرب من سواد العين الى بياضها)^(٢). ان لـ (بسم الله) اهمية بالغة الى درجة بحيث ان بعض الروايات ذكرت ان في تركها تعريض النفس للعقاب الالهي ، كما ورد في رواية ان عبد الله بن يحيى دخل في مجلس امير المؤمنين عليه السلام وكان امامه سرير فامرہ الامام ان يجلس عليه فتحطم السرير فجاء ووقع عبد الله على الارض وجرح رأسه وخرج منه الدم فأمر امير المؤمنين عليه السلام بماء فغسلوا الدم ثم وضع الأمير يده على الجرح فاحس عبد الله بألم شديد في أول الأمر ثم بريء جرحه فقال الامام عليه السلام : (الحمد لله الذي يغسل ذنوب شيعتنا ويطهرها بالحوادث المؤلمة) .

فقال عبد الله : يا امير المؤمنين لقد نبهتني ، أخبرني أي ذنب ارتكبته حتى اصاب بهذا الحادث المؤلم كي لا عود الى ذنبي فان ذلك يسعدني .

فقال عليه السلام : عندما جلست على السرير لم تقل : (بسم الله الرحمن الرحيم) الم تعلم ان رسول الله ﷺ قال عن لسان ربه : (ان كل عمل ذي بال لم يبدأ فيه بسم الله فهو ابتر ولا ثمرة فيه) .

فقال عبد الله : فديتك لا ادعها بعد هذا ابداً .

(١) (٢) « تفسير البرهان » الجزء ١ الصفحة ٤١ الحديث ٢ و ٩ .

فقال الامام عليه السلام : اذا ستكون سعيداً ^(١) .

ولكن من الواضح ان الاسم الاعظم او بسم الله الذي هو اقرب ما يكون اليه ليس المقصود منه جريان الفاظه على اللسان ، فالتلفظ لوحده لا يحل العقد المستعصية ولا يفتح ابواب الخيرات والبركات ولا ينتظم به شتات الأمور ، بل المراد هو التخلق به .

يعني ان مفهوم بسم الله يجب ان يرتكز في روح الانسان وباطنه ، وعندما يتلفظ بها بلسانه يشعر ان كامل دقائق وجوده قد دخل في الجَمِى الالهية وصار من اعماق وجوده يستمد من ذاته المقدسة .

وينبغي الانتباه الى ان التأكيد على الابتداء بـ «بسم الله» ليس فقط في الكلام وانما في الكتابة ايضاً كما في كتاب سليمان عليه السلام الى بلقيس .

في حديث الامام الصادق عليه السلام : (لا تدع البسمة ولو كتبت شعراً) ثم ذكر الامام عليه السلام انهم كانوا يبدأون رسائلهم قبل الاسلام بعبارة (بسمك اللهم) .

ولما نزلت الآية الكريمة ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ . بدأوا رسائلهم بعبارة (بسم الله) .

وفي حديث اخر نقرأ ان الامام الهادي عليه السلام وصى احد وكلائه وهو داود الصرمي الذي قال : أمرني (عليه السلام) بحوائج كثيرة فقال لي : قل كيف تقول ؟ ، فلم أحفظ مثل ما قال لي ، فمدّ الدواة وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) اذكر انشاء الله والأمر بيد الله ، فتبسمت ، فقال : مالك قلت خير فقال : أخبرني ، قلت : جعلت فداك ذكرت حديثاً حدثني به رجل من أصحابنا عن جدك الرضا (عليه السلام) اذا مرّ بحاجة كتب : (بسم الله الرحمن الرحيم) اذكر انشاء الله فتبسمت ، فقال لي :

(١) بحار الانوار الجزء ٧٣ الصفحة ٣٠٥ مع التلخيص .

يادادود لو قلت ان تارك التسمية كتارك الصلاة لكنت صادقاً^(١).

إنَّ أهمية بسم الله تبدو بدرجة عظيمة بحيث نقرأ في حديث عن رسول الله ﷺ انه قال : (اذا قال المعلم للصبي بسم الله الرحمن الرحيم (ويكرر الطفل ذلك) كتب الله براءة للصبي وبراءة لابويه وبراءة للمعلم)^(٢).

ونختم هذا الكلام ، بمقالة مشهورة بين جماعة من المفسرين وهي :

إنَّ معاني كل الكتب الالهية مجموعة في القرآن .

ومعاني كل القرآن مجموعة في سورة الحمد .

ومعاني كل سورة الحمد في بسم الله .

ومعاني بسم الله مجموعة في الباء^(٣) .

وتمركز جميع مفاهيم القرآن والكتب الالهية في باء بسم الله يمكن ان يكون من ناحية كون كل المخلوقات في عالم التكوين ، وكل التعليمات في عالم التشريع تستمد وجودها من الذات المقدسة حيث انها علة العلل لجميع العوالم ، ونعلم ان باء بسم الله للاستعانة وطلب النصرة من الله وهذه مسألة جديدة بالدقة والتأمل .



٢ - هل ان بسم الله جزء لكل سورة ؟

لم يعد المفسرون وعلماء العلوم القرآنية (بسم الله) من آيات السور عند

(١) سفينة البحار مادة (سما) : ج ١ ، ص ٦٦٣.

(٢) تفسير البرهان الجزء ١ الصفحة ٤٣ حديث ٣٢ .

(٣) تفسير روح المعاني الجزء ١ الصفحة ٣٧ .

حسابهم للآيات القرآنية الا في سورة الحمد ، التي اجمع الفقهاء واتفقوا على ان بسم الله جزء منها ولذلك فقد ذكروا ان آياتها سبع ومنها بسم الله .

وكذلك فإن احد الاسماء المعروفة لهذه السورة فـ « السبع » لأنها سبع آيات و « مثنائي » ، لانها نزلت على رسول الله ﷺ مرتين نظراً لأهميتها .

ولكن مع هذا فان كتابة بسم الله في جميع المصاحف القديمة والجديدة دليل قاطع على جزئيتها للسور .

روي عن عبد الله بن عمر انه كان اذا بدأ الصلاة بعد التكبير قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، وكان يقول اذا لم تقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فلماذا كتبت في القرآن ؟ !^(١) .

واورد السيوطي في المجلد الاول في تفسيره الدر المنثور وهو عالم معروف من اهل السنة روايات كثيرة حول جزئية بسم الله لسورة الحمد .

وهناك روايات كثيرة من طرق ائمة الهدى واهل البيت عليه السلام وردت في جزئية بسم الله لسورة الحمد ولبقية سور القرآن الكريم . لذلك فان علماء الشيعة متفقون ومجمعون على جزئيتها في جميع الموارد^(٢) .

ونذكر مثلاً على الاحاديث الواردة من طرق اهل السنة ماورد عن « جابر بن عبد الله » من ان النبي ﷺ قال له « اذا قمت للصلاة فكيف تقرأ ؟ » فقال جابر : اقول الحمد لله رب العالمين (اي بدون بسم الله) فقال له النبي ﷺ قل « بسم الله الرحمن الرحيم »^(٣) .

(١) سنن البيهقي الجزء ٢ الصفحة ٤٣ - ٤٧ .

(٢) راجع كتب الخلاف للشيخ الطوسي الجزء ١ الصفحة ١٠٢ مسألة ٨٢ وسنن البيهقي الجزء ٢ الصفحة ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ والدر المنثور الجزء ١ الصفحة ٧ - ٨ والبيان في تفسير القرآن الصفحة ٥٥٢ .

(٣) الدر المنثور: ج ١ ص ٨ .

ومن اجل رفع سوء الفهم والتوهم أصّر النبي ﷺ ان يجهر بـ (بسم الله) في كثير من الصلوات تقول عائشة : ان رسول الله ﷺ كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم^(١).

وفي حديث اخر يقول احد اصحاب النبي ﷺ : كنت اصلي خلف النبي ﷺ وكان يجهر ببسم الله في صلوات المغرب والعشاء والصبح وصلوة الجمعة خاصة^(٢).

والملفت للنظر ما رواه البيهقي من ان معاوية صلى باهل المدينة فتلا بسم الله الرحمن الرحيم في اول سورة الحمد ، ولكن لم يقرأ بسم الله للسورة التي بعدها ولم يكبر حتى ذهب للركوع ، فعندما سلم للصلاة اعترض عليه جماعة من المهاجرين وقالوا : اسرقت من الصلاة ام نسيت ؟ فكان معاوية بعد ذلك يقرأ بسم الله للسورة بعد الحمد أيضاً^(٣).

ولكن مع ذلك فان جماعة من علماء السنة لازالوا يتركون بسم الله في الصلاة وحتى في سورة الحمد او يقرأونها اخفائاً ! وهذا أمر عجيب ، وينبغي ان نذكر ان الفخر الرازي ذكر في تفسيره تسعة عشر دليلاً على اثبات ان بسم الله الرحمن الرحيم جزء من سورة الحمد واكثرها روايات عن النبي الاكرم ﷺ .

والآلوسي المفسر المعروف وان ناقش هذه الادلة في تفسيره (روح البيان) ، ولكنه يصرح ان بسم الله آية مستقلة في القرآن وان كانت ليست جزءاً من

(١) الدر المنثور الجزء ١ الصفحة ٨ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) ذكر « الحاكم » هذه الرواية في « المستدرک » الجزء ١ ص ٢٣٣ واعتدّ بسندها ، وورد نفس هذا

المضمون بتفاوت ضئيل في « الدر المنثور » الجزء ١ الصفحة ٨ وتفسير « روح المعاني » الجزء ١ الصفحة ٣٩ .

سورة الحمد^(١) !

فهو يعترف بان بسم الله جزء من القرآن ، لكن لا نعلم لماذا يصر على انها آية مستقلة وليست جزءاً من سورة الحمد ؟

ومهما كان فلا يخفى ان بسم الله موجودة في جميع المصاحف طوال التاريخ الاسلامي في بداية جميع السور الا سورة البراءة ، ومن المسلم ان هذا بامر من النبي ﷺ ولا يمكن ان نقبل ان النبي ﷺ أمر ان يكتب في القرآن شيء ليس منه . وعلى هذا فلا حجة لنا اذا فصلنا « بسم الله » من السور لان هذا نوع من انواع التحريف للقرآن الكريم .

ولهذا يقول الامام الباقر عليه السلام في مثل هؤلاء :

« سرقوا أكرم آية في كتاب الله : بسم الله الرحمن الرحيم »^(٢) .

ويضيف الامام الصادق عليه السلام : « ما لهم قاتلهم الله عمدوا الى أعظم آية في

كتاب الله فزعموا انها بدعة اذا أظهروها وهي بسم الله الرحمن الرحيم »^(٣) !

ولهذا فقد وردنا من الائمة عليهم السلام الاصرار على الجهر ببسم الله خاصة وفي

جميع الصلوات الليلية والنهارية لاجل القضاء على هذه البدعة الموروثة .

وخلاصة الكلام ان أهمية بسم الله بين آيات القرآن اوضح من أن تحتاج الى

البحث ولذلك يجب ان تعطي أهمية كبيرة ، ومن المؤسف أن بعض الافراد

الفاقدين للذوق السليم وخشية من أن تقع كتاباتهم بايدي افراد غير متوضئين أو

تدوسه عليها الاقدام أو تقع في الازقة والاسواق يمتنعون عن كتابة بسم الله في

رسائلهم وكتاباتهم ، ويضعون محلها عدداً من النقاط غافلين عن أن سيئة ترك

(١) روح المعاني الجزء ١ الصفحة ٣٧ .

(٢) تفسير البرهان الجزء ١ الصفحة ٤٢ حديث ١٥ .

(٣) نفس المصدر حديث ٢٦ .

بسم الله أشدّ بكثيرٍ من هذه المساويء .

نحن مأمورون بان نكتبها ، وان نسعى من أجل المحافظة عليها واحترامها ،
واذا لم يراع الآخرون الحرمة اللازمة فلسنا مسؤولين عن اعمالهم ، ولا ينبغي لنا
ان نترك بسم الله لهذا العذر لان الضرر الذي يصيبنا سيكون أكبر .

لذلك ينقل لنا التاريخ ان اول سكة ضربت في الاسلام كانت في زمان
« عبد الملك بن مروان » وبأمرٍ من الامام الباقر عليه السلام وكتب على احد
وجهيها « لا اله الا الله » وعلى الوجه الآخر « محمد رسول الله ﷺ » ، ومن
الواضح ان هذه السكة تقع في يد عامة الناس حتى غير المسلمين الذين كانوا
يعيشون في محيط الاسلام ، فلم تكن مراعاة هذا الأمر مانعة من ضرب السكة
والشعارات الاسلامية الحية ولا ينبغي لها ان تكون^(١) .



٣ - لماذا لم تُذكر بسم الله في بداية سورة براءة ؟

الجواب على هذا السؤال ورد صريحاً في حديث روي عن امير

المؤمنين عليه السلام :

(لم تُنزل بسم الله الرحمن الرحيم على رأس « سورة براءة » لان بسم الله
للأمان والرحمة ، ونزلت براءة لرفع الأمان وبالسيف)^(٢) يعني رفع الأمان عن
الكفار الناكثين للعهود .

(١) تاريخ التمدن الاسلامي (جرجي زيدان) الجزء ١ الصفحة ١٤٣ .

(٢) مجمع البيان الجزء ٥ الصفحة ٢ وهذا الحديث ذكره للفخر الرازي عن ابن عباس عن علي عليه السلام مع
اختلاف يسير وقال عليه السلام هناك : لان بسم الله الرحمن الرحيم أمان وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ
العهود وليس فيها أمان (الجزء ١٥ الصفحة ٢١٦) .

ويعتقد جماعة بان هذه السورة تنتم لسورة الانفال لان سورة الانفال تتكلم عن العهود ولهذا لم يذكر بينهما « بسم الله » .
وهذا المعنى ذكر في رواية عن الامام الصادق عليه السلام : « الانفال والبراءة واحدة »^(١) .

واحتُمَل ايضاً ان الله سبحانه ومن اجل ان يبين حقيقة ان بسم الله جزء في جميع سور القرآن لم يذكر بسم الله في بداية هذه السورة .
والجمع بين هذه الاقوال الثلاثة ممكن .
وهناك آيات متعدّدة حول بسم الله في القرآن وخصوصاً في مورد ذبح الحيوانات ، والكلام عنها ينبغي ان يكون في محل اخر .

٤ - لا تقرنوا اسم الله باسم غيره ؟

حيث ان القادر المطلق والرحيم الحقيقي هو الذات المقدسة لله سبحانه .
وما عالم الوجود الا مائدة من موائد احسانه ، وكل مالدينا منه فيجب طلب المدد والعون منه والابتداء باسمه ، والايات المتعلقة « بسم الله » والروايات الواردة في هذا المجال كلها تؤكد على هذا المعنى .

ولهذا فان الذين يقرنون مع اسم الله اسم غيره كالطواغيت الذين يضعون اسماء السلاطين المتجبرين والمتكبرين الى جنب اسمه سبحانه ويفتحون بها ويشرعون بها . او الاشخاص الذين يبدأون اعمالهم باسم (الله) و « الشعب » ، كل هؤلاء في الحقيقة مصابون بنوع من الشرك . وحتى اسم النبي ﷺ لا ينبغي

(١) مجمع البيان الجزء ٥ الصفحة ١ .

أن يُقرن الى جنب اسم الله في هذا المجال فلا يقال بسم الله ونبيّه .

ففي حديث عن تفسير الامام الحسن العسكري (عليه السلام) : ان رسول الله ﷺ كان جالسا يوماً مع امير المؤمنين علي عليه السلام فسمعا شخصاً يقول « ماشاء الله وشاء محمد » واخر يقول « ماشاء الله وشاء علي » .

فقال رسول الله ﷺ :

« لا تقرنوا محمداً ولا علياً بالله عز وجل » .

ثم اضاف : « ولكن اذا اردتم فقولوا ماشاء الله ثم شاء محمد ، ماشاء الله ثم شاء علي » ، يعني اعلموا ان مشيئة الله قاهرة وغالبة على كل شيء فليس لها في الوجود من مساوٍ أو نظير او قرين . وما محمد في دين الله وامام قدرة الله الا كطير يحلّق في فضاء هذا الكون الواسع وكذلك علي (١) .



(١) اثبات الهداة الجزء ٧ الصفحة ٤٨٢ حديث ٧٩ (مع قليل من التلخيص) .

نظرية المعرفة

نظرية المعرفة

تمهيد :

إنَّ أول مسألة يواجهها الانسان في بحوثه العلمية هي مسألة المعرفة . واول اسئلة تنقدح في ذهن الانسان هي :

- ١ - هل هناك عالم موجود خارج وجودنا ام ان مانراه ليس الا كالرؤى والاحلام التي نراها في منامنا وان العالم الخارجي ماهو الا وهم وخيال ؟
- ٢ - اذا كان هناك عالم في الخارج فهل لنا طريق الى ادراكه ومعرفته ؟
- ٣ - اذا وجد عالم في الخارج وامكنا معرفته ، فما هي الطرق التي يجب ان نسلکها للوصول الى معرفته وما هي مصادر معرفته ؟
- أمن طريق الاستدلالات العقلية ؟

ام من طريق التجربة والعلوم التجريبية الطبيعية ؟

ام عن طريق الوحي ام من طرق اخرى ؟ وای هذه الطرق اكثر اعتماداً ؟

٤ - اصف الى ذلك ما هي الوسائل التي نستطيع بها معرفة العالم ؟

٥ - وبعد قبول المسائل المذكورة بطرح هذا السؤال وهو : ما هي الأمور

التي تؤدي الى تقوية وتوسيع مجالات وآفاق المعرفة عند الانسان ، وتجعل

روحه وقلبه اكثر استعداداً لتلقي المعارف ؟

وما هي الموانع والعقبات التي تقف حائلاً بين الانسان والمعارف الحقيقية

لعالم الوجود ، وتجره الى الحيرة والضلال ؟

*** هل هناك عالم خارج اذهاننا ؟**

حول هذه المسألة الأولى انقسم الفلاسفة الى قسمين :

١ - « الواقعيون » (رثاليسم) .

٢ - « المشككون او المثاليون او التصوريون » (ايدياليسم) .

والقسم الثاني في الواقع هم فرع من السوفسطائيين المنكرين للحقائق بل

ان البعض يعتقد ان السوفسطائيين هم أنفسهم المثاليون الذين يعترفون بوجود

انفسهم وذهانهم ويعتبرون ماسواه وهماءً وخيلاً ، والافكيف يمكن لعاقل ان ينكر

كل شيء حتى وجود نفسه الا ان يكون مصاباً بمرض نفسي .

وعلى اي حال فان افضل الطرق لادراك الوجود الخارجي هو ايكال الأمر

الى الوجدان ، الوجدان العام لكل الناس ولجميع العقلاء ، بل حتى وجدان

المثاليين انفسهم شاهد على هذا المدعى .

لان كل الناس عندما يشعرون بالعطش يذهبون نحو الماء ، فالعطش والماء

وتأثير الماء في رفع العطش امور يدرك وجودها حتى الاطفال والحيوانات ،

والسوفسطائيون ايضاً لا يختلفون في عملهم مع الآخرين . او عندما يريد الانسان

ان يعبر شارعاً مزدحماً يقف الى جانب الشارع قبل كل شيء وينظر يميناً

وشمالاً ، وينتظر حتى يخلو الشارع من السيّارات فيعبر الشارع مع الاحتياط ،

خشية ان تدهسه سيارة فيصاب بأذى او جراح .

هذا العمل يتساوى فيه الواقعيون والمثاليون فالكل يعترف بوجود الشارع والسيارات وخطر الدهس والاصطدام والأمور الأخرى ، وكلهم يعبرون الشارع مع الحيطة والتحفظ .

وهكذا عندما يمرض الانسان ويرى الآثار المختلفة للمرض في نفسه ، فيراجع الطبيب فيأمره الطبيب بان يجري له التحليل وبعد ذلك يكتب له الطبيب وصفة الدواء ، ويحدد له الغذاء المناسب واوقات تناول الدواء والغذاء ومقاديره ، فيرى المريض نفسه مكلفاً بان يمثل هذه الأوامر كي يستعيد سلامته .

وفي كل ذلك لا فرق بين الواقعيين والمثاليين ، فالكل يستجيبون للمرض بواسطة ادراكهم الوجداني ويعترفون بالعشرات من الحقائق العينية ، من آثار المرض الى وجود الطب والطبيب والمختبرات والدواء والغذاء .

وبهذا الدليل نقول « ان المثاليين في العمل واقعيون » !

وان المشككين عندما يردون ميدان الحياة يتناسون كلامهم ويرون انفسهم امام الواقع العيني فيتعاملون معه وفق ما يقتضيه .

وقد أيد القرآن الكريم في آياته الكريمة صحة هذا المعنى فكل آيات القرآن تخبر عن الحقائق والواقع العيني الخارجي ، من سماوات وأرض والملائكة والناس وعالم الطبيعة وما وراءه والدنيا والآخرة .

وان هذا الأمر في القرآن بدرجة من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج الى بحث اكثر ، لذلك ننهي هذه المسألة وننتقل الى مسألة امكان المعرفة ^(١) .

(١) نؤكد هنا مرة اخرى بان هدفنا في جميع مباحث هذا الكتاب ليس متابعة الاراء الفلسفية أو التاريخية او ... بل هدفنا في الاصل التفسير الموضوعي يعني متابعة البحث من نظر القرآن ومدى انعكاس الموضوع في الآيات المختلفة ... واذا وجدت ضرورة للبحوث الفلسفية وغيرها فسنفرد لها بحثاً منفصلاً بعنوان توضيحات في الخاتمة .

القرآن ووجوب المعرفة

٤٠ ملاحظة قرآنية حول أهمية العلم والمعرفة

القرآن ووجوب المعرفة

تمهيد :

لم يعتبر القرآن الكريم مسألة معرفة الانسان امراً ممكناً فحسب بل اعتبرها من اهم الواجبات .

فالقرآن يدعو الى معرفة اسرار عالم الوجود وحل رموز الكون والمخلوقات ، ويستخدم القرآن في دعوته لا تباعه - للتزود بالعلم - الاساليب الصريحة والظاهرة والكنائية .

والبحث في التعابير القرآنية في هذا المجال يفتح امام اعيننا افقاً جديداً ، ويرينا ان امر المعرفة من الواجبات المؤكدة وبمستوى عال جداً .

والطريف : أنَّ هذه الدعوة قد تمت في زمان ومكان كانت قد غطت الافق فيه سحب الجهل الظلماء ، حقاً إن عمق وسعة هذه التعابير يدل قبل كل شيء على عظمة القرآن وصدق المبعوث به .

ومن أجل هذا الأمر نذهب الى آيات القرآن ونبحث عن التعبيرات المختلفة في هذا المجال .

هذه الدعوة لها وجوه متنوعة بشكل كامل ، ونحن جمعنا (اربعين أنموذجاً) من الآيات المختلفة وكل واحد منها ينظر الى هذه المسألة المصيرية من زاوية خاصة .

وفي الضمن ذكرنا في الحواشي الروايات المعتبرة المتناسبة مع الآيات ، ليتضح التنسيق والانطباق الكامل بين الكتاب والسنة .



١ - وجوب تحصيل العلم :

وردت في (٢٧) آية من القرآن المجيد دعوة صريحة للتزود بالعلم ، وبلاستفادة من جملة « اعلموا » وكما في الامثلة التالية :

١ - ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(البقرة / ٢٠٩)

٢ - ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة / ٢٣١)

٣ - ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(البقرة / ٢٣٣)

٤ - ﴿ اِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾

(الحديد / ١٧)

٥ - ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ ﴾

(البقرة / ٢٠٣)

٦ - ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِين ﴾

(المائدة / ٩٢)

٧ - ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾

(الانفال / ٤١)

٨ - ﴿ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ ﴾

(الحديد / ٢٠)

الآيات الاولى والثانية والثالثة تنظر الى الذات الالهية المقدسة والى صفاته

الاعم من «صفات الذات» و«صفات الفعل» .

الآية الرابعة تتكلم عن خلق الحياة .

الآية الخامسة تتحدث عن القيامة والبعث .

الآية السادسة تتكلم عن النبوة ورسالة النبي ﷺ .

الآية السابعة تبحث عن الاحكام العملية الاسلامية .

والآية الثامنة ترينا الوجه الحقيقي للدنيا وتظهر لنا تفاهتها كاسلوب للدعوة

الى الزهد والتقوى والنجاة من حُبِّ الدنيا وما يترتب عليه من ذنوب .

وبهذا نعلم ان كل ما يرتبط بالعقائد والاعمال ومنهج الحياة قد ورد

مشفوعاً بكلمة (اعلموا) وهي تتضمن دعوة للتسلح بالوعي والمعرفة في كل

هذه المجالات^(١).

٢ - تكرار اللوم والتوبيخ على ترك التفكير :

تارة يقول سبحانه : ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الانعام / ٥٠) .

وتارة يقول بعد بيان الآيات الالهية المختلفة الاعم من التكوينية

والتشريعية : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة / ٢١٩)
و (الاعراف / ١٧٦) .

واحياناً يقول : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ (الروم / ٨) .

كل هذه الآيات تدل على وجوب التفكير، ووجوب التفكير بدل على امكان

المعرفة^(٢).

٣ - التأكيد على لزوم التعليم والتعلم :

جاء في سورة التوبة :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ

لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ

إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

(١) ورد ايضاً التأكيد الكثير في الروايات الاسلامية على طلب العلم ، والحديث المعروف (طلب

العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) المروي عن النبي ﷺ شاهد واضح على هذا المعنى

(١) بحار الانوار الجزء ٦ الصفحة ١١٧ ، والامام الصادق عليه السلام (طلب العلم فريضة على كل حال)

٤٠ الجزء ٢ الصفحة ١٧٢ .

(٢) جاء في حديث عن النبي ﷺ : (اغدُ عالماً او متعلماً او مستمعاً او محبباً ولا تكن الخامس)

المحبة الجزء ١ الصفحة ٢٢ .

هذه الآية الكريمة لا توجب تعلّم الدين الالهي فحسب بل توجب تعليمه ونشره بعد تعلمه ايضاً .

والتعبير بـ (نفر) التي تطلق على الخروج الى الجهاد في الآيات القرآنية الاخرى يدل على ان افراد الأمة الاسلامية في غير الحالات الضرورية لا يجوز لهم الخروج بأجمعهم الى ساحة القتال ، بل ينبغي على مجموعة منهم أن تبقى في المدينة لتتعلم الاحكام الالهية وتعلّمها للآخرين بعد رجوعهم .

والتفسير الاخر للآية هو : ان المسلمين يجب ان ينقسموا قسمين : قسم يبقى في المدينة ليحافظ عليها ، وقسم يذهب الى ميدان الجهاد ليُشاهد اثار العظمة الالهية والمعجزات والامداد الغيبي والنصر الالهي ، ثم وبعد رجوعهم يُخبروا وسائر الناس بذلك .

وهناك احتمال ثالث في تفسير الآية وهو ضرورة نفير بعض سكان ضواحي المدينة إليها ليتفقهوا في أحكام الدين وتبليغها للآخرين عند الرجوع ، ومكث البعض الآخر في تلك المناطق لحفظ نظام الحياة هناك^(١) .

ولكلّ تفسير ميزة لا توجد في التفسير الآخر^(٢) .

ولكن بغض النظر عن الإختلاف في التفاسير ، فان ما نسعى لاثباته - وهو وجوب التعلم والتعليم - ثابت بلا منازع ، وتأكيد القرآن على هذين الواجبين دليل

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ١٦ الصفحة ٢٢٥ ، والميزان الجزء ٩ الصفحة ٤٢٧ ، ومجمع البيان الجزء ٥ الصفحة ٨٣ .

(٢) في التفسير الأول مرجع الضمير في جملة (ليتفقهوا) و (لينذروا) اسم محذوف والتقدير هو « وتبقى طائفة » ، وهذا فيه حذف ، والحذف يعتبر خلاف الظاهر . بينما (نفر) جاء بمعنى الجهاد هنا ، هذه نقطة قوة التفسير الاول . في التفسير الثاني مرجع الضمير مذكور وهو (طائفة) ، لكن الثاني ضعيف في لأن ميدان الجهاد ليس محلاً للتعلم إلا بالتوجيه الذي ذكر . وفي التفسير الثالث يقدر المحذوف . لكنه يتفق مع الروايات التي تفسر النفير (بالهجرة للتفقه في الدين) . « ذكر في تفسير الثقلين (٩) روايات في هذا المجال » .

واضح على امكان وضرورة المعرفة^(١) .

٤ - العلم والمعرفة هما الهدف من خلق العالم :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ
بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

(الطلاق / ١٢)

لقد شرحنا المراد من السماوات السبع والارضين مافيه الكفاية في التفسير
« الامثل »^(٢) . وكيفما كان فان الآية تبين بوضوح حقيقة أن احد اهداف الخلق هو
العلم والمعرفة ، وتعريف الانسان بعلم الله وقدرته وصفاته وذاته . وهذه الآية
صريحة في بيان أكان المعرفة الى حد بعيد^(٣) .

٥ - الهدف من بعثة الانبياء هو التعليم والتربية :

إن القرآن الكريم ذكر هذه المسألة بشأن الرسول الكريم ﷺ عدة مرات ،

(١) يقول الامام الصادق عليه السلام : « لوددتُ أن اصحابي ضربت رؤوسهم باسياط حتى يتفقهوا » (الكافي
الجزء ١ الصفحة ٨) .

(٢) بالنسبة للسماوات السبع يرجع الى الجزء الاول ذيل الآية (٢٩) من سورة البقرة وبالنسبة للارضين
السبع الى الجزء (٢٤) ذيل الآية (١٢) من سورة الطلاق .

(٣) جاء في حديث أن الامام الحسين بن علي عليه السلام خاطب اصحابه قائلاً : « ايها الناس ان الله جل ذكره
ما خلق العباد إلا ليعرفوه ، فاذا عرفوه عبدوه ، فاذا عبدوه إستغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه » (بحار
الانوار الجزء ٥ الصفحة ٣١٢) .

من جملتها ما جاء في سورة البقرة :

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة / ١٥١)

وقد جاء هذا المعنى في كل من الآيات (١٢٩) من سورة البقرة و (١٦٤) من سورة آل عمران و (٢) من سورة الجمعة .

فاذا كانت المعرفة غير ممكنة ،: فكيف امكن ان تشكل المعرفة أحد الأهداف المهمة لبعثة الرسول الاكرم ﷺ^(١) .

٦- التفكير والتدبر هو الهدف من نزول القرآن :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ * لِيَذَّبَ رُؤَا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

(ص / ٢٩)

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾^(٢) مادتها (دُبُر) وتعني

ظهر الشيء ، ومن ثم استعملت بمعنى التفكير والتفكير بعواقب الامور . وذلك لان عواقب الامور ونتائجها تتضح بالتفكير .

إن الآية الاولى اوضحت أن التدبر هو هدف نزول القرآن كي لا يقتنع الناس بقراءة الآيات ككلمات مقدسة فحسب وينسوا الهدف الاخير منها .

(١) يقول امير المؤمنين عليه السلام : « كفى بالعلم شرفاً ان يدَّعيه من لا يحسنه ويفرح اذا نسب إليه وكفى بالجهل ذمّاً أن يبرأ منه من هو فيه » (بحار الانوار الجزء ١ الصفحة ١٨٥) .

(٢) سورة محمد : الآية ٢٤ .

والآية الثانية اعتبرت ترك التدبر دليلاً على انقفال القلوب وتعطيل الحس .
وعلى أيّ فان هاتين الآيتين دعوة عامة للتدبر ، دعوة تثبت بوضوح امكانية المعرفة^(١) .

٧ - المعرفة هي الهدف من المعراج :
﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

(الاسراء / ١)

ونفس معنى الآية هذه ورد في سورة النجم ، حيث تحدثت عن المعراج بأسلوب آخر ، والآية هي :

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ .

تبين هاتان الايتان - على الاقل - أحد الأهداف المهمة لمعراج النبي ﷺ وهي قضية رؤية آيات الحق الكبرى ، الرؤية التي تعتبر أهم مصادر المعرفة^(٢) .

٨ - الدعوة للإسلام بدأت بالدعوة للعلم :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(العلق / ١ - ٥)

(١) يقول الامام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم : « ما بعث الله أنبياءه الى عباده إلا ليعقلوا عن الله فأحسنهم إستجابة أحسنهم معرفة » . (أصول الكافي الجزء ١ الصفحة ١٦) .

(٢) للتفصيل راجع التفسير الامثل الجزء ١٢ الصفحة ١٦ .

إن هذه الآيات التي تعتبر أولى أنوار الوحي التي شَعَّت في قلب الرسول الطاهر ﷺ في جبل الثور في جنب غار « حراء » ، بدأت بقضية المعرفة وختمت بها .

إستهلت الآيات بتحبيذ الرسول ﷺ على القراءة التي هي إحدى وسائل المعرفة ، وختمت بالبحث عن المعلم الأعظم للكون أي الله الذي يُعتبر الإنسان تلميذه المُبتدئ .

أليست هذه كلها دلائل واضحة على امكانية المعرفة ؟ !

٩ - العلم نور وضياء :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتِ وَالنُّورُ ﴾

(الرعد / ١٦)

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴾

(فاطر / ١٩ - ٢١)

إنَّ هذه الآيات جعلت الظلمات في عداد العمى ، والنور في عداد البصر ، وهي إشارة إلى أن العلم نور وضياء ، والجهل يساوي العمى وهي من أجمل

التعابير للتشجيع على المعرفة^(١).

١٠ - إدراك أسرار الوجود خاصّ بالعلماء :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ السِّنِّكُمْ
وَالْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الروم - ٢٢)

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾

(العنكبوت / ٤٣)

في الآية الأولى عُدَّ ادراك اسرار كتاب التكوين خاصاً بالعلماء وفي الثانية
عُدَّ فهم كتاب التدوين خاصاً بهم كذلك .

وهذا تشجيع لطلب العلم والمعرفة من جهة ، ودليل على مسألة المعرفة
من جهة أخرى .

١١ - الله أول معلّم :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

(البقرة / ٣١)

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

(الرحمن / ١ - ٤)

(١) يقول الرسول ﷺ : « العلم نور يقذفه الله في قلب من يريد أن يهديه » . (الوافي الجزء ١
الصفحة ٧) .

﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾

(العلق / ٤)

﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق / ٥)

إن معلم الكون العظيم تارة يعلم آدم الأسماء ، وتارة أخرى يعلم نوع البشر ما يحتاجه ومالم يعلمه (بواسطة التكوين والتشريع) .
وتارة يوعز للإنسان بتناول القلم ليتعلم الكتابة ، وتارة أخرى يجري على لسانه حرفاً أو حرفين ويعلمه الكلام . وهذا يكشف عن أن إحدى صفاته عز وجل هي تعليم العباد ، التعليم الذي هو وسيلة للمعرفة .

١٢ - بالعلم يتميز الإنسان عن الموجودات الأخرى :

﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

(البقرة / ٣٣)

إن هذا الخطاب الذي ورد في الآية وجّه للملائكة بعد أن امرهم بأن يسجدوا ويخضعوا لخليفة الله (آدم) عندما خلقه ، لكي يوقروه بعد علمهم بمكانته وتفوقه عليهم . وقد فهم الملائكة اهلية آدم ﷺ لخلافة الله سبحانه وتعالى في الأرض بعد أن وجدوا فيه القابلية والاستعداد لتقبل العلم والمعرفة بأقصى درجتهما ، كما أعربوا عن شديد أسفهم وندمهم حيال ما ساورهم من

تردد أو استفسار عن أهليته للخلافة الالهية في بادىء الأمر^(١) .

١٣ - درجات القرب من الله تتناسب مع درجات المعرفة :

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾

(المجادلة / ١١)

بدأت الآية بالحديث عن الاصول الاخلاقية في آداب المجلس ، ثم عن درجات العلماء والمؤمنين بعنوان النتيجة والجزاء لعملهم بهذه الاصول الاخلاقية .

« الدرجات » جمع « درجة » وهي تستعمل للسلم عند لحاظه متصاعداً الى الاعلى . في قبال « الدركات » جمع « دركة » التي تستعمل لنفس السلم عند لحاظه متنازلاً الى الاسفل كسلم السرداب (الطابق الأسفل) .
إن استعمال « درجات » نكرة ايحاء الى عظمة تلك الدرجات ، واستعمالها جمعاً لا مفرداً يمكنه ان يكون اشارة الى اختلاف درجات العلماء .
بالطبع ان الرفع هنا لم يقصد به الرفع المكاني ، بل الرفع من جهة القرب الى الساحة الربانية .

استنتج العلامة الطباطبائي في تفسير (الميزان) ان المؤمنين قسمان .
قسم (المؤمنون العالمون) وقسم (المؤمنون غير العالمين) ، والمؤمنون العالمون افضل درجة من المؤمنين غير العالمين ثم استدل بالآية ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر / ٩) .

(١) يقول الرسول ﷺ : « اكثر الناس قيمة اكثرهم علماً وأقل الناس قيمة أقلهم علماً » .

ويحتمل ان الآية تشير الى علاقة الايمان بالعلم^(١). وسنشير الى هذه الآية تفصيلاً انشاء الله^(٢).

١٤ - الأنبياء ﷺ يُطالبون بعلم أكثر :

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

(طه / ١٤٤)

إن الآية هذه التي تجعل الرسول مخاطباً بها ، تقول : إن الرسول ﷺ رغم مقامه العلمي العظيم كان مأموراً بطلب العلم أكثر ، وهذا يكشف عن ان الانسان لا يتحدد دراسته بمرحلة من المراحل ، بل إن طريق العلم مستمر وليس له نقطة انتهاء .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ

رُشْدًا ﴾

(الكهف / ٦٦)

فموسى ﷺ بالرغم من انه من اولي العزم وبالرغم من انشراح صدره بمقتضى الآية : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ (طه / ٢٥) وبمقتضى الآية ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (القصص / ١٤) ، وبالرغم من هذا المقام العلمي الرفيع ، كان مطالباً بأن يخضع أمام « الخضر » ويتعلم منه كالتلميذ . وعلى أي حال ، فان هذه الآيات أدلة واضحة على امكانية وضرورة

(١) الميزان الجزء ١٩ الصفحة ٢١٦ .

(٢) جاء في حديث الامام الصادق ﷺ : «إن الثواب بقدر العقل» . (بحار الانوار الجزء ١ الصفحة ٨٤).

المعرفة ، والسعي المستمر في طريق التعلم والمعرفة^(١) .

١٥ - المعرفة مفتاح نجاة الإنسان :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾

(سبأ / ٤٦)

إن خطاب الرسول ﷺ في هذه الآية موجه لأعدائه المنغمسين في الكفر والشرك ، ومختلف انواع الفساد الاخلاقي .

وقد بيّن لهم ان مفتاح نجاتهم من هذا المستنقع الخطر هو التفكير والتفكير الذي هو طريق وسبيل للمعرفة .

ولهذا السبب بالضبط ينبغي البحث عن جذور أي ثورة وأي تحول أساسي في المجتمعات البشرية في ثوراتهم الفكرية والثقافية .

فلو كانت المعرفة غير ممكنة فلماذا التفكير ؟ بالخصوص بعد حصر الموعظة بالتفكير وذلك باستعمال « إنما » ، وهنا يثبت أن مفتاح النجاة هو المعرفة فقط !

لكن هذا التفكير - جماعياً كان او فردياً - ينبغي أن يكون متزامناً مع القيام لله وفي سبيله ، ولهذا يقول ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ اي بعيداً عن التعصب والعناد ، والهوى النفساني الذي سيأتي شرحه في موانع المعرفة انشاء الله .

وقد أكد النبي يوسف عليه السلام على هذا الموضوع ، وقال عند جلوسه على

(١) يقول امير المؤمنين عليه السلام : « العلم ميراث الانبياء والمال ميراث الفراعنة » . (بحار الانوار الجزء ١

عرش السلطة في مصر :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا
وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

(يوسف / ١٠١)

اللطيف هنا هو أن علم تعبیر المنام من العلوم قليلة الأهمية ، وبالرغم من ذلك فإن قصة يوسف عليه السلام في القرآن تكشف بوضوح عن أن علمه أدّى إلى إنقاذه من سجن عزيز مصر ، كما أدّى إلى إنقاذ مصر من القحط الخطر ، لأن العزيز رأى مناماً عجيباً عجز المفسرون عن تاويله ، إلا أن أحد السجناء الذين قد أطلق سراحهم وسبق ليوسف أن فسّر رؤياه في السجن كان حاضراً في البلاط آنذاك فقال : إني أعرف من يفسّر الرؤيا جيداً ، وعندما فسّر يوسف عليه السلام له مارأه في منامه الذي يتعلق بالامور الاقتصادية لسبع سنوات مقبلة ، أطلق سراحه وتهيأت مقدمات حكومته من جهة ، ومن جهة أخرى استطاع أن يضع برنامجاً دقيقاً بدقة لانقاذ أهل مصر من القحط خلال سنوات القحط المقبلة .

إن الآية السابقة التي تحدثت عن علم تأويل الاحاديث (في المنام) بعد حديثها عن ملك يوسف (حكومته) ، يمكن انها تشير الى العلاقة بين هذين الاثنين .

وكيفما كان فان هذه الآية توحى بان مفتاح النجاة هو العلم والمعرفة . وحتى ابسط العلوم يمكن ان يكون سبباً لانقاذ دولة ^(١) .

(١) يقول الامام علي عليه السلام مخاطباً كميل : « يا كميل ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها الى معرفة » (تحف العقول ، الصفحة ١٩) .

١٦ - العلم فخر بجميع أشكاله :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾

(النمل / ١٥ و ١٦)

بالرغم من ملك وعظمة « سليمان » و « داود » اللذين لم يكن لهما مثيل ، بل ويحتمل عدم قيام حكومة كحكومتها على مر التاريخ كما في الآية (٣٥) من سورة (ص) ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ خصوصاً وأن حكومتها لم تخص الانس ، بل شملت الجن والحيوانات وحتى القوى الطبيعية كالريح وغيره ، مع هذا كله فالله عندما يَهَبُ نعمه الى الوالد وولده يبدأ بنعمة العلم والمعرفة ، لذا كانا يشكرانه لما فضّلهما على كثير من عباده (يحتمل ان يكون الشكر بهذا الاسلوب « على كثير من عباده » لا غير لانه كان هناك من أتوا علماً أوفر مما أوتي سليمان وداود) ، والجدير بالذكر هو أن (سليمان) بالرغم من ملكه العظيم « وكل من شك في ذلك ضحكت على عقله الطيور والاسماك » ، رغم هذا ، فانه كان يفتخر بعلوم قليلة الاهمية مثل معرفته بلغة الطيور قبل افتخاره بملكه وحكومته ومواهبه الالهية الاخرى .

إنّ هذه التعابير الجميلة تُبَيِّنُ عظمة مقام العلم بجميع أبعاده ، وهو بنفسه دليل واضح على امكانية وضرورة المعرفة ^(١)

(١) جاء في حديث للامام الصادق عليه السلام : « العلم أصل كل حال سني ومنتهى كل منزلة رفيعة » المحجة البيضاء الجزء ١ الصفحة ٦٨ .

١٧ - المعرفة شرط أساسي للإدارة والقيادة .

عندما اقترح على يوسف التصدي لمقام مهم في حكومة مصر ، قال :

﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

(يوسف / ٥٥)

عندما أعلن بنو إسرائيل عن استعدادهم لمقارعة الملك الظالم آنذاك « جالوت » الذي شردهم ، طالبوا نبيهم بأن يعين قائداً لهم كي يجاهدوا « جالوت » الظالم ، تحت رايته فقال لهم النبي :

﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة / ٢٤٧)

والجدير بالذكر إن « طالوت » الذي نصب للنهوض بمهمة قيادة بني إسرائيل لمقارعة الملك المقتدر والظالم ، كان قروياً مجهولاً يعيش في إحدى القرى الساحلية وكان يرعى مواشي أبيه ويزرع !

لكنه كان ذا قلبٍ واعٍ ، وجسمٍ مقتدرٍ ، ومعرفةٍ دقيقةٍ بالأمور وعميقة جداً ، ولهذا عندما رآه النبي « اشموئيل » عينه قائداً على بني إسرائيل ولم يعبأُ باعتراضاتهم على تعيينه ، تلك الاعتراضات الناشئة عن معايير وهمية في انتخاب القائد كامتلاك الثروة والاموال الطائلة والسمعة والتقاليد الموروثة من الآباء ، حيث كانوا يعترضون بانه مع ما عندنا من اشخاص ذوي سمعة وثروة ، لم يكن طالوت بأجدر منهم لهذا المقام ، فكان يجيبهم النبي : إن هذا انتخاب الهي ،

والكل يجب أن يسلم إليه .

انّ هاتين الآيتين تدلان بوضوح على أن المعرفة هي من عناصر القيادة والادارة ، وتؤكدان ما قلناه عن المعرفة حتى الآن^(١) .

١٨ - العلم منبع الايمان :

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

(سبأ / ٦)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾

(الاسراء / ١٠٧ - ١٠٨)

﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾

(طه / ٧٠)

﴿ وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾

(الحج / ٥٤)

﴿ وَالرَّاسُخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

(آل عمران / ٧)

إنّ الآية الاخيرة تلقي الأضواء على العلاقة الوثيقة بين العلم والايمان ،

(١) يقول الامام الصادق عليه السلام : « الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك » .

وتصرّح بأن الأوعى والأعلم هو الأرسخ في الايمان والتسليم^(١).
 إنّ هذه الآيات تشهد بوضوح أن المعرفة هي إحدى السبل المؤدية الى
 الايمان ، والايمان الذي ينبع منها سيكون راسخاً جداً ومتجذراً الى مستوى
 بحيث نقرأ في قصة السحرة في عصر فرعون ، أن ايمانهم بموسى عليه السلام كان بسبب
 معرفتهم بأنّ ما جاء به موسى عليه السلام لم يكن سحراً ، فما كان من فرعون إلّا أن
 هدّدهم بشدّة قائلاً لهم : أتؤمنون به قبل أن آذن لكم ؟ ! (الطغاة يريدون التحكم
 حتى بعقول الناس وايمانهم القلبي وفهمهم ولا يتصرف أحد بأي شيء إلا باذن
 منهم) ومن ضمن ما جاء من تهديد فرعون لهم أنه قال : سأقطع ايديكم وارجلكم
 من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل .

لكنهم كانوا بدرجة من الصمود بحيث كانوا يقولون له :

﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِينَ فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا
 أَنْتَ قَاضٍ ﴾

(طه / ٧٢)

وفعلًا فقد نفّذ فرعون وعيده الذي قطعه على نفسه بالانتقام من السحرة
 المؤمنين ، واستشهدوا من أجل المعتقد الذي ذابوا فيه عشقاً ونالوا مبتغاهم
 الاسمى وهو الشهادة .

يقول المفسر الكبير المرحوم الطبرسي انهم : « كانوا في أول النهار كفاراً
 سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة » .

إنّ ثمرات العلم لم تنحصر بالايمان فحسب بل تشمل الإستقامة

(١) ما ذكرناه حقيقة لاتنكر سواء قلنا بأن كلمة « الراسخون » معطوفة على « الله » ، أو قلنا بأنها مبتدأ
 وخبرها الجملة اللاحقة ، لأنه على كلا الفرضين ، الضمير في « يقولون » يرجع الى « الراسخون في
 العلم » وبه تتضح العلاقة بين الايمان والعلم في الآية .

والصمود ايضاً^(١) و^(٢).



١٩ - العلم منشأ تقوى الله وخشيته :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

(فاطر / ٢٨)

يقول الراغب في مفرداته « الخشية هي الخوف الذي يكون متزامناً مع التعظيم ، وغالباً ما ينشأ عن العلم » .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(آل عمران / ١٩٧)

إذا لم تكن هناك علاقة بين « العلم » و « التقوى » ، لم يخاطب الله « اولو الالباب » داعيهم للتقوى في الآية ، وهذا الخطاب دليل على هذه العلاقة المباركة .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(المائدة / ١٠٠)

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

(البقرة / ١٨٧)

(١) يعتقد البعض أن « العلم » و « الايمان » شيء واحد . فاذا كنا نعلم بان هناك خالقاً لهذا العالم وهو قادر وعالم ، فنفس هذا العلم ايمان به ، لكن المحققين يقولون بفصل الايمان عن العلم ، لأن الايمان يمكن أي يكون ثمرة من ثمار العلم (وليس الثمرة الضرورية والدائمة) لكنه ليس عين العلم . والايمان التسليم القلبي والقبول والاعتراف الرسمي . بينما كثيراً ما يحصل أن يعتقد الانسان بشيء ولم يسلم به ، كما يحكي القرآن عن البعض في سورة النمل الآية (١٤) ﴿ وَجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلوا ﴾ .

(٢) يقول الرسول ﷺ : « العلم حياة الاسلام وعماد الايمان » . (كنز العمال الجزء ١٠ الصفحة ١٨١) .

إنَّ هذا التعبير في الآية الأخيرة يدل بوضوح على أن الله يبين الآيات كمقدمة لأثارة عقول وقلوب الناس ، والإثارة سبيل إلى التقوى .
 بالطبع ليس كلما وجد العلم حصلت التقوى ، لأن هناك علماء غير عاملين . لكن المتيقن منهم انهم يعتبرون العلم مقدمة وأرضية خصبة للتقوى ، ويعتبر من المصادر الأساسية للتقوى . والتقوى غالباً ما تنبع عن العلم ، العلم الذي كان منشأً للايمان سيكون منشأً للتقوى كذلك .
 والعكس بالعكس ، فالجهل غالباً ما يؤدي إلى عدم التقوى والورع^(١) .

٢٠ - العلم منشأ الزهد :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾

(القصص / ٨٠)

لمّحت هذه الآية التي جاءت في أواخر سورة القصص إلى قصة (قارون) ونقلت نصيحة علماء بني اسرائيل للناس ، الذين تمنوا امتلاك ثروة قارون عند استعراضه لثروته .

فعندما شاهد العلماء الورعون تعلّق الناس بالدنيا وحبهم الشديد لها وارتباطهم الوثيق بها خاطبهم قائلين : ويلكم يا عبدة الدنيا ! لا تخذعكم الثروة ، فالجزاء الالهي خير لكم في الدنيا والآخرة إن كنتم مؤمنين وأعمالكم صالحة ، لكن لا ينال هذا الثواب الالهي إلا الصابرون غير الراكعين امام الظلم والاغراءات المادية .

(١) يقول امير المؤمنين عليه السلام : « أعظم الناس علماً أشدهم خوفاً من الله » . (غرر الحكم والحكمة ٣٢٦) .

إن عبارة (أوتوا العلم) تدل بوضوح على وجود علاقة بين (الورع والزهد) من جهة و (العلم والمعرفة) من جهة أخرى، وأن العارفين بوهن الدنيا وخسة الثروة المادية وخلود الآخرة، لم يُخدعوا ولم يتمنوا ثروة قارون^(١).

٢١ - التطور المادي وليد العلم :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾

(القصص ٧٨)

هذا الحديث قاله قارون الغني والمغرور والأناثي عندما نصحه علماء قوم موسى، أن يستثمر ثروتك في مجال مصالح الناس ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن لعباد الله كما أحسن الله لك ولا تتخذ ثروتك وسيلة للفساد.

لكنه أجاب قائلاً: إني جمعت هذه الثروة بفضل علمي ومعرفتي.

والذي ينبغي ذكره هنا هو أن الله لم ينف ادعاءه هذا.

بل يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ

مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ (القصص / ٧٨).

إن هذا التأييد الضمني يكشف أن لقارون علماً تمكن بواسطته أن يجمع

ثروة عظيمة (سواء كان ذلك العلم هو علم الكيمياء - كما يدعي بعض المفسرين - او كان معرفته لقواعد وفنون التجارة والأعمال).

إنَّ المسلّم به هو أن ادعاء قارون لم يصلح حجة لمنع انتفاع الناس بثروته.

وذلك لأن الانسان مهما كانت لديه من مؤهلات وقابليات، لا يمكنه لوحد ان

(١) يقول الامام الصادق عليه السلام: « إِنَّ مِمَّا خَاطَبَ اللَّهُ بِهِ مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ قَالَ : إِنَّ عِبَادِي الصَّالِحِينَ

زهدوا فيها بقدر علمهم بي ». (بحار الانوار الجزء ١٨ الصفحة ٣٣٩).

يكسب ثروة بهذا الحجم فلا بد انه قد استفاد من الاخرين في سبيل تحصيلها ، لذا فهو مَدِينٌ للمجتمع ولتعاونهم معه .

وعلى أي حال ، فان ما تبينه هذه الآية هو وجود علاقة بين « العلم المادي » و « التطور المادي » . وهذا مانشاهده بوضوح في عصرنا الحاضر ، حيث ان اقواماً تزعموا التطور في مجال التمدن وذلك بفضل علومهم وتقنياتهم وصناعاتهم^(١) .



٢٢ - العلم منبع القدرة أو (العلم قدرة) :

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾

(النمل / ٤٠)

تتعلق هذه الآية بقصة سليمان وملكة سبأ ، فعندما اراد سليمان أن يأتي بعرشها ، اقترح عفريت من زعماء الجن بأن يأتي به قبل نهوضه من مجلسه . لكن الرجل الذي كان عنده علم من الكتاب (وزير سليمان آصف بن برخيا) ، والذي كان علمه يمكنه من القيام باعمال غير طبيعية قال لسليمان : إني أستطيع أن آتي به قبل أن يرتد إليك طرفك وفعل ما قال ، فشكر سليمان ربه على الفضل الذي آتاه إياه من الأنصار والاعوان والاصدقاء .

وهذه الآية وإن جاءت في مورد خاص ، لكنها تكشف عن العلاقة

(١) يقول الامام علي عليه السلام : « لا غنى أخصب من العقل ولا فقر أخط من الحمق » . (اصول الكافي الجزء ١ الصفحة ٢٩) .

الموجودة بين العلم والقدرة بوضوح ، وترغب وتحرض على كسب العلم^(١) .

٢٣ - التزكية تنشأ عن العلم :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(البقرة / ١٢٩)

إنَّ هذا التعبير الذي هو بمثابة دعاءٍ دعا به « ابراهيم » و « اسماعيل » في
ضمن أدعية دعيا بها الله ، يكشف بوضوح عن العلاقة القائمة بين « العلم
والحكمة » من جهة ، و « التزكية والتربية » من جهة اخرى وقد تقدم العلم هنا على
التزكية .

لكن في الآيتين التاليتين واللتين تناولتا منهج الرسول ﷺ بعد البعثة ،
تقدمت التزكية على العلم فيهما ، حيث يقول الله تعالى هناك :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا
عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ
قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

(آل عمران / ١٦٤)

كما أن الآية الثانية من سورة الجمعة تشبه الآية المتقدمة مضموناً .
الظاهر أن الاختلاف في التعبير حين يقدم العلم على التزكية تارة والتزكية
على العلم تارة اخرى ناشىء من التأثير المتبادل بين هذين الاثنين ، فان العلم

(١) يقول الامام الصادق عليه السلام : « العالم بزمانه لا نهجم عليه اللوابس » . (اصول الكافي الجزء ١

منشأ التربية الاخلاقية ، والتربية الاخلاقية تصلح لأن تكون في - بعض مراحلها - منشأ للعلم .

وعلى هذا ، فكل منهما يهيئ الأرضية للآخر ، وهذا هو معنى التأثير المتبادل للعلم والتزكية (وسيأتي شرح هذا الموضوع في بحث مؤهلات المعرفة انشاء الله)^(١) .

٢٤ - الصبر والتحمل ينبع عن العلم :
﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾

(الكهف / ٦٨)

هذا الحديث نطق به العالم الرباني (الخضر) مخاطباً به موسى بن عمران ، عندما سألته أن يعلمه من علومه ، فاجابه الخضر : إنك لم تحط بأسراري وألغاز أعمالي . ولن تصبر عليها لعدم معرفتك .
وهذا التعبير يبين بوضوح ان عدم العلم والمعرفة يؤدي بالانسان الى نفاذ صبره .

بالطبع إن الصبر قد يكون منشأ تزايد العلم والمعرفة ، وعليه فهذان الإثنان بينهما تأثير متبادل كما يصرح بذلك القرآن في عدد من الآيات :
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

(ابراهيم / ٥) ، (لقمان / ٣١) ، (سبأ / ١٩) ، (الشورى / ٣٣)

ومن الواضح أن طريق العلم والمعرفة طريق ملتو وملهي بالمنغصات ، ولا

(١) يقول امير المؤمنين في حديث له حول العلم : « ومن ثمراته التقوى ، واجتناب الهوى ومجانبة الذنوب » . (بحار الانوار الجزء ٧٨ الصفحة ٦) .

يمكن أن يدرك العلم إلا بالصبر والتأني . وإن العلماء والمخترعين والمكتشفين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بالتأني والصبر .

٢٥ - العلم والمعرفة خير كثير :

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(البقرة / ٢٦٩)

وكلمة « الحكمة » مشتقة من مادة « حَكَمَ » على وزن (خَتَم) وتعني الصدق والمنع بهدف الاصلاح ولهذا يقال لزمام الحيوان « حَكَمَة » على وزن (شَجَرَة) ، وبما أن العلم والمعرفة يحول دون اتخاذ الانسان سلوكاً مشيناً قيل لها « حكمة » . كما أن « العقل » يعني الامساك والحفظ ، ولهذا قيل للحبل الذي تُربط به رجلا الجمل « عقال » . قال العقل قيل له عقلاً لانه يردع الانسان عن الانحراف عن جادة الصواب .

وعلى أي حال ، فانه لا تعبير وصف به العلم أجمل مما عبر به القرآن الكريم حيث قال (خيراً كثيراً) ، وهذا التعبير يشمل جميع النعم والمواهب الإلهية المادية منها والمعنوية .

إنَّ المستخلص من خمسة وعشرين عنواناً ذكر حتى الآن حقيقة بيّنه واضحة وهي : إن القرآن وبالاستعانة بعبارات شيقة ولطائف البيان يحث الانسان على العلم والمعرفة ويعدهما أفضل موهبة ونعمة إلهية ، ويستفاد من التعبيرات السابقة بالدلالة الالتزامية أن طريق العلم مفتوح للجميع ، ولا شيء انفع منه .

وهذا هو الشيء الذي نحن بصدده^(١).

والآن ننتقل إلى عناوين أخرى تدور حول محور « الجهل » وبملاحظة آثاره السلبية والمهلكة ، نشق طريقنا نحو العلم والمعرفة ومردوداته الايجابية والحيوية .

٢٦ - اصحاب السعير هم الجاهلون :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ
بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ
كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

(الاعراف / ١٧٩)

إن كلمة « ذرأ » مأخوذة من مادة ذرء على وزن (زرع) وتعني الخلق .

لكن المستخلص من « مقاييس اللغة » أن أصلها يعني « نثر البذور » .

ويحتمل لهذا السبب ذكر الراغب في « مفرداته » أن معناها الأصلي هو

« الاظهار والايضاح » . بينما قال البعض كما في « التحقيق في كلمات القرآن » : إنَّ معناها الأصلي هو « النثر والنشر » .

فاذا أريد منها الخلق فيكون معنى الآية : إنَّ أولئك الذين وهبوا السمع

والبصر والفؤاد ... (وسائل المعرفة) ولم يستفيدوا منها لا مصير لهم غير جهنم .

وإذا كانت « ذرأ » بمعنى النشر والنثر ، فالآية تُشير إلى أن اشخاصاً كهؤلاء سينثرون في جهنم .

وعلى أي حال فهذه الحقيقة تكشف عن ان عاقبة الجهل وتعطيل وسائل

(١) يقول الامام علي عليه السلام : « لا كنز أنفع من العلم » . (بحار الانوار الجزء ١ الصفحة ١٨٣) .

المعرفة ليست سوى نار جهنم .

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ *

فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

(الملك / ١٠ و ١١)

نعم إنَّ ذنبهم العظيم هو تعطيلهم لعقلهم عن النهوض بمهامه ، ولم يصغوا لحديث الحق وبهذا أغلقوا أبواب المعرفة والعلم ، وفتحوا أبواب جهنم على أنفسهم .

إن سياق الآية الثانية التي تنسب الإثم إلى أصحاب السعير وهم يعترفون بأن مصيرهم ما كان هذا لو أنهم استغلوا عقولهم ، وهذا الاعتراف الكاشف عن الندم ، دليل على أن سلوكهم لهذا الطريق كان باختيارهم . وإذا زعم بعض المفسرين كالفخر الرازي عند تفسيره للآية الاولى أنها دليل على الجبر ، فإن الثانية تنفي مزاعمه وتصلح لأن تكون مفسرةً للاولى لأن « القرآن يفسر بعضه بعضاً » . وعلى اي حال فإن العلاقة بين « جهنم » و « الجهل » مسلمة في القرآن وتتضح في الابحاث القادمة اكثر^(١) .

٢٧ - الجهل مصدر انحطاط البشر :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(الانفال / ٢٢)

إنَّ هذه الآية والتي قبلها تُشيران الى موضوع واحد لكن الأخيرة تشير له

(١) في حديث للرسول ﷺ يقول فيه : « إن الله أوحى إليَّ أَنَّهُ مَنْ سَلَكَ مَسْلكاً يَطْلُبُ فِيهِ الْعِلْمَ سَهَّلَ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ » . (بحار الانوار الجزء ١ الصفحة ١٧٣) .

صراحة والسابقة لها تلميحاً ، والموضوع هو : إن الانسان متى ماترك الاستعانة بوسائل المعرفة التي منحها الله له فانه سينحط ويسقط الى مستوى يجعله أضل من جميع الدواب التي على وجه الارض . ولم لا يكون كذلك مَنْ بإمكانه ان يصل الى أعلى عليين في جوار رب العالمين ، وأن يصل الى مقام « لا يرى به إلا الله » ، ولكن بتركه جميع المواهب والمِنَح الالهية فإنه سيسقط الى أسفل سافلين .

إضافةً الى هذا ، فان الانسان الذي لا يسير في جادة الخير والهداية ، فانه سيستخدم تلقائياً جميع المواهب والقابليات الالهية في سبيل الشر ، وسيرتكب جرائم مفعجة ويخترع وسائل رهيبة لم يدنُ الى مستوى وحشيته أي من الحيوانات المفترسة . كما نشاهد نماذجه في عصرنا الحاضر عند أناس بعيدين عن الله والبشرية^(١) .



٢٨ - الجهل عمى :

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

(الرعد / ١٩)

لقد جعل العلماء الواعون في هذه الآية في الطرف المقابل للعميان !
والتقابل هذا يكشف عن ان العمى والجهل سواء . وقد جاء هذا المعنى في آيات اخرى باسلوب آخر :

﴿ مَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ ﴾

(١) يقول امير المؤمنين عليه السلام : « الجهل مطية شمس مَنْ ركبها زلَّ ومن صحبها ضلَّ » . (غرر الحكم الجزء ١ الصفحة ٨٥) .

وَلَا الْخُرُورُ وَمَا يُسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿١﴾

(فاطر ١٩ / - ٢٢)

٢٩ - الحياة مع الجهل هي أرذل العمر :

﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾

(الحج / ٥) .

وقد جاء في سورة النمل الآية (٧٠) نفس ما جاء في هذه الآية من معنى مع اختلاف ضئيل .

إنَّ كلمة « أرذل » مشتقة من مادة « رذل » وتعني الموجود الضال ، كما في كثير من معاجم اللغة مثل « المقاييس » و « صحاح اللغة » و « المفردات » وغيرها .
وبتعبير آخر الشيء الذي لا يُعتنى به اولا قيمة له .

وعليه فالمراد من « أرذل العمر » أيام وساعات من العمر التي تقلَّ قيمة عن بقية أيام العمر . وقد نعت القرآن الأيام الأخيرة من الشيخوخة التي تتزامن مع نسيان العلوم وفقدانها ، نعتها بـ « أرذل العمر » . وعليه فأفضل أيام العمر وساعاته هي الايام والساعات التي تتزامن مع العلم والمعرفة ^(٢) .

٣٠ - الكفر ينشأ عن الجهل :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ

(١) يقول الرسول ﷺ : « من لم يصبر على ذلّ التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً » (بحار الانوار الجزء ١ الصفحة ١٧٧) .

(٢) يقول الإمام علي : « الجهل في الانسان أضرّ من الاكلة في الابدان » (غرر الحكم) .

إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿

(الأعراف / ١٣٨)

إنَّ ما يشير الإعجاب هو أن شعباً شاهد الإعجاز في غرقِ الفراعنة ، وانقاده من أمواج النيل ، والعظمة الإلهية بأُم عينيه وبالرغم من ذلك كله يقترح على موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه .

لكن موسى أجابهم إنَّ جهلكم دعاكم الى عبادة الأصنام .

وفي الحقيقة إن عبادة الأصنام دائماً تنشأ عن جهل ، وإلا فكيف يمكن للانسان أن يعبد ما يصنع بنفسه ؟ وكيف له أن يطلب حل العضلات والمشاكل الكبرى من قطعة من خشب او معدن ؟ !

إنَّ تاريخ عبادة الاصنام يكشف ان هذا العمل القبيح ثَمَا تحت ظلٍّ من الخرافات والأوهام ، وكلما تقدمت الشعوب في مجال العلوم والتقنية كلما تراجع الشرك وعبادة الأصنام وازدادت أنوار التوحيد ضياءً .

إنَّ النبي العظيم « هود » كان يصرح لقوم « عاد » بهذا الأمر إلا أنه عندما شاهد فيهم الإصرار على عبادة الاصنام وطلبهم نزول العذاب عليهم قال :

﴿ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا

تَجْهَلُونَ ﴿

(الاحقاف / ٢٣)

إنَّ التعبير بـ « تجهلون » اي بصيغة المضارع الذي عادة ما يدل على الاستمرار ، يوضح أن « الجهل المستمر » كان منبع الشرك وعبادة الأصنام ، وفي الحقيقة إنَّ تعاضد ثلاثة أنواع من الجهل ولدت هذه الحالة الإجتماعية ، وهي : الجهل بالله وبأنه لا كفو ولا مثيل له . والجهل بمقام الانسان وأنه أشرف المخلوقات . والجهل بالطبيعة وأنه لا قيمة للجُمادات في قبال موجود كالانسان .

يا ترى ! كيف سمح الانسان لنفسه أن يجعل قسماً من قطعة الحجر المقتطعة من الجبل في درجات السلم في منزلة يسحقها باقدامه ، ويجعل القسم الآخر صنماً يركع ويسجد له ويطلب منها حل مشكلاته الكبرى ؟. أليس هذا جهلاً^(١) ؟

٣١ - الجهل السبب الاساسي للخسران :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

(الانفال / ٦٥)

الظاهر أن الآية ناظرة الى معركة « بدر » وعدم تساوي عدد المشركين والمؤمنين فيها . وهي تنفي اسطورة توازن القوى . وكإيعاز إسلامي إلهي تأمر الآية بعدم التراجع في المعركة حتى لو كان عدد جنود الاسلام عَشَرَ جنود العدو ! لكن الذي يسدُّ النقص الكمي في القوات الاسلامية - كما تصرح الآية - هو شيثان : الاول هو الصبر والاستقامة والثبات عند المؤمنين . والثاني هو جهل وحمافة الاعداء .

وهذا يدل بوضوح على أن الاستقامة والصبر منبع النصر ، وأن الجهل هو سبب الخسران .

(١) يقول امير المؤمنين عليه السلام : « الجاهل لا يرتدع ، وبالمواعظ لا ينتفع » . (غرر الحكم الجزء ١ الصفحة ٦٨) . ويقول الامام الصادق عليه السلام : « ليس بين الايمان والكفر إلا قلة العقل » . (اصول الكافي

الجهل بالقابليات والطاقات المودعة في ذات الانسان .
الجهل بقدرة الله عز وجل وعظمته .
الجهل بتقنيات وقواعد المعركة ، وانواع اخرى من الجهالة^(١) .

٣٢ - الجهل منبع لاشاعة الفساد :

﴿ أَتَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ﴾

(النمل / ٥٥)

إنهم قوم يجهلون الله وهدف الخلق وقوانينه ، ويجهلون الآثار السيئة لهذا
الاثم والعار (الشذوذ الجنسي) .

إن هذا الحديث الذي نطق به النبي العظيم « لوط » بشير بوضوح الى أن ميل اولئك
القوم الى هذا العمل البشع والقبيح (اللواط) نشأ عن الجهل وعدم المعرفة .

والنبي يوسف عليه السلام يُشير الى هذا المعنى بأسلوب آخر :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَالْأَ تَصْرِفُ عَنِّي
كَيْدَهُنَّ أَضْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

(يوسف / ٣٣)

إن ذكر النساء بصيغة الجمع لا المفرد يدل على ان نساء مصر كنَّ يُردن أن
يُخرجن يوسف عن جادة العفاف ، وليس امرأة عزيز مصر (زليخا) فقط . ويوسف عليه السلام كان
مستعداً لتقبل السجن برحابة صدر على الابتلاء بحب نساء مصر له .

(١) يقول الرسول ﷺ : « من عمل على غير علم كان ما يُفسد أكثر مما يصلح » . (مشكاة الانوار

إنَّ الجملة الاخيرة من الآية السابقة تُشير الى أنَّ العشق الملوّث بالإثم والانحرافات الجنسية (على الأقل في كثير من الموارد) ناشئة عن الجهل ، الجهل بالقيم المجبول عليها الانسان ، الجهل بالآثار القيمة للعفاف والطهارة والنزاهة ، والجهل بمردودات الاثم ، وأخيراً الجهل بالأوامر والنواهي الالهية . وكما نرى في قصة يوسف بوضوح أن السبب الأساسي في ارتكاب الجريمة من قِبَلِ إخوانه هو الجهل وعدم معرفتهم :

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾

(يوسف / ٨٩)

نعم أنتم الذين عذبتهم أخاكم أولاً ، ثم ألقيتموه في الجب عن جهل ثانياً ! أنتم الذين كذبتهم على أبيكم ذلك الشيخ العجوز وأدْمَيْتُمْ قلبه بفصل ابنه عنه ، وفي النهاية بيعه بعدة دراهم بخسة كما يُباع الرق ولم تفوا بعهدكم الذي عاهدتم به أباكم تجاه الأخ الآخر « بنيامين » عندما اتُّهم بالسرقة فتركتموه وحيداً . وجهلكم وحده هو منشأ جميع هذه المسائل ^(١) .

٣٣ - الجهل أساس التعصب والعناد :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ

اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الفتح / ٢٦)

إنَّ كلمة « حمية » مشتقة من مادة « حَمِي » على وزن « حَمْد » ، وكما يذكر الراغب في « مفرداته » أن معناها الأولي هو الحرارة الناشئة من أشياء مثل النار

(١) يقول الرسول ﷺ : « فقيه واحد أشدُّ على إبليس من ألف عابد » . (بحار الأنوار الجزء ١

والشمس والقوة الباطنية في جسم الانسان (الحرارة الذاتية والباطنية للأشياء) ، ولهذا يقال لارتفاع درجة حرارة المريض (حُمَّى) على وزن (كُثْرَى) ، وبما أنَّ التعصب والغضب يولدان حرارة وحرقة في باطن الانسان قيل « حمية » . وقد جاء في كتاب « التحقيق في كلمات القرآن الكريم » أنَّ « الحمية » هي شدة الحرارة والعلاقة والتعصب في الدفاع عن النفس ^(١) .

إنَّ هذه الآية نزلت في حوادث صلح الحديبية وتوضيح القضية : أنَّ الرسول ﷺ قصد مكة للحج في السنة السادسة من الهجرة ، إلا أنَّ المشركين منعوا المسلمين من دخول مكة تعصباً لجاهليتهم ، مع أنَّ السماح بزيارة مكة للجميع كان من قوانينهم وسننهم المسلم بها ، فهم بهذا انتهكوا حرمة الحرم الألهي ، ونقضوا سنتهم ، إضافة الى أنهم وضعوا حائلاً ضخماً بينهم وبين الحقائق .

إضافة « الحمية » الى « الجاهلية » من قبيل إضافة « السب » الى « مسبه » ، التعصب والعناد والغضب ينشأ عن الجهل دائماً ، لأنَّ الجهل لا يسمح للانسان أن يرى عواقب أعماله ، ولا يسمح له قبول أن رؤيته قد تكون خاطئة ، وأنَّ هناك علماً أوسع واكبر من علمه ، ولهذا نرى أن شدة عناد وتعصب الأقسام الجاهلة اكثر منها في الأقسام الاخرى .

كما أنه لهذا السبب نفسه نجد أن الانبياء والرسل عندما يبعثون الى قوم بالرسالات والأنوار الإلهية الساطعة ، يواجهون مقاومة عنيفة ، ويتهمون بمختلف التهم ، وقد اورد القرآن الكريم نموذجاً من ذلك في سورة (ص) ، الآيات (٤ الى ٧) .

﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجْعَلُ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَحِيدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ

(١) « هي شدة الحرارة ، والعلاقة والتعصب في الدفاع عن نفسه والتعنف والترفع » . (مادة حمى) .

الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا
سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْأَخِيرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿

حديثهم يمطر عناداً ، العناد الناشيء عن الجهل والغرور^(١) .

٣٤ - الجهل منشأ التبرير :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يُوْقِنُونَ ﴾

(البقرة / ١١٨)

تتكرر مسألة في تاريخ الانبياء وهي هروب الجاهلين من الايمان والاذعان
والتسليم الى الحق ، واحتجاجهم بانواع من الحجج الواهية في قبال الحجج
والمعاجز السماوية الواضحة ، فتارة يقولون : لِمَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ؟ لِمَ لَمْ يَأْتِ
مَلَكٌ مَحَلُهُ ؟

وتارة يقولون : لِمَ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ؟

وتارة يقولون : لَنُؤْمِنَ مَا لَمْ نَرَ اللَّهَ وَالْمَلَائِكَةَ جَهْرَةً .

وتارة اخرى يقولون : لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعاً أَوْ تَكُونَ

لَنَا جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ وَتَفْجُرَ الْإِنهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ، كما جاء في سورة (الإِسْرَاءِ) في الآيات (٩٠ الى ٩٣) .

كما أن هناك امثلة ونماذج اخرى ذكرت في القرآن الكريم .

(١) يقول امير المؤمنين عليه السلام : « العلم أصل كل خير والجهل أصل كل شر » . (غرر الحكم

في الحقيقة ان ذوي العلم يكتفون بدليل منطقي واحد ، واذا تعددت الأدلة عندهم ازدادوا رسوخاً وإيماناً .

لكن المتعصبين والجاهلين المعاندين غير مستعدين لرفع يدهم عن عقائدهم وخرافاتهم ، فيتمسكون كل يوم بحجة في سبيل التملص من الحقيقة . واذا ما دُحِضَتْ حجتهم تركوها وتمسكوا بحجة أخرى ، ذلك لان هدفهم ليس طلب الحقيقة بل التملص منها^(١) .



٣٥ - الجهل هو سبب التقليد الأعمى :

﴿ اِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

(الأنبياء / ٥٢ - ٥٤)

إنَّ كلمة « التماثيل » جمع « التمثال » والتي تعني الموجود الذي له وجه ، وتطلق على التماثيل المنحوتة والرسوم .

وكلمة « عاكفون » مشتقة من مادة « عكوف » وتعني التوجه المستمر نحو شيءٍ والمتزامن مع التعظيم . واصطلاح « اعتكاف » يطلق على العبادة الخاصة المعروفة التي تقام في المسجد وهي مشتقة من نفس المادة .

نعم ، إنَّ عبدة الأصنام لم يكن لهم دليل منطقي على عملهم القبيح هذا ، وغالباً ما كانوا يقتنعون بتقليدهم الأعمى لأبائهم ، ولهذا نعتهم ابراهيم عليه السلام بأنهم

(١) يقول امير المؤمنين عليه السلام : « الجاهل صغير وإن كان شيخاً كبيراً والعالم كبير وإن كان حدثاً » . (بحار الانوار الجزء ١ الصفحة ١٨٣) .

وآباءهم في ضلالٍ مبينٍ وواضح .

ولهذا فان ابراهيم عليه السلام في بقية محاكمته التاريخية لعبدة الاصنام في بابل يقول : « أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ؟ اثم يضيف : ﴿ أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الانبياء / ٦٦ - ٦٧) .

يعني أن هذا التقليد الأعمى ناشيء عن عدم التعقل والتأمل ووليد الجهل .
ودليله واضح ، فان ذوي العلم مستقلون فكرياً ، واستقلالهم الفكري هذا لا يسمح لهم بالتقليد ، بينما الجاهلون مرتبطون بهذا وذاك فكرياً ، ويتبعون الآخرين عشوائياً .

٣٦ - الجهل يُسبب الخلاف والفرقة :

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(الحشر / ١٤)

إن كلمة « قرى » جمع « قرية » ومعناها المحال المعمورة اعم من القرى والارياف او المدن . وقد تطلق على مجموعة يسكنون في مكانٍ ما ، و « قرى مُحَصَّنَةٍ » تعني المناطق الآمنة من العدو بسورٍ او ابراج او خنادق او غيرها .
إن هذه الآية تتحدث عن طائفة « بني النضير » (إحدى ثلاث طوائف يهودية تقطن المدينة) وترفع الغطاء عن فزعهم وخوفهم الباطني واختلافهم وفرقتهم ، فتصرح الآية للمسلمين : إنكم تحسبونهم جميعاً ومتحدين لكن الواقع بينهم ومضمر فيهم وهذا بسبب جهلهم وعدم معرفتهم .

إن الاختلاف ينشأ عن الجهل ، والاتحاد ينشأ عن المعرفة دائماً . الجاهلون لا يجهلون الأخطار الجسيمة للفرقة فقط ، ولا يجهلون فوائد الاتحاد وبركاته فقط ، بل يجهلون أسس التعايش السلمي ، وأسلوب التعاون وشروط النشاطات المشتركة ، وهذه المسألة أدت بهم إلى الاختلاف والفرقة .

إن المتعصبين والمعاندين والمتكبرين و الحاقدين والسفهاء ، لا يمكنهم الاتحاد مع الآخرين ، لأن كلاً من هذه الصفات مانع كبير امام الوحدة ، ونعلم أن منشأ جميع هذه الرذائل هو الجهل^(١) .



٣٧ - الجهل هو سبب إساءة الظن بالآخرين :

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ
وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾

(آل عمران / ١٥٤)

تحدث هذه الآية عن الليلة المضطربة والملتهبة بعد معركة أُحُد ، حيث احتمل بعض المسلمين هجوم قريش في تلك الليلة مرة أخرى لتدمير آخر ما تبقى من مقاومة المسلمين بعد ما أنهكوا في المعركة نهائياً .

في ذلك الحين أنزل الله على المسلمين نعاساً مهدئاً لهم ، إلا أن ضعيفي الإيمان قد غاصوا في افكارٍ رهيبة فما استطاعوا النوم آنذاك ، فكانوا يتساءلون : ياترى هل أن وعود الرسول حقّة ؟ هل أننا سننتصر في النهاية مع ما حصل لنا في أحد ؟ هل سننجو من هذه المهلكة ؟ أو أن كل ما قيل لنا كان كذباً ؟

(١) يقول الامام علي عليه السلام : « لو سكت الجاهل ما اختلف الناس » . (بحار الانوار الجزء ٧٨ الصفحة ٨١) .

وامثال هذه الوسوس وإساءة الظن الجاهلي .

لكن الحوادث التي حصلت فيما بعد بينت لهم خطأهم الفاحش ، وأن جميع الوعود الالهية حقة ، ولو كانوا قد انقطعوا عن عصر الجاهلية تماماً لما أساءوا الظن بالله ورسوله .

والتعبير في الآية يُوحى بأن الجهل هو أحد أسباب إساءة الظن ، وأن عدم قدرتهم على التحليل الصحيح للحوادث جعلهم يسيئون الظن ، وأنهم لو كانت لهم القدرة الكافية على تحليل الحوادث وفهمها لما وقعوا في شباك سوء الظن .

٣٨ - فقدان الأدب ينشأ عن الجهل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(الحجرات / ٤)

كان البعض يضايق الرسول ﷺ حيث كانوا يقفون عند باب بيته منادين عالياً : « يا محمد ! » « يا محمد ! » فكان الرسول ﷺ يتألم من سلوكهم هذا ، ولكنه كان يكظم غيظه وذلك لما كان يتصف به من خُلُقٍ عظيم إلى أن نزلت هذه الآية ، فعلمتهم أدب الحديث مع الرسول ومخاطبته (في سورة الحجرات) .
والتعبير بـ « أكثرهم لا يعقلون » إشارة جميلة إلى أن سوء الأدب غالباً ما ينشأ عن الجهل فكلما قُدد العلم حل سوء الأدب مكانه ، وكلما تواجد العلم تواجد الأدب معه .

﴿ وَاذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا

أَتَتَّخِذْنَا هُزُؤًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

(البقرة / ٦٧)

إِنَّ الآية تتعلق بقضية قتل حدثت في بني اسرائيل كادت ان تجرالى معارك

كبيرة بين قبائل بني اسرائيل لجهلهم بالقاتل . فأمر الله أن يذبحوا بقرة ويضعوا
قسماً منها على المقتول كي ينطق ويُعرفهم قاتله .

وبما أن هذه القضية كانت معجزة ومدهشة للغاية بالنسبة لبني اسرائيل ،
فقد قالوا لموسى ابتداءً : أتخذنا هزواً ؟

فاجاب موسى عليه السلام : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين أي إن الاستهزاء من
معالم الجهل ودليل على العجب والتكبر و الغرور ، فان ذوي هذه الصفات
يتخذون الآخرين هزواً كي يحقروهم ونعلم أن التكبر والعجب ينشآن عن الجهل
حتى أن كثيراً من الجاهلين يستهزئون بالعلماء^(١) .



٣٩ - الجهل سبب الندم والمشاكل الإجتماعية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا
بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾

(الحجرات / ٦)

إنَّ هذه الآية كقاعدة أساسية تأمر المسلمين بأن يتبينوا ويتأكدوا من ثقة
الرواة ناقلي الأخبار ويحققوا في الخبر الذي وصلهم من فاسق أو شخص لا يعتمد
عليه فلا يتعجلوا باتخاذ الإجراءات على ضوء ما نُقِلَ لهم من خبر ، لأنه قد
يوجب لهم كثيراً من الندم والمشاكل والمصائب الاجتماعية .

فمن البديهي أنَّ الجاهل لا يُمكنه أن يتَّخذ موقفاً صحيحاً تجاه مختلف

(١) يقول امير المؤمنين عليه السلام : « العلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم » . (بحار الانوار الجزء ٧٨

القضايا ، وعدم معرفته هذه تؤدي به الى كثير من المصائب والمشاكل الاجتماعية التي نهايتها الندم .

٤٠ - الجهل وتبدل القيم :

﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة / ٢١٦)

إنَّ نشاطات الإنسان متَّجهة دائماً نحو القيم التي يعتقد بها . وتمييز القيم له دور أساسي في تبلور وحياد نشاطات الإنسان وفعالياته .

فالجهل وعدم المعرفة قد يؤدي به الى الوقوع في الخطأ عند تمييز (القيم) عن (أضدادها) ، أي أن يعلم ما هو عامل التقدّم والخير والبركة ، ويُميّزُه عن عامل التراجع والشرّ والشقاء .

إن الآية السابقة تقول : إن للجهاد في سبيل الله قيمة - أي عامل للعزة وصيانة ماء الوجه والفخر والموقية - ، لكنكم تكرهونه لجهلكم وعدم معرفتكم بآثاره ، وتعتبرون السكوت وترك الجهاد قيمةً وعاملاً للسلامة والسعادة ، مع انه عامل شقائكم .

وعلى هذا ، فالجهل هو منبع الخطأ في تمييز القيم ، وهو عامل اتخاذ المواقف غير الصحيحة والخطأ تجاه القضايا المختلفة والحوادث المتنوعة في الحياة وعامل للافراط والتفريط ^(١) .

(١) يقول الامام علي عليه السلام : « لا ترى الجاهل إلا مفراطاً أو مفرطاً » . (نهج البلاغة الكلمات القصار ،

استخلاص واستنتاج :

إن المستخلص من البحوث القرآنية السابقة والمدرجة تحت أربعين عنواناً (لاندعي تحديدها بهذه العناوين أبداً) والحائثة على طلب العلم والمعرفة ، هو اهتمام القرآن والاسلام البالغ تجاه مسألة المعرفة في جميع المجالات ، سواء في مجال معرفة الذات الربانية وصفاته ، أو في مجال معرفة العالم والسموات والأرض وجميع الكائنات والإطلاع على أسرار المخلوقات الأرضية والسموية الطبيعية أو ما وراء الطبيعية ، ومعرفة النفس والألأم بمختلف العلوم .

ومن تحقيق الآيات السابقة نستخلص بوضوح الأمور التالية :

١ - إنَّ طريق العلم والمعرفة مفتوح للناس كافة ، وكلُّ حسب استعداده وسعيه يستطيع أن يطوي ما أمكنه منه ، وإلاَّ فالدعوة للعلم مع التأكيد على أهميته لا معنى لها .

٢ - إنَّ قيم البشر لها علاقة مباشرة بمقدار معرفتهم لله وأسرار عالم الوجود .

٣ - إنَّ أكبر مفخرة وموهبة للانسان هو قابليته للمعرفة أكثر فأكثر بالرغم من ضعفه الجسماني .

٤ - إنَّ طريق العلم هو طريق الانتصار والغلبة على مختلف المشاكل : وهو طريق تزكية النفس .

٥ - مقارعة الشقاء ومختلف المفاسد يحتاج الى العلم والمعرفة قبل أي شيء آخر .

نؤكد أنَّ هذه الآيات نزلت في زمان خيمت عليه غيوم الجهل السوداء ، وغطت أفق المنطقة بل العالم ظلاماً ، في حين أن شمس العلم قد غابت والناس

في أمواج الجهل غارقون .

حقاً إنه شيءٌ عجيبٌ أن تسنَّ تعاليم بهذا المستوى العالي في بيئة كهذي ،
وإن هذا دليل حيٌّ على حقانية القرآن ، حيث أنَّ إنساناً أمياً كان رسولاً لمدرسة
كهذه .

إنَّ الملفت للنظر هو عثور بعض المحققين على سبعمائة آية تتحدث عن
العلم والمعرفة وأرضياتها ومصادرها ، وبالقياس إلى آيات الأحكام والتي تقدر
بخمسمائة آية ، نستطيع ان نستنتج أن القرآن أولى أهمية كبرى للعلم والمعرفة
فاقت الأهمية التي أولاها للأحكام الشرعية .

إيضاحات :

١ - إمكانية المعرفة من وجهة نظر فلسفية :

إنَّ وجود عالم خارج الذهن أمر مسلم به لا يستدعي بحثاً ، ويعترف بهذا
عملياً حتى السوفسطائيون او المثاليون الذين ينكرون وجود الأعيان الخارجية .

لكن البحث ينصب في هل من سبيل إلى معرفة هذه الواقعيات ؟

وإذا كان الجواب بالايجاب فما هي سُبُل المعرفة ووسائلها ؟

ما هي شروط الوصول إلى المعرفة ؟

وبتعبير آخر ، هل يمكن تبديل الواقعيات الخارجية إلى حقائق ذهنية ، أي

انعكاس ما في الخارج عيناً في الذهن صورة ام لا ؟ إنَّ جميع تعاريف المعرفة

والنزاع فيها ترجع الى هذه النقطة^(١).

ومن جهة أخرى فإن جذور جميع العلوم والفنون البشرية ترجع الى
الاجابة عن هذا السؤال .

وبالرغم من أن أغلب الفلاسفة (سواء الماديين منهم أو الالهيين) يؤيدون
امكانية معرفة الواقعيات الخارجية ، إلا أن البعض منهم لا يعتقد بامكانياتها ، وقد
ذكرت أربعة أدلة لاثبات مرادهم :

١ - إن الحواس هي أهم وسائل المعرفة ، والبصر يقع في الدرجة الاولى من
حيث الأهمية ، لكننا نجد الكثير من الأخطاء تصدر عن هذه الحاسة !
إنَّ الشهاب المشتعل نراه في السماء كخط النور الممتد ، بينما هو نقطة
ضوئية متحركة لا أكثر !

وإذا كنا نمشي في شارع مُشجّر الطرفين ، وابتعدنا عن الأشجار رأيناها
تقترب من بعضها البعض ، وتتصل وتشكل زاوية في نقطة بعيدة عنا بينما
الاشجار لم تلتقِ على طول الطريق ولم تُشكل أية زاوية ، والفاصلة بينها متساوية
في جميع نقاط الشارع .

وإذا كانت احدى يديك باردة والاخرى حارة ووضعتهما في ماء دافئ ،
فانك نحس بالحرارة باليد الباردة ، وبالبرودة باليد الحارة ، فيرتسم في الذهن
إحساسان متضادان اتجاه الماء في آن واحد .

ولدينا الكثير من الأمثلة عن حاسة البصر وبقية الحواس (اللامسة وغيرها) .
ومع وجود هذا النقص فكيف نعتمد على حواسنا ؟ ! بل إنَّ عالم الخارج يمكن
أن يكون وهماً او ما يرى عند النوم لا أكثر ، وهل أن ما نراه في المنام ونعتبره

(١) وعلى هذا يكون تعريف المعرفة عبارة عن : تبديل الواقعيات الخارجية الى حقائق ذهنية ،
وانعكاسها في مرآة الذهن كما هي .

حقيقة في ذلك الحين ، له حقيقة ؟

٢- نحن لا نكاد نجد اثنين من العلماء أو المفكرين في هذا العالم يتفقان في جميع المسائل ، وما هذا التضاد والاختلاف إلا دليلاً على فقداننا الطريق الذي يهديننا إلى معرفة الحقائق .

لأن ما أراه واقعاً عينياً قد يكون برأى الآخر وهماً وخيلاً لا أكثر وكذا العكس .

وحتى الانسان الواحد قد تتغير رؤيته وأفكاره تحت ظروف مختلفة ، وهذا يزلزل أسس قضية المعرفة .

٣- إن الموجودات في العالم كلها في حركة مستمرة ، وينتج عنها تحول الموجودات حتى افكارنا ومعارفنا وعلومنا في هذه الحركة .

ومع هذا ، فكيف يمكن أن تحصل لنا معرفة صحيحة اتجاه الاشياء والعلاقات بينها ، مع أن المعرفة تستدعي ملاحظة أمر ثابت .

٤- نعلم أن العالم له نظام موحد ومتربط ، ومعرفة الجزء لا يمكن أن تنفصل عن معرفة الكل ، وعليه ، فإن فقدان حلقة من السلسلة المترابطة للعالم يُخلّ بمعرفتنا ويحول دون معرفة أي جزء منه .

ومن جهة اخرى فان الواقعيات المحال إدراكها للبشر كثيرة ولا يقدر عددها بالنظر إلى حجم المعلومات الضئيلة .

وعلى هذا ، فكيف يمكن لنا أن نعد معرفة العالم أمراً ممكناً ؟ إذن يجب الاعتراف بأن ما في أذهاننا هو تصورات لها قيمة علمية فقط ، وليست لها أية قيمة واقعية .

الجواب:

يمكن الاجابة على هذه الاستدلالات بثلاث طرق :

١ - إن جميع منكري إمكانية المعرفة عند استدلالهم وكتابتهم لأدلة النفي بأقلامهم ، يذعنون لمئاتٍ من الامور الواقعية لكنهم يتزعمون الحرب ضد مسألة المعرفة بالاستعانة بمعرفتهم بهذه الامور . فالقلم ، والورقة ، والخطوط والكلمات ، وصيغ الجمل ، وجهاز الطبع ، والتوزيع ، والكتاب ، والمكتبة ، وكل من المخالفين لنظريتهم ، والامواج الصوتية ، ومخارج الحروف ، والنور والضياء ، والتأثير بأفكار الآخرين ، فهم يذعنون لجميع هذه الواقعيات .
نعم ، إنهم نصبوا العداء للمعرفة بالمعرفة ، إنهم استعانوا بالمعارف السابقة لنفي المعرفة ، ياله من خطأ!! (دققوا) .

٢ - إنَّ خطأهم الكبير هو عدم تمييزهم بين مسألة كون معرفة الانسان محدودة وبين أصل مسألة المعرفة . فأن استدلالاتهم لا تنفي اماكنية المعرفة مطلقاً . غاية الامر أنها تثبت ان معرفة الانسان محدودة أو مقرونة بالاختاء أحياناً .
أجل ، لا يمكنهم انكار وجود « الشهاب » بل إن ما يقولونه في هذا المجال هو أن الخط النوراني الذي نراه ليس خطأً نورانياً بل نقطةً نورانيةً ، والتصور الخاطيء هذا نشأ عن خطأ في حاسة البصر ، إذ ليس الخطأ في وجود نفس الشهاب بل في تصور خطٍ ممتدٍ ملتهبٍ .

كما أن الخطأ ليس في نفس وجود الشارع والاشجار على طرفيه بل الخطأ في أن الاشجار كلما ابتعدنا عنها اقتربت من بعضها البعض في أبصارنا ، وكذا الأمر بالنسبة للماء الدافئ ، فليس الخطأ في نفس وجود الماء ودرجة حرارته المعنية ، بل في تمييز درجة الحرارة .

ولكننا - كما سبقت الإشارة - لا ندعي إدراكنا لجميع حقائق الوجود ، كما

لاندعي أن معرفتنا منزهة عن أي خطأ بل ما نريد أثباته هو امكانية المعرفة على سبيل القضية الجزئية ، وقد نشأ خطأهم من هنا .

واللطيف هو أن ما ذكره مخالفو إمكانية المعرفة من أدلة يمكن أن يستخدم كدليل ضدهم ، لأنهم عندما يبحثون مسألة خطأ الحواس ، فإن ما مفهومه ادعاؤهم أن هذه الحقيقة اكتشفناها بحواسنا الاخرى او بطرق عقلية ، فنذكر خطأ الحاسة المعيّنة في ذلك المورد ، وهذا عين اعترافهم بصحة بعض المعارف .

فعندما نقول مثلاً : إن الخط الملهب الممتد الذي نراه عند ظهور الشهاب في السماء خطأً ، فذلك بسبب إنا لاحظنا بحواسنا الاخرى إنّ الشهاب قطعة حجر تحترق عند وصولها الى الأرض وذلك لسرعتها واحتكاكها بطبقة الهواء ، وعندها تلوح لنا كالنقطة النيرة ، وبما أنها تتحرك بسرعة هائلة فتخطأ العين في التمييز ونراه خطأً ممتداً وملتهباً ، مستقيماً او منحنيّاً .

كذلك الأمر بالنسبة للخططين المتوازيين عندما نراهما متقاطعين من بعيد ، بينما رأيناها من قريب متوازيين فعند مقارنة المعلومات التي حصلنا عليها من بعيد ومن قريب نعترف بخطأ ابصارنا من بعيد .

إذن يجب القول بأن أي حكم بخطأ بعض المعلومات ، دليل على معرفة كثير من الحقائق (دقق) .

٣ - إنهم في الحقيقة لم يميزوا جيداً بين « البديهيات » و « النظريات » ولا بين « المعرفة الاجمالية » و « المعرفة التفصيلية » ولا بين « الامور المطلقة » و « الامور النسبية » ، ولأجل عدم معرفتهم الدقيقة وتميزهم لهذه المواضع الثلاثة وقعوا فيما وقعوا فيه من خطأ .

إيضاح :

إن هناك حقائق لا يشك بها أحد إلا السوفسطائيين (وكما قلنا سابقاً نهم ينكرون الحقائق بالسنتهم ويعتقدون بها في قلوبهم وهي الحقائق التي لا حاجة لها الى التفكير. فالكـل يعرف مثلاً أن اثنين زائداً اثنين يساوي أربعة ، وأنه لا يمكن أن يحصل الليل والنهار أو الصيف والشتاء في آن ومكان واحد . أو أن شخصاً واحداً يكون في مكة والمدينة في آن واحد وحتى أولئك الذين يعدّون اجتماع النقيضين أو الضدين ممكناً ، فانهم يتلاعبون بالالفاظ فقط ، ويدعون لهذه الحقائق قلبياً ، فمثلاً بالنسبة لـ « اجتماع الضدين » يقولون بإمكان أن يكون الجو ممطراً في ساعة ومشمساً في ساعة اخرى ، إذن اجتماع الضدين أمر ممكن . أما إذا سألناهم هل يمكن أن يكون الجو ممطراً ومشمساً في ساعة ومكان واحد ؟ فسيجيئون : لا .

وفي مقابل هذه المعلومات البديهية هناك قسم آخر من المعلومات وهي « المعلومات النظرية » التي تحتل الخطأ والترديد ، وما ذكره المنكرون من عدم امكانية المعرفة فانه يتعلق بهذا النمط من المعلومات .

كما ان هناك مجموعة من الحقائق مطلقة ولا نسبية فيها كالامثلة السابقة (العلاقات الرياضية بين الاعداد وامتناع اجتماع النقيضين والضدين) .

ولكن لا يمكن انكار أن هناك مجموعة من المفاهيم النسبية التي تتغير بتغير الظروف ، فمثلاً الحرارة والبرودة أمران نسبيان ، فكل شيء حرارته أكثر من حرارة جسم الانسان فهو حار ، وكل شيء حرارته أقل من حرارة جسم الانسان فهو بارد ، فاذا ما تغيرت درجة حرارة أجسامنا تتغير مفاهيم الحرارة والبرودة عندنا ، ولهذا قد يجلس شخصان في غرفة يشعر أحدهما بالبرودة فيطلب بتشغيل المدفئة والآخر يشعر بالحرارة فيطلب بفتح الأبواب .

بالطبع ، في هذا المجال يوجد حقيقتان وهما درجة حرارة الجسم ودرجة

حرارة الغرفة و تصورنا عن الحرارة و البرودة ينشأ عن المقارنة بين هاتين الحقيقتين فيختلف الحكم اتجاه المسألة .

كما ان في العالم حقائق ثابتة و حقائق متغيره ، والأمثلة التي ذكرناها سابقاً وما شابهها تدخل تحت عنوان الحقائق الثابتة ، وحتى الماركسيون القائلون بتغير وتبدل الحقائق في العالم يستثنون حقيقة التحول والتغير كقانون ثابت ، ويعتقدون أن كل ما في العالم في تحولٍ وتغيرٍ مستمرٍ إلا نفس قانون التحول والتغير فانه ثابت دائماً (بالطبع هناك مجموعة أخرى من القوانين يفرضون ثباتها اضافة الى هذا القانون) .

وإذا تجاوزنا الأمر السابق فان هناك « معرفةً اجماليةً » و « معرفةً تفصيليةً » ، هناك حقائق لا نعرف عنها إلا شيئاً اجمالياً ، فلا معرفة لنا بخصائصها وعلاقاتها بالاشياء الاخرى في العالم تفصيلاً ، لكن عدم معرفتنا التفصيلية عنها لا يعني عدم معرفتنا شيئاً عنها ولو اجمالاً .

فمثلاً العين جزء من الجسم ، وما لم نعرف الجسم بجميع اعضائه جيداً لانتمكن من معرفة علاقة العين باعضاء الجسم الاخرى .

لكن عدم معرفتنا للعين تفصيلاً لا يمنع من معرفتنا لها اجمالياً وانها تقع في الرأس وتحت الجبين ، ولها سبع طبقات ، وكل طبقة مهمة خاصة بها ، وفائدتها رؤية المناظر واللقطات المتنوعة .

وبالنظر لما تقدم يتضح أن أدلة المخالفين لنظرية المعرفة نشأ من عدم دقتهم في التقسيمات السابقة ، فعندما يقولون : إن العالم كتلة واحدة ، وعدم معرفتنا لمفردة من مفرداته يفقدنا المعرفة بأي جزء منه ، إن قولهم هذا خلطٌ في الحقيقة بين المعرفة التفصيلية والاجمالية . لأننا إذا أردنا معرفة جزءٍ ما في العالم بجميع علاقاته بباقي اجزاء العالم يجب علينا معرفة جميع أجزاء العالم بدقة ،

فهذه معرفة تفصيلية ، بينما المعرفة الاجمالية لا تستدعي ذلك كله ، ومعرفتنا للارض والسماء وافراد البشر والكائنات التي من حولنا هي كلها من هذا القبيل ^(١) .

وهناك ايضا حات اكثر في هذا المجال سنقرؤها في الفصل اللاحق ان شاء الله تعالى .



٢ - العلم البشري المحدود :

١ - ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الاسراء / ٨٥)

٢ - ﴿ وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بَأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾

(لقمان / ٣٤)

٣ - ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(الاسراء / ٤٤)

٤ - ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(١) قد يقال ان منكري المعرفة لا ينكرونها كلياً ، وعلى هذا فالنزاع بينهم وبين المؤيدين لنظرية المعرفة يكون نزاعاً لفظياً .

(البقرة / ٢١٦)

٥ - ﴿ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(غافر / ٥٧)

٦ - ﴿ لَا تَذَرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾

(الطلاق / ١)

٧ - ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتَ اعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾

(الاعراف / ١٨٨)

٨ - ﴿ آبَائِكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾

(النساء / ١١)

٩ - ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(لقمان / ٢٧)

شرح المفردات :

إن كلمة « روح » - وكما جاء في مقاييس اللغة - في الأصل اشتقت من مادة « ريح » ويطلق على التنفس كذلك ، وبما أن هناك علاقة وثيقة بين التنفس وبقاء الحياة ونفس الانسان استعملت الروح بمعنى النفس ، ومن ثم بمعنى تلك الحقيقة المجردة التي يتوقف بقاء الانسان عليها .
إن « رُوح » على وزن (لَوْح) تعني النسيم البارد ، وكذلك اللطف والرحمة ،

ومنه اشتقت كلمة « لرائحة » و « المروحة » .

وإن كلمة « تفقهون » مشتقة من مادة « فقه » وقد جاء - كما في لسان العرب - بمعنى الاطلاع على شيء وفهمه ، لكنها تطلق اطلاقاً خاصاً على علم الدين (او علم الاحكام) ، وذلك لرفعة واهمية هذا العلم . إن الراغب في مفرداته يقول : « الفقه يعني الاطلاع على شيء خفي بواسطة الاطلاع على أمر ظاهر ومكشوف » وعلى هذا فمفهومه أخص من مفهوم العلم .

و معنى كلمة « غَيْب » - وكما جاء عن ابن منظور في لسان العرب - هو « الشك » ويطلق على كل شيء خفي علمه عن الانسان . (ولعل ذلك بسبب أن الاشياء الخفية غالباً ما تقع محلاً للشك) . يقول الراغب عند تفسيره لجملة « يؤمنون بالغيب » : إن الغيب شيء خارج عن دائرة الحس والعقل الابتدائي ويعرف بواسطة إخبار الانبياء .

وكلمة « نفدت » أخذت من مادة « نَفَدَ » على وزن (حَسَدَ) ، و « النفاد » - كما يستخلص من المفردات ولسان العرب - يعني الفناء والدمار ، و « مُنَافِد » تُطلق على الشخص القوي للغاية في استدلالاته بحيث يدحض جميع حجج خصمه . و « نفاد » جاءت بمعنى نضوب ماء البئر .

جمع الآيات وتفسيرها :

كان عدد من المشركين أو أهل الكتاب يسألون النبي ﷺ عن « الروح » ، فكلف الرسول ﷺ وكما جاء ذلك في الآية الاولى - أن يجيبهم بأن « الروح » من أمر ربي ويضيف لهم بأنهم ما أوتوا من العلم إلا قليلاً ، ولهذا فلا قابلية لهم

لاستيعاب حقيقة « الروح » ^(١).

وفي هذه الآية اشارة واضحة الى كون العلم البشري محدوداً (بناءً على أن المقصود من الروح فيها هو روح الانسان) وذلك لأن الانسان ما استطاع الاحاطة علماً بشيء هو أقرب إليه من الحقائق والموجودات في الكون وأن ما يعرفه عنهما هو معرفة سطحية واجمالية ، فكيف يمكنه معرفة حقائق العالم الاخرى ؟ !



إن الآية الثانية والتي هي آخر آية من سورة لقمان ، تكشف عن علوم خاصة بالله تعالى وأشارت الى خمسة علوم : قيام القيامة ونزول المطر والجنين الذي في رحم الأم والحوادث المستقبلية التي تتعلق بأعمال الانسان والبلد الذي يموت في الانسان . وقد أُشير الى هذه العلوم الخمسة في الروايات تحت عنوان « مفاتيح الغيب الخمسة » التي لا يعرف عنها أحد إلا الله ^(٢).

وقد يعلم الانسان كليات عن هذه الأمور بالاستعانة بالقرائن ، إلا أن الجزئيات لا تتضح لأحد أبداً ، فلا يعلم - مثلاً - ما هي قابليات الجنين الجسمية والروحية وهل هو جميل أم قبيح وانه سليم أم سقيم ، وحتى جنسه (المذكر والمؤنث) لا يمكنه معرفته إلى مراحل متأخرة من حياته في الرحم .

إنَّ القرآن يخاطب الانسان في هذه الآية ويقول : يا أيها الانسان انك لاتعلم

(١) إن جملة « ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » فُسرت من قبل اغلب المفسرين بكونكم أوتيتم قليلاً من العلم ، إلا أن البعض فسرها بأن قليلاً منكم أوتي علماً . إلا أن هذا التفسير الاخير يتنافى مع ظاهر الآية التي تجعل المشركين وأهل الكتاب السائلين عن الروح في مخاطباً لها (دققوا) .

(٢) مجمع البيان المجلد الثامن ، ذيل الآية (٣٤) من سورة لقمان .

عن غذك شيئاً ولا تعلم في أي أرض تموت ، وعليه فكيف تتوقع أن تعرف عن جميع ما في العالم وعلمك محدود ؟ !

وقد تحدثت الآية الثالثة عن تسبيح جميع الكائنات لله ، فجميعها - بلسان حالها وبالنظام الدقيق والعجيب الذي يهيمن عليها - تحمد وتثني على الله وتشهد بنزاهته عن أي نقص وعيب ، وتملأ العالم بلسان حالها - أو بلسان قالها إضافة إلى لسان حالها - بهممة التسبيح والتحميد ، وكل ذرة في هذا العالم بلا استثناء لها عقل وعرفان وشعور خاص بها ، تحمد الله وتثني عليه بمعرفة ، وقد شرحنا هذين الرأيين في تفسير الأمثل ^(١) .

وعلى أي حال ، فانا لا نستطيع فهم لسان حال الموجودات لأننا لانعرف كل شيء عن أسرار هذا العالم ونظامه ، كما لا نستطيع فهم لسان قالها أيضاً . وعلى هذا ، فالعالم مليء بالهممة والألحان الالهية ونحن غافلون عن ذلك لأننا لا نخط به خيراً ، وهذا دليل واضح على كون علمنا البشري محدوداً .

وتحدثت الآية الرابعة عن « الجهاد » ، وتقول للذين يكرهون الجهاد : أنتم تجهلون « الخير » و « الشر » ولا تميزون بينهما ، فانكم أحياناً ما تكونون في حرب مع مصالحكم وقد تتقدمون نحو الشر حباً ورغبةً فيه ، وهذا دليل واضح على علمكم المحدود حيث انكم لا تميزون أحياناً بين ما هو شرٌ لكم عما هو خيرٌ لكم ، إلا أن الله يعلم ذلك وقد أوضح بواسطة الوحي (الذي هو أحد مصادر المعرفة) وبيّن لكم ما فيه خير وما فيه شر .

(١) في ذيل الآية (٤٤) من سورة الاسراء ، (الجزء ١٢ الصفحة ١٣٣) .

إن الآية الخامسة مع إشارتها إلى عظمة خلق السموات والارض وبيانها لحقيقة أن خلقهما أعظم وأهم من خلق الانسان ، أشارت الى عدم معرفة أكثر الناس لهذه القضية ، هذا في الوقت الذي كانت فيه معلومات الانسان بصورة عامة والحجاز بصورة خاصة اتجاه خلق السموات والارض محدودة ، ولعلمهم كانوا يتصورون النجوم آنذاك مسامير فضية في سفق السماء ، واليوم حيث توسعت معلوماتنا اتجاه خلق السموات والارض ، فان معلوماتنا لا زالت محدودة.



والآية السادسة بعد أن أشارت إلى قضية الطلاق والعدة وضرورة بقاء المطلقة في بيت الزوج عند اعتدادها بالعدة الرجعية ، تقول : قد يحدث الله أمراً جديداً في هذه الأثناء أي اثناء مجاورتها لزوجها السابق الأمر الذي قد يؤدي إلى الصلح بينهما .

والملفت للنظر هنا هو أن مخاطب الآية نفس الرسول ﷺ فاذا كان الرسول ﷺ مع علمه الواسع يُخاطَب بخطاب كهذا فما حال باقي أفراد البشر؟! وهذا دليل على قصور العلم البشري إلى مستوى بحيث لا يستطيعون أن يعلموا بمستجدات يومهم اللاحق .



وفي الآية السابعة يؤمر الرسول ﷺ بأن يقول : إني لا أملك لنفسي نفعا ولاضراً ، وأن يعترف :

إني لا أعلم الغيب (إلا ما علمني الله) واني لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت وازددت من الخير لنفسي وما مسني ضرر وما حصلت لي مشكلة .

إن هذا الحديث قاله الرسول ﷺ عندما كان أهل مكة يسألونه عما إذا كان يوحى إليه فلم لا يعلم ما سيؤول إليه امر ارتفاع و انخفاض اسعار السلع او الجفاف وهطول الغيث في المناطق المختلفة كي تستزيد من الخير وتنتفع أكثر، فأجابهم: إن عالم الغيب هو الله وهو صاحب العلم غير المحدود .

عندما يعترف الرسول ﷺ مع علمه الواسع حيث يقول الله تعالى فيه ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ - النساء ١١٣ - بأني لا أعلم عن الغيب (وهو الامر الخارج عن الحس) إلا ما علمني الله فكيف حال بقيّة البشر ؟ !



والآية الثامنة بعد أن بينت أحكام إرث الاولاد والأب والأم في حالات مختلفة ذكرت : حتى انفسكم لا تعلمون أيّاً من الأب والأم أو الاولاد أنفع لكم ؟ وأيهم أحق بأموالكم كي يخصص له سهم أكثر .

نعم ، لستم على بينة بمصالحكم الشخصية ، لهذا السبب لا تستطيعون أن تسنّوا قوانين دقيقة تليق بمقام الارث وغيره . إن المَقْنَن يجب أن يكون الهاً محيطاً بكل اسرار وجود . نعم ، إن قصور علم البشر بدرجة لا يستطيع أن يسنّ قوانين تحافظ على مصالحه ، ولهذا نرى أن القوانين البشرية في حالة تغيير دائمى ، فاذا كان الانسان يجهل مصيره الى هذا الحد ، فكيف به اتجاه الموجودات الاخرى التي في الكون ؟

وأخيراً ، فان تاسع وآخر آية في البحث تحدثت عن العلم الالهي اللامتناهي ، وصوّرت اللانهاية في الازهان بحيث يستطيع حتى الذي لم ينل من العلم إلا القليل بل وحتى الأمي أن يرسم في ذهنه صورة عنها . بالرغم من صعوبة تصور اللانهاية حتى للعلماء ، حيث قالت : لو أن ما في الارض من شجر يصير قلعاً رغم أن الاشجار قد يصل عددها الى مليارات (بل قد يُصنع السنين

من الاقلام من شجرة واحدة) ، وبالرغم من أن حوضاً صغيراً قد يملأ الملايين من الدواة فكيف بالمحيطات والبحار ، وازضافة الى هذا كله ، لو اجتمعت الملائكة وكتب الانس والجن على أن يكتبوا بهذه الاقلام وهذا الحبر كلمات الله وعلمه ما استطاعوا وسوف تنصرم الاقلام وينتهي الحبر ومازالت كلمات الله جل جلاله وعلمه في بداية الدفتر ، هذا من جهة .

ومن جهة اخرى فأننا نعلم أن المراد من كلمات الله هو الكائنات الموجودة في العالم ، وعلى هذا فالآية دليل واضح على سعة العالم وقصور علم البشر .



نتيجة البحث :

إن ما يستخلص من الآيات السابقة هو أن معرفة الانسان وعلمه رغم سعتها بحد ذاتها ورغم ازديادها كل يوم بل كل ساعة ولحظة ، ورغم امتلاء الدنيا بالمدارس والجامعات والمكتبات ومراكز التحقيق ، رغم هذا كله فان معلومات الانسان بالقياس الى مجهولاته كالقطرة بالنسبة للبحر .

إذا لم يكن الانسان عارفاً بخيره وشره ونفعه وضره ولا بكنه روحه التي هي أقرب إليه من أي شيء آخر ، ولا بالحوادث المقبلة عليه ، ولا بساعة موته ، فكيف يمكنه أن يعرف ما يدور في الكواكب البعيدة في العالم اللامتناهي .

ومما لا شك فيه ان جهل الانسان بهذه الامور لا لعجزه بل لسعة الكون ، وقد يكون انكار البعض لنظرية امكان المعرفة نشأ من خلطهم بين هذه المسألة ومسألة قصور العلم البشري واقتترانه بالاختفاء .

إن القرآن كما يدعو الى العلم والمعرفة ويؤكد على أن باب العلم مفتوح للجميع ، يصرح بقصور العلم البشري ، هذا النقص والقصور اللذان يدعوانه الى

الاعتراف بعظمة الكون وخالقه وبحاجته الى الرسل واصحاب الوحي .
ونختم هذا الحديث بجملة قالها الامام الحسين عليه السلام في دعائه المعروف
يوم عرفة ، حيث يقول هناك :
« إلهي أنا الفقير في غناي ، فكيف لا أكون فقيراً في فقري ، إلهي أنا الجاهل
في علمي ، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي » .



٣ - الفلاسفة والعلماء يشهدون بقصور العلم البشري :
إن كون علم البشر محدوداً أمرٌ مسلم به ولا حاجة الى الدليل ، إلا أنه
بالالتفات الى النقاط التالية يتضح لنا الامر أكثر:
١ - إن قدرة حواس الانسان محدودة ، فالعين رغم أنها أهم وسيلة للمعرفة
في الامور الحسية فهي لا تستطيع رؤية شيءٍ من بعيد ، إضافة الى أن عدد الألوان
التي يشاهدها الانسان محدودٌ جداً لأن الألوان ما فوق البنفسجية وما تحت
الحمراء بالرغم من كثرتها فلا قدرة للعين على رؤيتها .
كذلك بالنسبة للأذن فانها لا تسمع كل شيءٍ بل تسمع أمواجاً صوتية
محدودة ، وبمجرد ارتفاع أو هبوط درجة ارتعاش الأمواج فسوف لا نسمع شيئاً ،
وكذا الحال في بقية الحواس .
إننا بالعين المجردة نستطيع رؤية عدة آلاف من النجوم في السماء الدنيا
فقط ، بينما هناك المليارات من النجوم .
صحيح أن الوسائل العلمية ضاعفت من قدرة الحواس ، إلا أنها هي بدورها
محدودة القدرة أيضاً .

٢- إن قدرة ادراكها وأفكارنا محدودة وما وراءها فهو مجهول عندنا على الإطلاق ، وهذا الأمر يصدق حتى بالنسبة الى أكثر الناس علماً وذكاءً فان قدرة فكره وإدراكه تكون محدودة ايضاً .

٣- من جهة ثالثة فان العالم واسع بدرجة لا يمكننا استيعابه ، ونستطيع أن نقول : إن علمنا كلما ازداد ، ازدادت عظمة العالم في افكارنا .

ولأدراك عظمة هذا العالم (الى المستوى الذي يصل إليه فكرنا) يكفي ان نعرف أن المنظومة الشمسية والنجوم التي نشاهدها حولنا جزء من المجرة التي تسمى بدرب التبانة (المجرات أو مدن النجوم مجموعة ضخمة من النجوم التي تشكل عالماً خاصاً لنفسها) .

وفي هذا المجرة - على ما يقوله العلماء - يوجد أكثر من مائة مليار نجمة ! والشمس بالرغم من عظمتها ونورانياتها تعتبر فيها من النجوم المتوسطة الحجم . ونفس هؤلاء العلماء يقرّون - وبالاستعانة بالتلسكوب والحسابات الكمبيوترية - أن هناك مليار مجرة في هذا العالم تقريباً ^(١) !

إن ذكر هذه الأرقام سهل على اللسان لكن مأسع تصويره ؟ ! وينبغي أن لانسى أن معلوماتنا عن هذه المجرات والنجوم الهائلة تدور حول محور الأرض فكيف بنا اذا تجاوزناها ؟ !

٤- ومن جهة رابعة فان عالمنا هذا له بداية ونهاية فلا يعلم أحد عن المليار سنة الماضية ولا عن المستقبل شيئاً ، فهو كالسلسلة بدايتها الأزل وتمتد الى عمق الأبد ، وما نعرفه هو حلقة واحدة من هذه السلسلة وهي الحلقة التي نعيش فيها ،

(١) جاء في كتاب (هل وكيف ولماذا) أن الفلكيين يعتقدون بوجود عدد كبير من المجرات قرب مجرتنا وبعضها أكبر وبعض أصغر حجماً وقد كشفت التلسكوبات القوية والحاسوبات العادة للنجوم عن وجود مليار مجرة تقريباً في هذا العالم .

وما ماضيه أو مستقبله إلا كشبح مطبوع في أذهاننا .

صحيح أن الانسان - وبدعوة من فطرته - في سعي مستمر لتحصيل علم أكمل وأشمل عن نفسه وعن العالم ، وأنه قد جمع خلال آلاف السنين الماضية معلومات كثيرة ادخرها في خزائن المكتبات الكبيرة والصغيرة .
وصحيح أن بعض المكتبات كبيرة إلى مستوى بحيث يصل مجموع طول اقفاص الكتب فيها إلى مائة كيلو متر (كما هو الحال بالنسبة لمكتبة المتحف الانكليزي) ! وقد يصل عدد الكتب في بعضها إلى ستة ملايين كتاباً (كما هو الحال بالنسبة لمكتبة باريس) .

بل قد يصل العدد إلى خمسة وعشرين مليوناً (كما هو الحال بالنسبة للمكتبة الامريكية المعروفة) ، وقد يصل فهارس الكتب فيها إلى جعل مكتبة كبيرة لها ، وقد يصل الأمر ببعض أن تُستعمل وسائل النقل فيها للتنقل بواسطتها من مكان إلى آخر !

لكن بالرغم من كل هذه المعلومات عن العالم وأسراره ، فإن مجموعها لا يشكل إلا قطرة من محيط كبير للغاية .



ولابأس أن نشير هنا إلى شهادات بعض العلماء في هذا المجال كي يعرف ان مذهبنا إليه معترف به عند الجميع .

١ - يقول « كريس موريس » الطبيب والعالم النفساني في كتابه « سر خلق الانسان » :

« عندما نفكر بالفضاء اللا متناهي ، أو الزمان السرمدي ، أو الطاقة العجيبة المودعة في الذرة ، أو بالعوالم غير المحدودة والتي تسبح فيها كواكب كثيرة ، أو

بقدره تشعشع بعض الكواكب ، او بقوة جاذبية الأرض ، او بالقوانين الاخرى التي يرتبط قوام العالم بها ، عندما نفكر بهذه ندرك مدى ضعفنا ونقصان علمنا ^(١) .

٢ - ويذكر الدكتور « الكسيس كارل » في كتابه « الانسان ذلك المجهول » :
« إنَّ المساعي التي بذلت في العلوم التي تدرس الانسان لم تصل الى نتيجة مطلوبة ، ومعرفتنا لأنفسنا ما زالت ناقصة الى حدٍ كبير ^(٢) » .

ولهذا السبب جعل « الانسان ذلك المجهول » عنواناً لكتابه القيم ، فاذا كانت معرفة الانسان عن نفسه محدودة الى هذه الدرجة ، فواضح ما حال معرفته عن الأكوان والعوالم الاخرى .

٣ - ويقول العالم المعروف « وليام جيمس » :

« علمنا قطرة ، وجهلنا بحر عظيم » .

٤ - ويقول الفلكي المعروف « فلا ماريون » :

« أستطيعُ أن أهيبء أسئلة ولمدة عشر سنوات عن مجهولات » لا تستطيعون الاجابة عليها ^(٣) !

٥ - ويضيف في كلام آخر له :

« نحن نفكر لكن ما هو فكرنا ؟ ونمشي ، لكن ما هو عملنا العضلي هذا ؟ لا أحد يعلم بذلك .

أرى أن ارادتي قدرة غير مادية ، لكنني عندما أريد أن أرفع يدي أرى أن الارادة غير المادية تحرك يدي والتي هي عضو مادي ، كيف يحصل هذا ؟ وما هي الوسطة التي تحول الطاقة غير المادية الى مادية ؟ لا يوجد من يجيب على

(١) « سر خلق الانسان » الصفحة ٨٧ (بالفارسية) .

(٢) « الانسان ذلك المجهول » الصفحة ٥ .

(٣) « على اطلال المذهب المادي » الصفحة ١٣٨ .

هذا السؤال»^(١).

إذا كانت معلوماتنا اتجاه أوضح وأبسط الأمور اليومية هكذا ، فما هو الحال بالنسبة للقضايا المعقدة أو البعيدة عن متناول أيدينا زماناً ومكاناً .

٦- يقول « انشتاين » الرياضي المعروف والمكتشف لنظرية النسبية والبعد الرابع ، في أحد كتبه :

« لقد علمنا كتاب الطبيعة الذي نقرأه الكثير من الأمور وقد عَرَفْنَا أُسُسَ لغة الطبيعة ... لكن رغم قرائتنا للمجلدات وفهمنا لها فإن مازلنا بعيدون عن كشف أسرار الطبيعة »^(٢).

وينبغي هنا اضافة هذه الجملة على الشهادات السابقة :

من العجيب حقاً أن كل اكتشاف جديد يحصل في هذا العالم يزيد من مجهولات الانسان ، وبعبارة اخرى إن اكتشافات العلماء في مختلف المجالات كالاكتشاف مكتبة جديدة ، أو اكتشاف كنز قيم في نقاط مختلفة من الارض .

وبديهي فاننا إذا اطلعنا على وجود مكتبة في إحدى المدن ، أو كنز قيم في خربة فقد أزلنا النقاب عن مجهول واحد ، لكن الآلاف من المجاهيل تكشف عن نفسها آنذاك ، مثل عدد الكتب ومحتواها وكتّابها وشخصياتهم وقضايا اخرى من هذا القبيل ، كذا الحال بالنسبة للكنز فإذا اطلعنا على وجوده تبلورت مجاهيل عنه في أذهاننا مثل نوعيته ومحتواه ...

لا نذهب بعيداً ، فإن عالم الكائنات المجهرية (الميكروبات والبكتريا والفايروسات) كان في يومٍ ما مجهولاً كلياً ، وعندما خطا (باستور) الخطوة الاولى عند كشفه لبعض من هذه الكائنات انجلت امامه عالم كبير من

(١) المصدر السابق .

(٢) خلاصة الفلسفة النسبية .

المجهولات .

إن اكتشاف الكواكب « اورانوس » و « نبتون » و « بلوتون » في المنظومة الشمسية وكذا كشف المجرات الجديدة كلها من قبيل كشف (باستور) لعالم الكائنات المجهرية . ومن هنا يجب الاذعان والاعتراف بأن العلوم البشرية كنور الشمعة وان حقائق هذا العالم العظيم كنور الشمس بل أعظم !

ومن هنا ينبغي القول : ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ . ونختم هذا الحديث بكلام عظيم لمتكلم عظيم ألا وهو الامام أمير المؤمنين عليه السلام ، حيث يقول في خطبة الاشباح :

« واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السُدَدِ المضروبة دون الغيوب ، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله - تعالى - إعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً ، وسمي تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً ، فاقصر على ذلك ولا تُقدّر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين » ^(١) .



تذكير :

إن الالتفات الى كون علم البشر محدود له آثار ونتائج ايجابية ببناء ، نعتها

هنا :

١ - عدم الاغترار العلمي : نعلم أن البشر قد واجه مصائب كثيرة من جراء غروره العلمي ، ومثاله ما ظهر في حدود القرن الثامن عشر الميلادي في اوربا فعندما حصلت طفرة في العلوم الطبيعية آنذاك ، تصور بعض العلماء أن جميع

(١) نهج البلاغة ، الخطبه ٩١ .

الغاز الكون قد حلت وأن أسرارها قد كُشفت ، ولهذا أنكروا كل شيء يكمن وراء معلوماتهم ، بل سخرُوا من جميع الأمور التي لا تدخل في إطار معلوماتهم ، وقد وصل انكارهم الى حدٍ حيث قال بعضهم : لانؤمن بوجود الروح مالم نشاهدها تحت سكاكين الجراحة في غرفة العمليات ، أو بما أن الله لا يدرك بالحس فلا وجود له !

إن هذا النوع من الغرور خلق مشاكل كثيرة . ولأمر الوحيد الذي يمكنه ان يحطم هذا الغرور العلمي هو الالتفات الى ضالة العلوم البشرية بالقياس الى المجهولات ، طبقاً للأدلة التي ذكرت سابقاً .

إن الالتفات الى هذه الحقيقة هو الذي جعل العلماء المتعمقين أن يعترفوا بما قاله أحدهم : « إن علمي وصل الى مستوى حيث أعلم أنني لا أعلم » و « معلوماتي صفر والمجهولات بالقياس لها غير متناهية » .

٢ - الحركة العلمية الأسرع : إن الالتفات الى هذه الحقيقة يسوق الانسان نحو السعي الاكثر والجهاد المرير لحل الغاز عالم الوجود ، خاصة وأنه يرى أن أبواب العلم مفتوحة أمامه ، ولا ييأس من الحصول على علوم اكثر .

ومن الواضح أن الانسان لا يسعى وراء الكمال مالم يشعر بالنقص ، ولا يسعى وراء الدواء مالم يحس بالألم ، ولهذا يقال : إن الاحساس بالألم احدى نعم الله العظيمة ، وان أسوء الأمراض هي تلك التي لا تتزامن مع الألم لانه لا يطلع عليه إلا بعد أن انقض عليه المرض وأهلكه .

إن الالتفات الى ظئالة العلم البشري يخلق عند الانسان رد فعل ايجابي يدفعه نحو التحقيق والتفحص أكثر فأكثر ، وقد يكون هذا الأمر هو أحد أهداف القرآن الكريم عند تأكيده على نقصان العلم البشري .

٣ - الالتفات الى مبدأ أسمى : من الآثار الايجابية التي يتركها الاحساس

بالنقص العلمي على كل فرد هو أن الانسان شاء أم أبى يجد نفسه بحاجة الى مبدأ أعظم تكون عنده جميع أسرار العالم مكشوفة ، وألغازه محلولة ، إن هذه القضية تهيب الأرضية لقبول دعوة الانبياء ، وتفتح امامه سبلاً للعلم وراء سبله البشرية . على أي حال ، إن الالتفات إلى كون علم البشر محدوداً مع غض النظر عن كونه حقيقة ، له آثار تربوية وإيجابية جمة .

مصادر وسُبل المعرفة

(مصادر المعرفة الستة)

□ الحس والتجربة

□ العقل والتحليل المنطقي

□ التاريخ المدون وغير المدون

□ الفطرة والوجدان

□ الوحي والخطاب الالهي

□ الكشف والشهود

٢- مصادر وسُبُل المعرفة

(مصادر المعرفة الستة)

- ❑ الحس والتجربة
- ❑ العقل والتحليل المنطقي
- ❑ التاريخ المدون وغير المدون
- ❑ الفطرة والوجدان
- ❑ الوحي والخطاب الالهي
- ❑ الكشف والشهود

تمهيد :

بعد ما ثبت لنا امكان المعرفة والوصول إليها اجمالاً ، جاء الدور للبحث عن سبلها وبتعبير آخر عن مصادرها ومنابعها التي تمكنا منها ، لأننا بالاستعانة بهذه السُّبل يمكننا تبديل « الواقعيات » الى « حقائق » ، وذلك لأن كلاً من هذه السُّبل معلم وهادٍ يرفع الحجاب عن أسرار العالم ومجهولاته .

وقبل كل شيء ينبغي معرفة رأي القرآن في المسألة ، لان محور دراستنا هذه هو التفسير الموضوعي والتحقيق في تعليمات القرآن .

وقد وصلنا بالتحقيق والتتبع الدقيق في الآيات المختلفة والمتناثرة في القرآن الكريم إلى هذه النتيجة وهي ان طرق المعرفة ومصادرها في القرآن الكريم تتلخص في ستة أمور :

١ - الحس والتجربة (الطبيعة)

٢ - العقل والتحليل المنطقي

٣ - التاريخ المدون وغير المدون

٤ - الفطرة والوحدان

٥ - الوحي والخطاب الألهي

٦ - الكشف والشهود

المصدر الأول:

الحس والتجربة

١ - الحس والتجربة

لنستمع خاشعين في البداية الى الآيات التالية :

١ - ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾

(ق / ٦)

٢ - ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾

(الاعراف / ١٨٥)

٣ - ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ... * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

(الغاشية / ١٧ - ٢٠)

٤ - ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾

(الروم / ٥٠)

٥ - ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾

(الطارق / ٥ - ٦)

٦- ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَيْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴾

(عبس / ٢٤ - ٢٨)

٧- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾

(الشعراء / ٧)

٨- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾

(الم السجدة / ٢٧)

٩- ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(فصلت / ٥٣)

١٠- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾

(الملك / ١٩)

١١- ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

(الذاريات / ٢٠ - ٢١)

١٢- ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(النحل / ٧٨)

إنَّ الآيات الواردة في هذا المجال كثيرة جداً ، وما ذكر هنا نماذج واضحة في مجالات مختلفة ^(١) .



شرح المفردات :

إنَّ كلمة « ملكوت » - على ما يقوله الراغب في مفرداته - مصدر « مَلَك » وقد اضيفت لها التاء ، وتستعمل في الإشارة الى (ملك الله) فقط دون غيره ، بينما جاء في « مجمع البحرين » و « لسان العرب » أن الملكوت يعني « العزة والسلطنة » . ويقول البعض : إنها اشتقت من « مُلْك » على وزن « حُكْم » وتعني « الحكومة والملكية » ، و اضيفت لها التاء والواو للمبالغة .

وكلمة « قضب » على وزن (جَذَب) - وكما جاء في لسان العرب - في الأصل تعني « قطع » بحيث قال بعض المفسرين : إنها تعني الخضروات التي تُحصَد في فصول مختلفة ^(٢) .

وكلمة « حُرْز » تعني الارض الفاقدة للنباتات ، أو الارض التي لا ينبت فيها نبات ، و « جَزَزَ » على وزن (مَرَض) وتعني القَطْع ونقل صاحب « لسان العرب »

(١) يمكن الرجوع الى الآيات التالية : (الاعراف / ١٨٥) ، (يوسف / ١٠٩) ، (الروم / ٩) ، (غافر / ٦) ، (النحل / ٧٩) ، (الشعراء / ٧) ، (الاحقاف / ٣٣) ، (الملك / ١٩) ، (يس / ٧٧) ، (الانعام / ٦) ، (النحل / ٧٨) ، (المؤمنون / ٧٨) ، (ق / ٣٧) ، (الاحقاف / ٢٦) ، (هود / ٢٤) ، (غافر / ٢١) ، (محمد / ١٠) .

(٢) « الميزان » الجزء ٢ الصفحة ٣١٦ ، و « مجمع البحرين » الجزء ١٠ الصفحة ٤٤٠ . كما نُقِلَ عن ابن عباس أن المراد من « القضب » في الآية هو « الرُطْب » الذي يقتطف من النخيل لكن بالنظر الى الآية الاخرى التي اشارت الى نفس الكلمة فان هذا التفسير بعيد . وقال البعض : يحتمل ان يكون المراد منها هو فواكه الشجيرات مثل الخيار والرقي ، او جذور بعض المزروعات مثل الجزر والبطاطس .

عن بعض أئمة اللغة أن الأرض الجزر تطلق على الأرض التي قلع نباتها أو انقطع عنها المطر .

وأما كلمة « افثدة » جمع « فؤاد » وتعني القلب - كما يقول الراغب - إلا أن الفؤاد يطلق على القلب الذي له حالة إنارة وإضاءة ، وهذا أمرٌ ملفت للنظر حيث يعد الله القلب المنور والمنير من مواهبه ، وجدير بالذكر أن صاحب « لسان العرب » ذكر أن أصلها جاء من « فاد » على وزن (وَغَدَ ويعني المشوي ، وعلى هذا تكون كلمة « فؤاد » إشارة إلى العقول التي تتحلّى بالأفكار الناضجة !



جمع الآيات وتفسيرها :

في الآية الأولى يدعو الله الإنسان إلى الالتفات إلى السموات والأرض وجمالهما وكيفية بنيانهما والنظام الذي يتحكم بهما وإحكامهما واتقانها وخلوهما من العيب .

وفي الآية الثانية يدعو الله الناس إلى مشاهدة نظام السموات والأرض والكائنات ، وذلك لإيقاظ القلوب للسير في طريق التوحيد ومعرفة الخالق .
والآية الثالثة تلقي نظرة من السماء إلى الأرض حيث تلفت نظر الإنسان إلى شيئين : أحدهما خلق الأبل مع كل عجائبه (بالخصوص لآناس يعيشون في محل نزول القرآن) .

والآخر تسطيح الأرض بحيث تصلح الحياة عليها ، ويعتبر القرآن المشاهدة في جميع هذه المراحل منبعا مهما للمعرفة .
وفي الآية الرابعة والتي يخاطب الله فيها الرسول ﷺ يلفت نظره إلى

مسألة نزول الغيث وإحياء الأرض بعد موتها ويقول له : « فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها » .

وفي الآية الخامسة يشير الله الى مبدأ خلق الانسان وأنه يجب ان ينظر من أي شيء خُلِقَ ؟ لقد خلق من ذلك الماء الدافق ، ويذكر المشاهدة هنا كوسيلة للمعرفة كذلك .

وفي الآية السادسة يأمر الله الانسان بأن ينظر الى طعامه كيف نبت ونضج بواسطة نزول المطر وشق الأرض وخروج النبتة من التربة ونضوج الحبوب والفواكه والخضروات ، فاذا نظرنا إليها يمكن ان نستنبط كتاباً بحيث إذا دقت في كل ورقة منه لوجدتها كتاباً وسفراً يحكي لك عن معرفة الله .



والآيات الست السابقة تدعو الى « النظر » بينما الآيات الخمس التي بعدها تدعو الى « الرؤية » بالرغم من أن كلاهما يستعملان بمعنى واحد ، إلا أنه - كما يستفاد من قواميس اللغة المعروفة - يطلق « النظر » على حركة العين والتطفل والدقة في مشاهدة شيء ، بينما تطلق « الرؤية » على نفس المشاهدة^(١) ، بالطبع ان كلا المفردتين تستعملان بمعنى المشاهدة الحسية تارة وبمعنى المشاهدة الذهنية والفكرية تارة اخرى ، إلا أنه ينبغي الالتفات الى أن المعنى الاولی لهما هو المشاهدة الحسية .

وعلى أي حال ، فان الآية السابعة تدعوالمشركين لمشاهدة مختلف النباتات التي تنبت أزواجاً أزواجاً في أرجاء المعمورة .

(١) يراجع مفردات الراغب ولسان العرب مادة « نظر » .

والآية الثامنة تدعو المشركين كذلك الى رؤية مياه البحار وحركتها في اطار الغيوم وهطولها منها على الأرض اليابسة وخروج الزرع الذي يستفيدون منه هم وأنعامهم .

وقد أشارت الآية التاسعة الى جميع آيات « الآفاق » و « الأنفس » ، أي في هذا العالم العظيم وفي العالم الصغير وهو وجود الانسان ، وقالت : نحن نريكم آيات الآفاق والأنفس كي يتبين لكم الحق ويتضح .

والآية العاشرة دعت الى مشاهدة الطيور وكيفية طيرانها في السماء ، فتارة صافات اجنحتها وتارة اخرى قابضات اجنحتها ، وهذا الأمر هو الذي يجعلها تطير في السماء خلافاً لجاذبية الأرض ، كما أن طيرانها بسرعة تارة بصف الاجنحة واخرى بقبضها ، وكأن هناك قدرة غامضة تدفعها الى الأمام ، ولكل من الطيور شكلها الخاص بها والوسائل الضرورية لحياتها .

والآية الحادية عشرة لفتت الأنظار الى مسألة خلق الأرض ومن ثم خلق الانسان الذي يعتبر عالماً عظيماً ومليئاً بالضجيج رغم صغر حجمه ، وتوبخ الذين لا يبصرون رغم انهم قادرون عليه بخطاب « أفلا يبصرون » .

(ينبغي الالتفات الى أن « البصيرة » جاءت من مادة « بصر » الذي يعني « العين » أو « بصر العين » ، ورغم استعمالها بمعنى « النظر » و « الرؤية » إلا أنها تختلف عنهما بالتأكيد على عضو البصر وقوته . لكنها كالمفردتين السابقتين قد تستعمل بمعنى المشاهدة الباطنية والفكر » .

وأخيراً ، فإن الآية الثانية عشرة تؤكد على الأعضاء الثلاثة أي الأذن والعين والقلب وسائل أساسية للمعرفة وهذا دليل واضح على اعتبار المشاهدة والحس وسائل أساسية للمعرفة .

النتيجة :

إن الآيات السابقة والتي غالباً ما تحدثت عن قضية التوحيد ومعرفة الله ، أمرت الناس بسلوك طريق المعرفة والتوحيد وأن يفتحوا أعينهم جيداً ، ويروا اسم « الله » على جبين كل موجود في هذا العالم ، ويشاهدوا الأنظمة الدقيقة التي تتحكم بالعالم ، ومن ثم يصلوا - بواسطة برهان النظم - لا الى معرفة ذات الله فحسب ، بل صفاته وتوحيده وتدبيره وقدرته وعلمه اللامتناهي وبالنظر الى أن أهم مسألة في الاسلام هي مسألة التوحيد ومعرفة الله ، وأن أهم دليل في القرآن عليها هو برهان النظم ، وأهم منبع لبرهان النظم هو الطبيعة والمخلوقات فمن هنا تتضح أهمية الحس والمشاهدة والتجربة من وجهة نظر القرآن الكريم .

وقد استعان القرآن كثيراً بـ « المشاهدة الحسية » ليس في مسألة التوحيد فحسب بل في مسألة المعاد أي ثاني أهم مسألة في الاسلام أيضاً ، وقد صوّر لنا لقطات من المعاد بالاستعانة بنفس الطبيعة المشهودة لنا ، كما جاء ذلك في سورة (ق) حيث يقول تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * ... وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ : اي في يوم القيامة (ق / ٩ - ١١) .

كما - وأنه للكشف عن عاقبة الظلم والجور وأهلهم - دعا الله الناس لمشاهدة ما خلف هؤلاء من آثار ومشاهدة مدنهم الخربة .
هذا كله تأكيد من القرآن على ضرورة الاستعانة بـ « الحس والمشاهدة » كمصدر للمعرفة (دققوا) .

ايضاحات :

الفلاسفة ومصدر الحس :

هناك اختلاف كبير في وجهات نظر الفلاسفة فيما يخص قضية اطلعنا على العالم الذي يحيط بنا وما هي المراحل التي نطويها للوصول الى هذه المعرفة ؟ ومن أي مصدر تصل إلى أذهاننا ؟ إن أكثر الفلاسفة عدّوا الحس أحد مصادر المعرفة رغم ظهور قطبين على طرفي الافراط والتفريط في هذا المجال .

١ - « الحسيون » حيث يعتبرون الحس الطريق الوحيد للمعرفة وينكرون المصادر الاخرى كالعقل .

« إن هؤلاء الذين ظهروا في القرن السابع عشر أنكروا قيمة البرهان القياسي العقلي ، واعتبروا اسلوب التجربة الاسلوب الوحيد والسليم والمعتمد عليه في هذا المجال ، وتعتقد هذه المجموعة بعدم أصالة وتجذر الفلسفة النظرية العقلية المستقلة عن العلوم التجريبية ، و يعدون العلم ثمرة الحواس فقط ، والحواس لاتتعلق إلا بظاهر وعوارض الطبيعة ، إذن لا اعتبار للمسائل الفلسفية الأولية ، وذلك لأنها نظرية وعقلية بحتة وتتعلق بالامور غير المحسوسة ، ولا يدرك الانسان هذه المسائل نفيّاً او اثباتاً »^(١) .

إن الماديين ومن ضمنهم أتباع المذهب « الديالكتيكي » من المتحمسين لهذه النظرية ، فهم يقولون :

« إذا انقطعت جميع قنوات التأثير الخارجي عن حسنا ، فهذا يعني انا سوف لا نعرف شيئاً ، وسيعجز الذهن عن جميع نشاطاته ، وتبقى معرفة الواقعيات أمراً محالاً ، وعلى هذا فالحس منشأ المعرفة ومبنى أحكامنا اتجاه أي

(١) اصول الفلسفة واسلوب الواقعية للشيخ المطهري ، الجزء ١ الصفحة ٦ (مع تلخيص قليل) .

مسألة ، فينبغي القول أن الحس منبع المعرفة بل منبعها الوحيد ^(١) .

٢ - المجموعة الاخرى هي التي تقع في الطرف المقابل للمجموعة الاولى تماماً وهي التي لا تولي أي أهمية للحس في مجال المعرفة .
يقول « دكارت » : « لا نستطيع الوثوق بالمفاهيم التي وصلتنا من الخارج بواسطة الحواس الخمسة بأن لها مصداقاً خارجياً أم لا ، وإذا كان مصداق فلا يقين لنا بتطابقه مع الواقع » ^(٢) .

« مسار الحكمة في اوربا : يعتقد « دكارت » ان محسوسات الانسان لا تتطابق مع الواقع ، وان الحس هو وسيلة ارتباط بين جسم الانسان والخارج ، ويرسم لنا صورة كاذبة عن العالم ، فهو يعتقد أن المفاهيم النظرية هي أساس العلم الواقعي ^(٣) .

والخلاصة : ان هذه المجموعة تعتقد أن المعقولات فقط لها قيمة علمية يقينية ، اما المحسوسات فلها قيمة علمية غير يقينية ^(٤) .

إن المجموعة الاولى تستند على أخطاء العقل النظري والاختلاف الفاحش بين العلماء في المسائل العقلية ، بينما تستند المجموعة الثانية على أخطاء الحواس ، حيث يذكرون أعداداً لا تحصى من أخطاء حاسة البصر التي تعتبر أهم وأوسع حس للانسان .

لكن مما لاشك فيه أن كلتا المجموعتين خاطئتان ، ونوضح ما ندعيه بصورة مضغوطة ونقل :
بصورة مضغوطة ونقل :

(١) المادية الديالكتيكية « نيك آئس » ، الصفحة ٣٠٢ (ملخص) - بالفارسية -

(٢) « مسار الحكمة في اوربا » الجزء ١ الصفحة ١٧٢ (مع تلخيص) - بالفارسية - .

(٣) « مسار الحكمة في اوربا » الجزء ١ الصفحة ١٧٢ (مع تلخيص) - بالفارسية - .

(٤) اصول الفلسفة ، المقالة الرابعة (قيمة المعلومات) .

بالنسبة للحسين يمكن حصر أهم اشكالاتهم في النقاط التالية .

١- إنَّ كلَّ انسان عند مشاهدته للموجودات الخارجية يواجه مجموعة من الحوادث والقضايا الجزئية غير صالحة للاستدلال ، لأن كل استدلال يجب أن يستند الى قضية كلية .

ومن هنا تبدأ وظيفة العقل ، حيث يقوم بصياغة قضايا كلية من هذه الجزئيات ، فمثلاً نلاحظ أن قطعة الحجر تكسر الزجاج العادي في ظروف مختلفة ، فهذه الحوادث الجزئية الحاصلة بالحس تنتقل الى العقل ، فيصوغ العقل قاعده كلية اتجاء هذه المسألة ، وكذلك الأمر بالنسبة للتجربة في الظروف والازمنة والأمكنة المختلفة التي تكشف عن أن الضوء ينتشر بصورة خط مستقيم ، فالعقل يصوغ قاعدة كليّة من هذه الحوادث الجزئية لا وجود لها في الخارج والموجود في الخارج هو مصاديقها لا ذاتها .

وعليه فالادراكات الحسية كالمواد الخام التي قد « تتحلل » وقد تتركب في مختبر العقل ، ومن هاتين العمليتين نحصل على المفاهيم الكلية التي يستفاد منها في المنطق والاستدلال .

٢- مما لا شك فيه انه ينبغي الاستعانة بالعقل لاصلاح الأخطاء الناشئة من خطأ الحواس ، فعندما نقول :

إن بصرنا أخطأ اتجاه الاشجار التي نراها متقاطعة من بعيد ، فان معيارنا في التخطئة هذه هو العقل .

صحيح أن تمييزنا لهذا الخطأ يستند الى الحس أيضاً حيث إننا ندرك خطأ بصرنا من بعيد لأننا طوينا الشارع من اوله الى آخره عدة مرات وشاهدنا الأشجار في طول الشارع متوازية ولم تلتق في مكانٍ ، لكن هذا الاستدلال الذي يستند الى الحس يقوى عندما يكون اجتماع النقيضين محالاً ، ويقول بامتناع أن تكون

الاشجار متوازية ثم تلتقي في نقطة واحدة ، فاستدلنا بهذا الشكل يثبت لنا خطأ ما نشاهده من بعيد .

في الحقيقة أن قضية امتناع اجتماع النقيضين التي تدرك بالعقل تشكل حجر الأساس لجميع الاستدلالات ، وعليه فلا يؤخذ بالدليل الحسي دون الاستناد عليها .

٣ - فضلاً عما سبق ، فإن ماندركه بالحس هو ظاهر الأشياء ، وما نرى من الجسم بالحس إلا سطحه لاشيء آخر . وعليه فما لم تتدخل الادراكات العقلية لانستطيع معرفة حقيقة الجسم .

قد يقال : صحيح أن الحواس لا فاعلية لها لوحدتها بل يجب الاستعانة بالادراكات العقلية حتى في العلوم التجريبية ، لكن ينبغي الاذعان الى هذه الحقيقة - وهي ان جميع الادراكات العقلية حصلت بواسطة الحواس وكما يقول « جان لاك » الفيلسوف الانجليزي المعروف : « لاشيء في العقل لم يوجد قبله في الحس » .

إن هذه الجملة التي أصبحت مثلاً وبقيت ذكرى منه تدل على أن الذهن كان كاللوحة البيضاء في البداية وقد ينقش عليها بعد ذلك بواسطة الحواس ، وأن لا وظيفة للعقل غير « التجريد » و « التعميم » أو « التحليل » و « التركيب » لمدركات الحواس .

لكن هذا خطأ فظيع ، وذلك لأن علمنا بأنفسنا (الذي هو علم حضوري) لم يحصل بواسطة الحواس ، كذلك علمنا بوجود الحواس ، أو علمنا باستحالة اجتماع النقيضين لم يحصل عن طريق الحواس ، فنحن ندرك محالة أن نكون موجودين ومعدومين في آن واحد وإن لم نملك حواساً ، كذا الأمر بالنسبة لقضايا أخرى لا حاجة فيها الى الحواس .

وتوجد أبحاث كثيرة في هذا المجال لو أسهنا فيها لابتعدنا عن هدف هذا الكتاب ، وَتَطَرَّقْنَا لبعضها هنا كان بهدف توضيح نظرية « الحسيين » و « العقليين » الذين يحصروا سبل المعرفة في بُعد واحد ، وأن نظريتهما سقيمتان وأن كلاً من « الحس » و « العقل » يشكلان منبعاً و مصدراً للادراك ، كما إنعكس ذلك في القرآن المجيد .



المصدر الثاني:

العقل

٢- العقل

تمهيد :

تُشاهد في القرآن الكريم تعابير كثيرة استعملت للإشارة إلى هذا المصدر كما يشاهد الكثير من الآيات التي تدعو الناس إلى المعرفة بالاستعانة بـ «التفكير».

ونذكر هنا بعض تلك التعابير التي استعملت للإشارة إلى هذا المصدر المهم للمعرفة .

١- العقل .

٢- اللب (وجمعه ألباب) .

٣- الفؤاد .

٤- القلب .

٥- النُّهى .

٦- الصدر .

٧- الروح .

٨- النفس

كما ان هناك تعابير استعملت في القرآن لبيان مهمة العقل مثل :

٩ - الذكر .

١٠ - الفكر .

١١ - الفقه .

١٢ - الشعور .

١٣ - البصيرة .

١٤ - الدراية .

والآن نبحت كلاً من العناوين السابقة في ضمن بحثنا عن الآيات التي وردت فيها تلك التعابير ^(١) .

لنستمع خاشعين أولاً الى الآيات التالية :

١ - ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ^{لنستعمل في العدد}

(البقرة / ٢٤٢)

٢ - ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ^{لنستعمل في العدد}

(آل عمران / ١٩٠)

٣ - ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُم

(١) إضافة الى العناوين والتعابير السابقة التي اشير إليها ، هناك تعابير استعملت في القرآن وأريد بها مراحل الادراك مثل : الظن والزعم والحسبان والتيقن وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، والتي تبدأ بمرحلة هشّة ومتزلزلة من الادراك وتنتهي باليقين الذي هو أعلى مراحل الادراك ولا يتصور درجة ومرحلة أعلى منه .

السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿

(النحل / ٧٨)

٤ - ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي
الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى
السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿

(ق / ٣٦ - ٣٧)

٥ - ﴿ كُلُّوا وَارْزَعُوا أَنْعَامُكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿

(طه / ٥٤)

٦ - ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ
بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿

(طه / ٤٩)

٧ - ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿

(الحجر / ٢٩ و ص / ٧٢)

٨ - ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿

(الشمس / ٧ - ٨)

٩ - ﴿ وَيَبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿

(البقرة / ٢٢١)

١٠ - ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿

(الانعام / ٥٠)

١١ - ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ لَهُمِ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿

(الانعام / ٦٥)

١٢ - ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ

﴿لَا تَشْعُرُونَ﴾

(البقرة / ١٤٥)

١٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ

مُبْصِرُونَ﴾

(الاعراف / ٢٠١)

١٤- ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ

أَرْضٍ تَمُوتُ﴾

(لقمان / ٣٤)

شرح المفردات :

أصل «العقل» كما جاء في لسان العرب ومفردات الراغب - من العقال أي الحبل الذي يُشدُّ به ساق البعير لمنعه من الحركة وبما أن العقل يردُّع الإنسان عن القيام بالأعمال الشينة اطلقت هذه المفردة عليه .

وقد ذكر صاحب الصحاح أنها تعني « الحُجْر » و « المنع » بينما قال البعض كصاحب القاموس : إنها تعني « العلم بصفات الأشياء كالحسن والقبح والكمال والنتقصان » ، اما صاحب مجمع البحرين فقد فسر العاقل بانه : « الذي يستطيع أن يسيطر على نفسه ويتغلب على أهوائه وميوله » .

ويظهر أن معناه الاول هو الصد والمنع ولهذا يقال لمن امتنع لسانه عن النطق « اعتقل لسانه » كما يقال « للدية » « عقل » لأنها تحول دون إهراق دماء أكثر ، ويقال للمرأة العفيفة والمتحجبة والطاهرة « عقيلة » .

يقول « الخليل بن أحمد » في كتابه « العين » : إن العقل يطلق على القلعة والحصن أيضاً .

كما نلاحظ هنا فان مفهوم الحجر والمنع متضمن لجميع هذه المعاني ،
وعليه فاصلة يعني المنع .

أما كلمة « اللب » وجمعها « الالباب » - كما يقول كثير من أهل اللغة - يعني
الخالص والصفوة من كل شيء ، ولهذا يطلق على المرحلة الرفيعة من العقل
« اللب » ، فان كل لب عقل لكن ليس كل عقل لباً ، لأن اللب هو العقل في مراحل
الرفيعة والخالصة ، ولهذا السبب نُسِبَتْ أمور في القرآن الكريم الى « أولي
الألباب » لاتدرك إلا بالمراحل الرفيعة من العقل ، كما يطلق اللب على باطن كثير
من الفواكه لأنه خالص من القشر^(١) .

وإن كلمة « الفؤاد » - كما أشرنا سابقاً - من مادة « فؤد » على وزن (وَغَد)
وفي الأصل معناه وضع الخبز على الرماد أو الحصى الحارة ، كي يُخبز جيداً ، كما
يطلق على طبخ وشوي اللحم^(٢)

وعلى هذا فالعقل عندما ينضج يطلق عليه « فؤاد » وجمع « أفئدة » .
ويضيف الراغب في مفرداته : إن « الفؤاد » يعني القلب مع زيادة وهي
الأنارة واللمعان .

إن « القلب » - كما جاء في القاموس والمفردات والعين ولسان العرب - في
الأصل يعني تغير الشيء وتحوله ، وغالباً ما يستعمل بمعنيين ، فتارة يطلق على
العضو الذي يتكفل بضخ الدم الى جميع أعضاء البدن ، وتارة أخرى يستعمل
ويراد به الروح والعقل والعلم والفهم والشعور ، وجاء هذا الإطلاق من حيث ان
القلب الجسماني والقلب الروحي في حركة وتغير مستمرين ، وكما يقول بعض
أهل اللغة :

(١) لسان العرب والمفردات ومجمع البحرين .

(٢) لسان العرب وتاج العروس ومفردات الراغب

ما سمي القلب إلا من تقلبه والرأي يصرف بالانسان واطوارا!
 كما أنَّ كلمة « القلب » تطلق على مركز كل شيء مثل : قلب العسكر ، لأن
 القلب مركز جسم وروح الانسان ، وقد جاء في القاموس أن خالص كل شيء يقال
 له « قلب » .

وكلمة « النهي » تعني « العقل » ومن مادة « نهي » على وزن (سَعْي) ويعني
 المنع من شيء مأخوذ ، وقد صرح كثير من أئمة اللغة (كصاحب المفردات
 ومجمع البحرين ولسان العرب وشرح القاموس) أن هذه التسمية جاءت من
 حيث أن العقل ينهى عن الأعمال المشينة .

و « الصدر » في الأصل يعني القسم الأمامي الذي تحت الرأس (في
 الجسم) ومن ثم اطلق على القسم الأعلى والمقدم لأي شيء ، مثل صدر
 المجلس اي أعلاه ، وصدر الكلام أي بدايته ، وصدر النهار أي أوله (كما جاء
 ذلك في المفردات ولسان العرب) .

إلا أنه قد يستفاد من بعض الكلمات معنى المقدمة والبداية لكل شيء ،
 وعلى كل حال ، بما أن العقل عضو مهم ويقع في الجزء الاعلى من البدن أطلق
 عليه صدر ، خاصة وأن القلب الجسماني يقع في وسط الصدر (العضو المعروف
 من البدن) ، وسنذكر فيما بعد أن هناك علاقة وثيقة بين انقلاب القلب العضوي
 والانقلابات العقلية .

أما كلمة « الروح » في الأصل تعني التنفس ، وبما أن هناك علاقة وثيقة بين
 التنفس وبقاء الحياة ، استعملت بمعنى النفس ومركز العقل وفهم الانسان .
 وقد صرح البعض أن كلمتي « الروح » و « الريح » اشتقتا من أصل واحد ،
 وإذا سميت الروح - التي هي وجود مجرد ومستقل - روحاً فذلك من حيث أن
 الروح كالريح توجد الحيوية والحركة من دون أن تُرى .

وَكَلِمَة « النفس » - وكما يقول الراغب وصاحب القاموس ولسان العرب وكتاب العين - تعني الروح التي هي مركز ادراكات الانسان ، إلا أن القرآن الكريم ذكر مراحل النفس : « فالنفس الامارة » هي النفس التي تأمر الانسان بالمعاصي وترغبه بها ، و « النفس اللوامة » وهي التي تندم على المعاصي التي ارتكبها الانسان وتوبخه عليها ، و « النفس المطمئنة » وهي التي تتحكم بجميع الشهوات والميول وقد وصلت الى مرحلة الاطمئنان .

من مجموع ما سبق ، يتبين لنا أن القرآن المجيد استعمل مفردات كثيرة للإشارة الى العقل ، وكل من هذه المفردات تشير الى جانب من جوانب هذا الوجود النفساني ، وبتعبير آخر فإن كلاً منها يتعلق ببعد من أبعاد العقل .
وبما أن هذه القدرة الغامضة تردع الانسان عن الأعمال المشينة وتمنعه عنها قيل لها عقل ونهى .

وبما أنه في حال انقلاب وتحول دائم قيل له « قلب » ، وبما أنه في القسم الأعلى من بدن الانسان قيل له « الصدر » .

وبما أن هناك علاقة وثيقة بينه وبين الحياة قيل له « روح » و « نفس » ، وعندما يصل الى مرحلة الاخلاص ويصفو من الشوائب يقال له « لب » ، واخيراً عندما تنضج أفكاره يطلق عليه « فؤاد » .

نستنتج من هذا البيان أن استعمال هذه المفردات المتنوعة في القرآن لم يكن اعتباطاً بل كان منسقاً ومتماشياً مع الموضوع الذي في الآية ، وهذا من عجائب القرآن التي يدركها الانسان عند تتبعه لآيات القرآن وتفسيره لها موضوعياً .

أفعال العقل :

إنَّ « الذكر » النقطة المقابلة للنسيان ، وكما يقول الراغب : انه حالة في الانسان تمكنه من حفظ ما أدرك واستحضاره في الذهن عند الحاجة ، وهذا المعنى قد يتم بالقلب وقد يحصل باللسان .

وإن « الفكر » يعني فعالية العقل ، وعلى ما يقوله الراغب : إنه قوة تسوق العلم الى المعلومات ، ويعتقد بعض الفلاسفة : أن حقيقة الفكر تتركب من حركتين : حركة نحو المقدمات ، ثم حركة من المقدمات الى النتيجة ، ومجموع هاتين الحركتين اللتين تؤديان الى العلم والمعرفة يقال له « الفكر » .

إنَّ « الفقه » يعني « الفهم » بصورة عامة - كما جاء ذلك في لسان العرب - إلا أن الراغب في مفرداته يقول : انه بمعنى الاطلاع على أمر خفي بالاستعانة بأمر ظاهر وجلي ، وعليه فالفقه علم يحصل بالأدلة (بالطبع إن الفقه المصطلح فعلياً هو علم الأحكام الاسلامية) .

أمّا « الشعور » فيعني العلم والمعرفة - كما يقوله بعض من أئمة اللغة كصاحب القاموس ولسان العرب ومقاييس اللغة وغيرهم - إلا أن الراغب قال في مفرداته : يعني « الاحساس » . واذا كان المقصود هو الاحساس الباطني فلا اختلاف مهم بين ما قاله الراغب وما قاله الآخرون في شرح معنى الشعور ، وقد جاء الشعور في كثير من آيات القرآن وأريد به (العلم) ، إلا انه استعمل في موضع آخر وقصد به الاحساس الخارجي .

إنَّ كلمة « البصيرة » اشتقت من البصر ، وقد جاءت - كما يقول الراغب - بثلاثة معانٍ : بمعنى العين ، وبمعنى قوة العين ، وبمعنى قوة الإدراك والعلم . وقد قال البعض : إن معناها في الأصل هو العلم سواء حصل بالمشاهدة

للحسّية أو بالعقل^(١).

وتستعمل مفردة « البصيرة » بالخصوص في « الادراك القلبي و العلم » ،
ولهذا جاء في لسان العرب انها تعني الاعتقاد القلبي ، وقد فسرّها البعض بالذكاء
الذهني .

وقد استعملت بهذا المعنى الأخير في القرآن الكريم حيث يقول : ﴿ قُلْ
هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (يوسف / ١٠٨) .
وكلمة « الدراية » تعني العلم والخبرة بصورة عامة ، أو العلم والخبرة في
الامور الخفية والمستترة ، كما قد جاءت بمعنى « الكياسة » ، كما يستفاد من
مقاييس اللغة انها في الاصل تعني الالتفات الى شيء ثم استعملت وأريد منها
الخبرة بشيء ، وقد استعملت في القرآن الكريم مراراً وقصد بها مفهوم « العلم » ،
ويستخلص من هذا القسم من بحثنا ان الألفاظ التي استعملت للتعبير عن العقل
وأريد منها مفهوم العلم والادراك ألفاظ متنوعة ، وكلٌ منها تُعبّر عن بُعد وجانب
من أبعاد وجوانب العقل ، وقد استعملت كلّ في موردها !

فعند البحث عن الخبرة مع الدقة استعملت « الدراية » ، وعند البحث عن
التحليل والعقلي استعمل « الفكر » ، وعند البحث عن أمرٍ خفي ومعرفته
بالاستعانة بأمرٍ محسوس استعمل « الفقه » ، وعند البحث عن الخبرة المقترنة
بالحفظ والحضور بالبال استعمل « الذكر » ، وعلى هذا السياق تستعمل كل مفردة
في محلها وكل لفظ في مقامه .

وينبغي الالتفات هنا الى هذه النقطة وهي أن التعبيرات التي استعملت في

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم مادة « بصر » .

() وقد جاءت في آيات اخرى وأريد منها نفس المعنى كما في الآيات : (١٤ من سورة القيامة) ،
و (١٠٤ من سورة الانعام) ، (و ٢٠٣ من سورة الأعراف) ، (و ١٠٢ من سورة الاسراء) .

القرآن لبيان مهام العقل لها مراحل ورتب ، تبدأ بـ «الشعور» ويراد منه الإدراك البسيط ، ثم مرحلة « الفقه » والذي يعني إدراك المسائل الخفية من المسائل الجلية ، وبعدها تأتي مرحلة «الفكر» ويُراد منه التحليل العقلي ، ثم تأتي مرحلة «الذكر» أي الحفظ في الذهن والحضور في البال ، ثم مرحلة «النهي» التي تعني الإدراك العميق لحقائق الأمور ، وتنتهي هذه المراحل بمرحلة «البصيرة» التي تعني النظر الذهني العميق .

وهذا هو معنى البلاغة والفصاحة !

جمع الآيات وتفسيرها :

قيمة العقل في مقياس القرآن :

إنَّ أول آية تناولناها بالبحث هنا تؤكد على أن العقل والتفكير هما هدف الخلق ، وتكشف عن هذه الحقيقة بالتعبير بـ (لعل) التي تفيد بيان الهدف في موارد كهذا المورد .

وقد اكدت بعض الآيات هذا الموضوع ووبخت الناس على عدم تفكيرهم وتعقلهم وأخذتهم بعبارة كهذه : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ^(١) .

وقد تكرر هذا المضمون بصيغة جملة شرطية ، حيث يقول تعالى : ﴿ قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ ^(٢) .

إن هذه التعبيرات المختلفة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ تكشف بوضوح عن هذه الحقيقة وهي : إنَّ الله وهب الإنسان العقل كي

(١) (آل عمران : ٦٥) ، (الانعام : ٣٢) ، (الاعراف : ١٦٩) ، (يونس : ٦١) ، (هود : ٥١) ،

(يوسف : ١٠٩) ، (الانبياء : ١٠ و ٦٧) ، (المؤمنون : ٨٠) ، (القصص : ١٠) ، (الصافات : ١٣٨) .

(٢) (آل عمران : ١١٨) .

يستعين بقدرته على أدراك الحقائق وفهمها ، ويستحق اللوم والتوبيخ إذا ترك الانتفاع بهذه القدرة .

والآية الثانية ومن خلال اشارتها الى الله في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار صرحت : ان ادراك هذه الآيات أمر يسير لأولي اللالباب . وكما أشرنا سابقاً ، فان (أولي الألباب) هم العلماء الذين خلصت عقولهم من جميع ترسبات الأوهام ، فهم يدركون وقائع نظام الخلق ، ويرون جمال الخالق من خلال المخلوقات ، وهذا يكشف عن أهمية العقل كطريق لمعرفة الحق لله جلاً وعلاً .



والآية الثالثة ، بعد أن أشارت الى خروج الانسان من بطن امه لا يعلم شيئاً ، شرحت وسائل المعرفة ، فبدأت بقوة «السمع» الذي تُعرف علومه بـ « العلوم النقلية » ، من خلال الاصغاء الى أقوال الآخرين ، ثم ذكرت «البصر» الذي يميّز به الأشياء بعد مشاهدتها ثم ختمت بـ «الفؤاد» الذي تدرك به الحقائق غير المحسوسة ، وقد قلنا سابقاً : إنّ الفؤاد هو العقل عند نضوجه ، فهو أعلى درجة من العقل .



والآية الرابعة بعد إشارتها الى الأقوام المقتدرة التي بادت ، وقد أهلكوا بطغيانهم وفسادهم ، ولم يجدوا مناصاً للقرار قالت : (إنّ في ذلك) في سيادتهم ثم إبادتهم (لذكرى لمن كان له قلب (أي عقل) أولقى السمع (أي بصغي للنصائح) ! .

والآية الخامسة بعد الإشارة الى إحياء الارض وانبات الزرع فيها الذي يغذي الانسان ودوابه ، صرحت : إن هذه الامور ايات يدركها أصحاب النهى .
وكنا قد أشرنا الى أنَّ النهى هو العقل بما هو ناهٍ عن فعل الأفعال القبيحة .

والآية السادسة بعد اشارتها الى الآيات العظيمة والبيّنة للقرآن ، قالت : إن هذه الآيات في صدور (قلوب) الذين أوتوا العلم ، وكما بيّنا من قبل فإنَّ الصدر يعني الجزء المقدم والأعلى من كل شيء ، وهذا يبيّن أن العقل الذي يعتبر من المصادر المهمة للمعرفة ، يشكل أشرف جزء في الانسان .

والآية السابعة بعد التلميح الى قضية خلق آدم ﷺ خاطبت الملائكة قائلة :
﴿ فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ .

وهذه (الروح الالهية) هي (جوهر العقل) ، وقد اضيفت الى الله لأهميتها (ويقال لهذه الاضافة اضافة تشريفية) لأن الله لا روح له ولا جسم ، ولأجل هذه الروح الالهية سجد جميع الملائكة المقربين لآدم ﷺ ، وإلا فالطين والتراب لا قيمة لهما ، وهذا تأكيد شديد على أهمية وقيمة العقل .

والآية الثامنة تشير الى خلق (النفس) أي الروح والعقل ، وتُقسم بخالق النفس ، ثم تضيف أن الله ألهم وكشف للنفس طريقيّ الفجور والتقوى بعد أن أوضح لها هذين الطريقين ، وهذا تلميح جميل الى الادراكات الفطرية التي جُبلَ

عليها الانسان منذ أن بدأ حياته .

كان هذا مجموع العناوين والمفردات الثمانية التي استعملت في القرآن وأريد بها الإشارة في كل مفردة منها الى جانب وبُعد من جوانب وأبعاد جوهر العقل ، وقد وضحت هذه العناوين الثمانية الأبعاد المختلفة لهذا المصدر المهم للمعرفة .

إنَّ ما ذكر سلفاً كان بحثاً في جوهر العقل ، أما بالنسبة لنشاط ووظيفة العقل ، فهناك تعابير عديدة في القرآن كانت قد اختصت بهذا الموضوع وكلَّ منها تبين جانباً من جوانب وأبعاد نشاط العقل ، وهي كالتالي :

الآية التاسعة بحثت التذكر واعتبرته الهدف من بيان آيات الله ، والتذكر هو الحفظ والخطور في الذهن وهو أحد أهم وظائف العقل ، وإذا لم يكن التذكر حاصلًا عند الانسان ما استفاد الانسان من علومه شيئاً .

وفي هذا المجال نرى تعبيرات مختلفة في القرآن ، فقد يذكر الموضوع بالاستعانة بالأداة (لعل) التي تفيد بيان الهدف في موارد كهذا المورد ، وتارة اخرى يعبر عن الموضوع بأسلوب التوبيخ واللوم مثل ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾^(١)

وقد يبين الموضوع بأسلوب التوبيخ لأولئك الذين لا ينتفعون بالعقل والفكر ، فلا يحفظون الحقائق ولا يتذكرونها ، كما هو الأمر في : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾^(٢) .

(١) كما في سورة (الانعام : ٨٠) ، (هود : ٢٤) ، (النحل : ٩٠) ، (المؤمنون : ٨٥) ، (الصافات : ١٥٥) .

(٢) النحل : ٩٢ .

وقد تحدثت الآية العاشرة عن (التفكير) بعد استفهام استنكاري : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ ﴾ ؟ وقالت لائمة : (أفلا تتفكرون) ، وكما أشرنا سابقاً الى أنَّ الفكر يعني تحليل وتجزئة المسائل للوصول الى أعماقها ، وهو سبيل الفهم للأكثر والأفضل .

وقد تنوعت تعبيرات القرآن في هذا المجال ، فتارةً يكون الاسلوب هكذا ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة / ٢١٩) ، وتارة يكون : ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس / ٢٤) ، (والرعد / ٣١) ، (والنحل / ١١) ، وتارة اخرى يكون : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ (الروم / ٨) .

وتحدثت الآية الحادية عشرة عن « الفقه » الذي يعني الفهم العميق ، حيث قالت : « انظرو كيف نصرّف الآيات » بأنواع من البيانات ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ فقهاً عميقاً .

وقد جاءت العبارة هنا بصيغة : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ ، كما قد جاءت في مكان آخر بصيغة : ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (الانعام / ٩٨) ، وفي آية أخرى باسلوب : ﴿ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة / ٨١) ، وفي أخرى : ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الفتح / ١٥) وكلها تبين الأهمية القصوى للفهم والادراك العقلي .
وكما قلنا سابقاً ، فان كلمة « الفقه » تعني إدراك الامور الخفية بالاستعانة بمشاهدة الامور الجلية . وهذا الادراك هو أحد أبعاد الادراك العقلي .

وتحدثت الآية الثانية عشرة عن « الشعور » ، فبعد أن نهت المؤمنين عن نعت الشهداء بالأموات قالت : إنهم أحياء ولكن لا يشعرون أي لا تدركون .
وقد يراد بالشعور هنا معنى الاحساس الظاهري ، أو الاحساس الباطني ، وقد استعمل بكلا المعنيين في القرآن المجيد .
وقد ذمَّ القرآن في موارد مختلفة . اولئك الذين لا يشعرون ولا يستخدمون شعورهم^(١) .



وقد تحدثت الآية الثالثة عشرة عن « البصيرة » بعد ما أشارت الى المتقين ، حيث قالت : إِنَّ الْمُتَّقِينَ إِذَا مَا ابْتَلاُوا بِوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا اللَّهَ وَأَبْصَرُوا وَادْرَكُوا الْحَقِيقَةَ فَنَجَوْا مِنْ شَبَاكِ الشَّيَاطِينِ .
إن « البصيرة » و « الابصار » هو الرؤية وقد تتم الرؤية بواسطة العين الظاهرة فيكون بصراً حسيّاً ، وقد تتم بواسطة العين الباطنية أي العقل فذلك الادراك العقلي ، والمراد من البصر في هذه الآية هو المعنى الثاني .
وقد يكون الانسان على نفسه بصيراً : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ (القيامة / ١٤) وقد يكون الرسول وأتباعه بصيرين على ما يدعون إليه : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (يوسف / ١٠٨) .
وقد استعملت البصيرة في جميع هذه الموارد بمعنى المعرفة الحاصلة عن طريق العقل قطعاً .



(١) كما في الآيات الآتية : (الشعراء : ١١٣) ، (الحجرات : ٢) ، (البقرة : ٩) ، (آل عمران : ٦٩) ، (الانعام : ٣٦ و ١٢٣) ، (المؤمنون : ٥٦) .

وقد تحدثت الآية الرابعة عشرة والاخيرة عن « الدراية » التي تعني الذكاء والخبرة والاحاطة بالمسائل الخفية غير المحسوسة ، حيث قالت : « وما تدري نفس ماذا تكسبُ غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت » .
وقد استعملت الدراية في القرآن بصيغ السلب دائماً ، ويفيدنا في هذا أن الدراية مرحلة عميقة من الفهم والادراك لا يحصل لكل انسان .

نستنتج من الآيات السابقة النتائج الآتية :

- ١ - إنَّ القرآن يعتبر العقل من المصادر الاصلية للعلم والمعرفة ، وقد أولاه أهمية قصوى .
- ٢ - القرآن يدعو الجميع للتفكير والتفكر في جميع الامور .
- ٣ - التفت القرآن التفاتاً خاصاً الى ماهية الارواح وأبعادها المختلفة ، وأكد على كل منها .
- ٤ - عبر القرآن عن نشاطات الروح في مجال إدراك الواقعيات تعبيرات مختلفة ، وقد استخدم كل تعبير في محله .
- إلا أن القرآن ذكر موانع عديدة تحول دون الادراك الصحيح للعقل ، سنبحثها في فصل (حجب المعرفة) ان شاء الله .

إيضاحات :

١ - الادراكات العقلية برؤية فلسفية :

بالرغم من ان أغلب الفلاسفة يعتبرون الادراك العقلي أحد المصادر

المهمة للعلم والمعرفة ، إلا أن الفلاسفة الحسيين يخالفون هذا الأمر ، ولا يعيرون
للادراكات العقلية أهمية واعتباراً - كما أشرنا الى ذلك سابقاً - ويحصرّون طرق
المعرفة بالتجارب الحسية متذرّعين بالحجج الواهية الآتية :

١ - اختلاف الفلاسفة في المسائل العقلية ، فان كلّ طائفة منهم تعرض ادلة
ظاهرها يوحى بأنها منطقية .

٢ - وقوع كثير من العلماء بأخطاء معتقداتهم بحيث يضطر البعض
للاعترا ف يخطئه ويسعى لتصحيحه .

٣ - كما يجب إضافة أمر آخر الى الأمرين السابقين وهو : إن التقدم والتطور
السريع للعلوم الطبيعية في القرون الأخيرة حلّ الكثير من الغاز العالم وأسراره عن
طريق التجربة الحسية ، وهذا الأمر قوّى فكرة الاستناد الى التجربة الحسية (في
مجال المعرفة) فقط ، وألغى بقيّة الطرق .

ونقرأ في (فلسفة التاريخ) : إن موضوعاً كهذا الموضوع سبب انكار
الحقائق (الحسية وغير الحسية) من قبل السوفسطائيين في اليونان القديمة . فمن
جهة نظروا الى اختلاف العلماء ، ومن جهة أخرى نظروا الى عوام الناس ،
فبعضهم يؤيدون إدعاء وكيلي المتنازعين في المحكمة ، ويعطون الحق بيد كل
من الطرفين وكأن كلا الطرفين على حق ، ولهذا قويت عندهم فكرة أن لاحقيقة
واقعاً .

ينبغي الالتفات الى عدة امور لرفع كل هذا الالتباس :

الأمر الاول : هو وجوب فصل « الادراكات البديهية » عن « النظرية » عند
التحقيق في مسألة الادراكات العقلية ، وذلك لأن الاخطاء لا تحصل في
البديهيات ، فلا يشك أحد في ان الاثنين نصف الاربعة ، او أن شيئاً لا يمكن ان
يكون موجوداً ومعدوماً في آن واحد ومكان واحد ، واذا شاهدنا اشخاصاً

يشككون في هذا الأمر أو يعتقدون ، خلاف ما هو بديهي فهم يتلاعبون بالألفاظ لا اكثر ، فيفسرون (النقيضين) او « الضدين » بمعانٍ غير تلك المعاني المتعارف عليها ، والا فلا خلاف في اصل الموضوع .

الامر الثاني : لا يخطأ الاستدلال إذا استند الى مقياس دقيق ، فالخطأ ينشأ عندما يستند الدليل الى مقياس غير دقيق ، ولهذا نشاهد الاتفاق الكامل في مسائل الرياضيات وقوانينها ، لانها تعتمد على أسس دقيقة ، ونمتلك هناك معايير واضحة لامتحان وسقم النتيجة لأي مسألة فالنتائج تكون قطعية كذلك .

الامر الثالث : إن قولنا بوجود أخطاءٍ في الادراكات العقلية ، دليل على قبولنا لها لا على نفيها ، وذلك لأن مفهوم حديثنا عن الأخطاء في الادراكات هو أننا نقبل بعض الحقائق ونخطئُ عقائد الآخرين على أساس تلك الحقائق المقبولة لدينا .

مثلاً عندما حكمنا بصحة أحد رأيي الفلاسفة المختلفين ، فأنا نعلم ان صحة اعتقادين متضادين محال ، وهذا إدراك عقلي بديهي ، وقضية القائلين : « إن الحس لا اعتبار له لأنه يخطأ » تماثل هذه القضية ، وكما ذكرنا سابقاً ، فان تخطئنا للباصرة في ادراكها لخط دائري ممتد ناشئة عن معرفتنا بأن هذا الخط نقطة نورانية متحركة ، وبما أن « النقطة » تضاد « الخط » حكمنا بخطأ الباصرة في ادراكها للخط الممتد ، وهذا اعتراف ضمني بوجود حقائق وامكانية ادراكها .

وآخر الحديث ، نقول : في الحقيقة إن جميع المنكرين للادراكات العقلية يريدون اثبات مدعاهم بنفس الادراكات ، أي انهم ينقضون مدعاهم عملياً ، وقد هبوا الحرب الادراكات العقلية بنفسها .

٢- شأن العقل في الروايات الاسلامية :

أكدت الروايات الاسلامية على أنَّ للعقل أهمية قصوى أكثر مما هو متوقع ، وأشادت به بعناوين مختلفة مثل : أساس الدين ، وأكبر غنى ، وأفضل رأس ، وأعلى قضية ، وأفضل صديق ، وأخيراً المقياس والمعيار للتقرب الى الله ونيل الثواب الالهي .

ونكتفي هنا بذكر اثنتي عشرة رواية فقط من بين عشرات بل مئات الروايات المأثورة والمنقولة عن الرسول ﷺ . والأئمة عليهم السلام .

ففي هذا المجال :

١ - قال الرسول ﷺ : « قِوَامُ المرءِ عَقْلُهُ ، ولادينَ لِمَن لا عقلَ لَهُ »^(١) .

٢ - قال امير المؤمنين عليه السلام : « لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل »^(٢) .

٣ - وقال في حديث آخر : « إِنَّ الله تبارك وتعالى يحاسب الناس على قدر عقولهم »^(٣) .

٤ - وجاء في حديث للامام الصادق عليه السلام : « إِنَّ الثواب على قدر العقل »^(٤) .

٥ - كما جاء في حديث للرسول ﷺ : « ما قَسَمَ الله للعباد شيئاً أفضل من

العقل ... وما أدّى العبد فرائض الله حتى عَقَلَ عنه ، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل »^(٥) .

٦ - وجاء في حديث ان الامام موسى بن جعفر عليه السلام خاطب هشام بن الحكم

قائلاً : « يا هشام ! ما بعث الله أنبياءه ورسله الى عباده إلا ليعقلوا عن الله ،

(١) بحار الانوار الجزء ١ الصفحة ٩٤ حديث ١٩ .

(٢) نهج البلاغة الكلمات القصار ، الجملة ٥٤ .

(٣) بحار الانوار الجزء ١ الصفحة ١٠٦ حديث ٢ .

(٤) اصول الكافي الجزء ١ الصفحة ١٢ حديث ٨ (كتاب العقل والجهل) .

(٥) اصول الكافي الجزء ١ الصفحة ١٢ حديث ١١ .

فاحسنهم إستجابة أحسنهم معرفة ، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً ، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة»^(١) .

٧ - وقال الرسول ﷺ في حديث آخر : « لكل شيء آلة وعُدّة ، وآلة المؤمن وعُدّته العقل ، ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل ، ولكل شيء غاية وغاية العبادة العقل »^(٢) .

٨ - وجاء في حديث للامام الصادق عليه السلام : « إذا أراد الله أن يزيل من عبد نعمة كان أول ما يغير منه عقله »^(٣) .

٩ - ويقول الامام علي عليه السلام في هذا المجال : « العقل صاحب جيش الرحمن ، والهوى قائد جيش الشيطان ، والنفس متجاذبة بينهما ، فأيهما غلب كان في حيزه »^(٤) .

١٠ - ويقول في حديث آخر : « العقول أئمة الافكار والافكار أئمة القلوب ، والقلوب أئمة الحواس ، والحواس أئمة الأعضاء »^(٥) ، (وبهذا فان أعضاء الانسان تستند على حواسه وحواسه تستعين بعواطفه ، وتعتمد عواطفه على أفكاره ، وأفكاره على عقله) .

١١ - وجاء في حديث للرسول ﷺ : « إنّ الرجل ليكون من أهل الجهاد ومن أهل الصلاة والصيام ، وممّن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولا يُجزى يوم القيامة إلاّ على قدر عقله »^(٦) .

(١) الكافي الجزء ١ الصفحة ١٦ .

(٢) البحار الجزء ١ الصفحة ٩٥ حديث ٣٤ .

(٣) البحار الجزء ١ الصفحة ٩٣٠ حديث ٢٠ .

(٤) غرر الحكم .

(٥) البحار الجزء ١ الصفحة ٩٦ حديث ٤٠ .

(٦) مجمع البيان الجزء ١٠ الصفحة ٣٢٤ .

١٢ - وقال الامام الباقر (عليه السلام) : « لا مصيبة كعدم العقل »^(١).

٣ - المخالفون لتحكيم العقل :

إنَّ لهذا الجوهر الانساني (العقل) شأنًا رفيعاً وصفات ايجابية كثيرة جداً ، والمذهل حقاً أنه بالرغم من اتصاف العقل بهذه الصفات وامتلاكه هذا الشأن المرموق نجد مَنْ يذمونه وَمَنْ يتأسفون لأنهم عقلاء ، والاغرب من ذلك أنهم يمتلكون الحجج - حسب زعمهم - على أدعاءاتهم الجوفاء !

فتارة يقولون : إنَّ العقل يحد الانسان من تصرفاته ويسلبه حريته ، حيث يجعل أمامه موانع تحول بينه وبين ما يريد أن يقوم به من عمل حراماً كان او حلالاً حسناً أو قبيحاً خيراً أو شراً ، فلو لم تكن لنا عقول لكنا أحراراً .

وتارة يقولون : إنه يسلب راحة الانسان حيث نرى العقلاء و الاذكياء من الناس لا راحة لهم ، إلا أن البسطاء من الناس فرحون وسعداء دائماً لانعدام تأثير العقل عليهم .

واذا قرأنا أشعاراً مفادها ذمُّ العقل او الانتقاص منه أو الاستهانة به فمن الواضح كونها مزاحاً أو سفسطة او كناية عن مفاهيم اخرى ويستبعد أن يكون مرادهم ذم العقل ، بل إنهم يقصدون أن هناك اموراً مؤلمة تحيطهم ، والناس في غفلة عنها .

أو أن قصدهم من الجنون المذكور في بعض الأشعار كصفة للعقل ، هو الجنون العرفاني والمراد منه العشق الالهي ، والتضحية بكل شيء في سبيله . وعلى أية حال ، صحيح ان العقل يقيد من حرية الانسان وبعض تصرفاته ،

(١) البحار الجزء ٧١ الصفحة ١٦٥ .

إلا أن هذ فخر له ، لأنه يرشده نحو التكامل إنَّ هذا الادعاء يُشبهُ ادعاء من قال :
« إن الاحاطة بعلم الطب يحد من انتخاب الانسان لأنواع الأطعمة و من امور
اخرى » . وهل هذا نقص ؟ ! أم أنه ينقذ الانسان من الاصابة بالامراض وفي بعض
الأحيان من التسمم القاتل .

اما القول بأن العقل يزيد من هموم الانسان وأحزانه ، فهذا يرفع من منزلة
الانسان ، لأنَّ العاقل من يتحسَّس آلام المضطهدين والمظلومين ويتألم من سلوك
المعاندين وبالتالي فهو دليلٌ على الكمال ، وكما جاء في المثل : (اما أن يكون
ضعيفاً ونحيفاً كسقراط في زهده او سميناً وبديناً كالخنزير) .

نعم ، اذا غفلنا عن مسألة التكامل الانساني واعتبرنا الأصل في الحياة هو
اللذة المادية ، فان ما يتفوه به بعض المؤيدين لأصالة اللذة المادية صحيح ، لكن
هذا الحديث مضحك ولا قيمة له من وجهة نظر الانسان الموحد أي الذي يؤمن
بالرسالة والهدف وتكامل الانسان .

إضافة الى هذا ، فان المؤيدين لأصالة اللذة مضطرون لأن يسلموا
ويخضعوا لكثير من القوانين الاجتماعية الحادة من حرياتهم وتصرفاتهم ، وأن
يفرضوا على أنفسهم العناء من هذه الناحية ، ومن هنا ندرك كيف ان الانسان
يسقط في الهاوية عند ابتعاده عن تعاليم الوحي والانبياء .

الى هنا ننهي البحث عن المصدر الثاني من مصادر المعرفة (العقل)
وننتقل الى المصدر الثالث بالرغم من بقاء بحوث كثيرة لم تطرح في هذا الفصل .

المصدر الثالث :

التأريخ والآثار التاريخية

٣- التاريخ والآثار التاريخية

تمهيد :

تعرّض القرآن للقضايا التاريخية بأسلوبين :

١ - الاسلوب المدوّن ، أي ان القرآن المجيد يَسردُ للمسلمين بعض الحوادث التاريخية للأقوام السالفة بألفاظ وعبارات شيقة ودقيقة ، ويبين الامور الغامضة من تاريخهم ، ويشير الى عواقب أعمالهم ، وذلك لتوعية المسلمين وتعريفهم بالقضايا المختلفة ، ولكي يرى الناس حقائق من حياتهم في مرآة تاريخ السالفين .

٢ - الاسلوب الثاني ، التكويني ، أي كشف القرآن عن الآثار التاريخية التي خلفتها الاقوام الغابرة ، الآثار الصامته ظاهراً ، والمدوّية باطناً ، الآثار التي يمكنها ان تصوّر لنا التاريخ الغابر ، الآثار التي نعتبر مرآة أمام الانسان يرى فيها وجه حياته في الحاضر والمستقبل .

نبدأ أولاً بقراءة نماذج من كلا القسمين في الآيات التالية :

١ - ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(يوسف / ١١١)

٢ - ﴿ فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الاعراف / ١٧٦)

٣ - ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾

(هود / ١٠٠)

٤ - ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا

الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْعَافِلِينَ ﴾

(يوسف / ٣)

٥ - ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ

يَخْشَى ﴾

(النازعات / ٢٥ - ٢٦)

٦ - ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ

يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾

(الحج / ٤٦)

٧ - ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾

(محمد / ١٠)

٨ - ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

(آل عمران - ١٣٧)

٩- ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(العنكبوت / ٢٠)

١٠- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾

(البقرة / ٢٥٨)

١١- ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾

(الفجر / ٦ - ٧)

١٢- ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

(الفيل / ١)

شرح المفردات :

١- إنَّ كلمة (قصص) تعني التتبع لآثار شيء ما^(١) ، وقد سميت القصة قصة لأن فيها تتبعاً للاخبار والحوادث المختلفة ، وعليه فالقصة لاتعني الرواية فحسب ، بل تعني - لغوياً - التتبع لآثار الاشياء .

كما تطلق « القصص » على كل شيء متتابع ومتسلسل .

وبما أن (المِقْصَص) يقص الشعر على التوالي قيل له (مِقْصَص) ، و القُصَّة تعني مجموعة الشعر الامامي^(٢) .

٢- اما كلمة (عِبْرَة) فاشتقت من مادة (عبور) و (عَبْر) وتعني التنقل من

(١) ينبغي الالتفات الى أن (قصص) كما هي مصدر لقص يقص ، هي جمع (قصة) ، والمراد منها في سورة يوسف في الايتين (٣ و ١١١) هو المعنى الثاني .

(٢) لسان العرب ، ومفردات الراغب ، ومجمع البحرين .

حالة الى حالة اخرى ، و « العبور » في الأصل - يعني عبور الماء سباحة أو بالزورق أو على الجسر وأمثال ذلك ، وقد استعملت هذه المفردة بمعنى أوسع وهو التنقل من حالة الى حالة اخرى ، ويقال لقسم من الحديث (عبارة) لانه عابر من لسان المتكلم الى اذن السامع .

أما (العبرة) فهي كيفية صالحة للمشاهدة ينتقل الانسان بها الى شيء غير مُشاهد^(١) .

وقد ذكر البعض أن « العبرة » تعني الدلالة التي توصل الانسان الى مراده^(٢) . كما جاءت هذه المفردة بمعنى التعجب^(٣) (وقد يكون هذا الاطلاق الأخير لأن كثيراً من الامور التي يكتشفها الانسان عن طريق الحوادث المهمة والجلية ، تثير العجب) .

٣- كلمة (السير) تعني الحركة على الارض ، واذا قيل (سيرا في الارض) فان القيد الأخير تأكيد للسير ، وقد قال الراغب في مفرداته : ذُكِرَ معنيان للسير في الارض : أحدهما الحركة الجسمانية على الارض (ومشاهدة الكائنات وآثارها المختلفة) . والثاني هو الحركة الفكرية ودراسة الكائنات ، وقد صرح البعض : إن السير يعني العبور المستمر في جهة واحدة^(٤) .

أما كلمة (السيرة) فتعني الطريقة والاسلوب . واستعمالها اشارة الى تاريخ حياة الاشخاص ، من هذا الباب .

٤- أما « الرؤية » فقد جاءت لمعنيين ، أحدهما المشاهدة بالعين ، والآخر

(١) مفردات الراغب .

(٢) مجمع البيان الجزء ٥ الصفحة ٢٧١ .

(٣) لسان العرب .

(٤) مجمع البيان الجزء ٥ الصفحة ٢٦٨ .

العلم والمعرفة أو المشاهدة الباطنية^(١) ، وقد استعملت في القرآن الكريم في موارد كثيرة بالمعنى الثاني أي بمعنى العلم والخبرة ، وأما « الرأي » فيعني الاعتقاد القلبي والنظرية سواء كان اعتقاداً يقينياً أو ظنياً ، وأما « الروية » و « التروى » فيعنيان التفكير أو السعي والتتبع للحصول على النظرية .

٥- كلمة « نظر » في الأصل تعني دوران العين أو حركة الفكر لادراك أمرٍ ما ، أو مشاهدته ، وجاء أيضاً بمعنى البحث والتفحص وتارة جاء بمعنى المعرفة الحاصلة بعد الفحص ، وقد ذكر صاحب مجمع البحرين ثلاثة معانٍ للنظر : ١ - مشاهدة الشيء ٢ - التدقيق في الشيء بواسطة العين ٣ - التفكير للحصول على العلم أو الظن^(٢) .

أما صاحب لسان العرب فقد شرح النظر بأنه المشاهدة ، بالعين والثاني المشاهدة بالقلب ، والمفيد أنه استشهد بعد ذلك بحديث للرسول ﷺ حيث قال فيه : « النظر الى وجه العالم عبادة » ، وفي تفسير هذا الحديث ينقل عن ابن الاثير أنه قال : معنى الحديث هو أن الناس حينما كانت أعينهم تقع على علي عليه السلام كانوا يقولون :

« لا إله إلا الله ما أشرف هذا الفتى لإله إلا الله ما أعلم هذا الفتى ... »^(٣) .



(١) وفعلها يتعدى لمفعول واحد على المعنى الاول ، ومفعولين على المعنى الثاني (لسان العرب والمفردات) .

(٢) مفردات الراغب مادة نظر .

(٣) لسان العرب الجزء ٥ مادة نظر .

جمع الآيات وتفسيرها:

بعد أن أشارت الآية الأولى الى المصير المؤلم لبعض الامم السالفة قالت :
﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ فالتفكير في مصير هؤلاء يُعد
الاسلوب الأمثل لأولي الالباب لمعرفة عوامل السعادة والتعاسة ، وتمييز طريق
الهلاك عن طريق النجاة .

والآية الثانية خاطبت الرسول قائلة : ﴿ فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وهذا يدل على أن البيان الصحيح لتاريخ السالفين موجب لصحة
الأفكار ومصدر المعرفة .

والآية الثالثة بعد أن بينت مصير بعض الأقوام السالفة مثل قوم نوح
وشعيب وفرعون ولوط وعاد وثمود ، قالت : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ
مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (اي من القرى من هو باق لحد الآن ومنها من زال وفنى)
﴿ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ثم أضافت في النهاية ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ .

والآية الرابعة التي جاءت في بداية سورة يوسف ، هيأت أذهان
المستمعين في البداية لتلقي وادراك ما سيقال فقالت : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ
أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ .

فقد استندت الآيات الأبع الى موضوع « القصة » و « القصص » كوسيلة للمعرفة .

والآية الخامسة بعد اشارتها الى تعذيب فرعون قالت : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿ .
 إِنَّ هذه الآية ذكرت (العبرة) التي تعني الانتقال والعبور من حالة صالحة للمشاهدة الى حقائق مشاهدة لها واعتبرتها وسيلة للمعرفة .

وقد أكدت الآيات السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة على مسألة « السير في الأرض » ، ودعت الناس إليه بأساليب خطابية مختلفة ، فمرة خاطبتهم بـ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ومرة ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ بعدما ذمتهم لعدم سيرهم في الارض .
 وفي آيات أخر خُوطِبَ جميع الناس أو المسلمين بالقول : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ .
 وفي آية أخرى هناك دعوة للناس لأن يسيروا في الارض للبحث عن بدء الخلق والاستفادة من ذلك للعلم بكيفية النشأة الآخرة .

وقد أكدت الآيات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة على مسألة

المشاهدة و « الرؤية » ليس بالعين الباصرة ، بل بعين القلب .

إن الخطاب في الآيات الثلاث موجّه الى الرسول ﷺ إلا أن المراد بها جميع المؤمنين ، بل الناس كافة ، والخطاب بصيغة استفهام تقريرية ، حيث خاطبه الله تارة بالنحو الآتي :

ألم تر الى الذي (أي نمرود ذلك السلطان الطاغوي المغرور) حاجّ ابراهيم في ربّه ، والى ايّ نهاية انتهى به المطاف ؟ وتارة يخاطبه بهذا الخطاب : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ .

وخاطبه تارة اخرى بنحو آخر قائلًا له : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ، مذكراً بقصة اصحاب الفيل القادمين من اليمن لهدم الكعبة فانزل الله عليهم طيوراً - بالرغم من ضعفها - ترميهم بحجارة من سجيل تحملها بمناقيرها فهلكوا بهذه الاحجار .

ومن المسلم به أنه لا الرسول ولا غيره من المسلمين رأى ابراهيم ونمرود وسمع محاجتهما ، وكذا الأمر بالنسبة لقوم عاد ، فلم يروهم ولم يروا مدنهم العامرة يومذاك ، وحتى بالنسبة لأصحاب الفيل فان الرسول ﷺ وُلِدَ في السنة التي هجم فيها (ابرهة) طبقاً للرواية المشهورة ، فلم ير شيئاً من الحادث وكذا أكثر المسلمين ، وعلى هذا فالمراد من الرؤية هو التدقيق في تاريخهم .

إن ما يلفت النظر هنا هو أن الآيات الخمس الاولى ركّزت بحثها على التاريخ المدوّن أي ما جاء في صفحات الكتب التاريخية بينما ركزت الآيات الاربعة الاخيرة بحثها على التاريخ التكويني الحي أي الآثار الباقية عن الاقوام الغابرة في بقاع مختلفة من العالم .

من الممكن أن تكون الآيات الثلاث الاخيرة فيها اشارة الى التاريخ المدون او التاريخ الخارجي أو كليهما ، ويتضح من مجموع هذه الآيات (وامثالها في

القرآن الكريم) الأهمية القصوى التي أولاها القرآن لقسمي التاريخ كمصدر للمعرفة والعلم .

انَّ الله عزَّ وجلَّ يدعو الناس تارةً لأن يشاهدوا بأَم أعينهم قصور الفراعنة وآثار دمار مدن عاد و ثمود وقصور نمرود وأعوانه والبلاد التي جُعِلَ عليها سافلها التابعة لقوم لوط لكي يعرفوا أنَّ مَصير المتَجَبِّرين سيؤول الى هذه النهاية .

وتارة نجد القرآن نفسه يشرح بدقة هذه الحوادث ويسلط الاضواء عليها ويعدُّ العِبَر بعد العِبَر ذاكراً عاقبة (المكذبين) و (الظالمين) و (الكافرين) و (المفسدين) في ضمن بحوثه التاريخية هذه .

في الحقيقة إن القرآن تارة يأخذ بأيدي الناس الى « مصر » ويريهم الآثار التاريخية ويمثل لهم الراقيدين تحت التراب ويصور أمامهم العروش التي عصفت بها الرياح ، وتارة اخرى يريهم الذين أركسوا في العذاب وَهَدَّمت عروشهم ، والخلاصة : فان القرآن يريهم ما خفي على العيان من قصص الأسلاف .

إنَّه يمضي بهم الى المدن الخربة كمدينة (سدوم) مثلاً مركز قوم لوط ليشاهدوا عن كثب ما حلَّ بها ومن هناك الى جنة شداد ، ثم الى بلاد بابل ، (مركز حكومة نمرود) ، ثم الى مناطق اخرى .

إنه يجعل من المدن المدمرة عبرة لمن اعتبر ومن كل قصر مهْدَم نصيحة جديدة ، والخلاصة : إن القرآن يستند كثيراً في مجال المعرفة الى التاريخ المدون في الكتب ، والملق على وجه الارض ، وهذه ، مسألة جدية بالاهتمام كثيراً .

إيضاحات :

١ - مرآة التاريخ :

إنَّ أهم ما يحصل عليه الانسان في حياته هو تجاربه الشخصية حيث تفتح له بها آفاق جديدة وواسعة في الحياة ليسعى جاهداً للوصول الى التكامل الأمثل .

لكن ما هو مقدار التجارب التي يستطيع الانسان تحصيلها خلال عمره القصير البالغ مثلاً عشرين سنةً او خمسين او ثمانين ؟

هذا إذا قضى عمره في ميادين التجربة ولم يقضه لاهثاً وراء التوافه .

اننا ، لو استطعنا أن نجمع تجارب جميع من عاش في عصر واحد ، أو تجارب جميع من عاش في القرون والعصور الماضية ، لَحَصَلْنَا على تجارب كثيرة بالتأكيد ، وستكون تلك التجارب مصدراً مهماً لمعرفةنا وخبرتنا .

إن التاريخ - شرط أن يدوّن بالطريقة الصحيحة والكاملة - يجعل تجارب البشر على مرّ القرون أمام الباحثين والدارسين له ، وحتى اذا كان ناقصاً فانه يضم بعض تجارب العصور الغابرة .

إن أهمية التاريخ ناشئة من أنَّ ما يحدث الآن قد تكرر نموذج او نماذج منه في التاريخ سابقاً ، وما يقال عن التاريخ من أنه « يعيد نفسه » حقيقة لا تنكر وقد تستثنى موارد منه إلا أن اكثر الحوادث داخله في اطار هذا القانون .

وقد أشار الامام علي عليه السلام لهذا الموضوع بوضوح في خطبة له ، حيث قال فيها : (عباد الله إن الدهر يجري بالباقيين كجريه بالماضين) .

وقد جاء في حديث شريف أن ما يجري في الامة الاسلامية قد جرى مثله في بني اسرائيل .

ومن هنا تتضح أهمية وشأن التاريخ في مجال المعرفة ونستطيع القول

بجراًة : إنه بالتحليل والدراسة الدقيقة لتاريخ البشر نجد .

عوامل الفشل والسقوط .

وعوامل الانتصار والفوز .

وعوامل ازدهار الحضارات .

وعوامل سقوط وانقراض الحكومات (الدول) .

وعاقبة الظلم والاستبداد .

وعاقبة العدل والعدالة .

ونائج وحدة الكلمة والحركة والسعي .

ودور العلم والمعرفة .

وعواقب الجهل والبطر والكسل ، كلها قد انعكست في مرآة التاريخ .

وإن أراد أحد أن يمنحه الله حياة ثانية فحريُّ بنا أن نقول له : إنك إذا درست

التاريخ بدقة لوجدت انك لم تمنح حياة ثانية فحسب ، بل وُهبت الآلاف

المضاعفة .

وما أجمل ما خاطب به الامام أمير المؤمنين عليه السلام ولده الأكبر الامام

الحسن عليه السلام : (أي بني إني وإن لم أكن عُمَرُتُ عمر من كان قبلي ، فقد نظرت في

أعمالهم ، وفكرت في أخبارهم وسرُّ في آثارهم ، حتى عُدْتُ كاحدهم ، بل

كأنني بما انتهى إلى من أمورهم قد عمرتُ مع أولهم إلى آخرهم) .

ومع اننا لا ننكر لنواقص والاشكالات على التاريخ ^(١) المتداول بين أيدينا ،

ولكن رغم هذه النواقص - التي سنشير إليها فيما بعد - فهو غني بالعلم والمعرفة .



(١) نهج البلاغة - وصيته للامام الحسن المجتبي عليه السلام .

٢ - جاذبية التاريخ :

لِمَ كان التاريخ معلماً ؟ ليست الاجابة عن هذا السؤال صعبة جداً ، وذلك لامكانية تشبيه التاريخ بالمختبر الكبير الذي تخضع فيه قضايا الانسان المختلفة للاختبار .

وعلى هذا الاساس ، فكما ان العلوم التحليلية حلت الكثير من مسائلها وقدمت الكثير من البراهين لاثبات الواقعيات بالاختبار ، كذلك التاريخ ذلك المختبر العظيم حيث تختبر فيه الكثير من القضايا والمسائل ، ويميز فيه الذهب الصادق عن الكاذب ، وبه تزول الأوهام عن الأذهان .

إذا حللت ظواهر الاجسام أو تركيباتها في مختبرات الكيمياء والفيزياء ، فانك في مختبر التاريخ تحلل أغاز انتصار وفشل الأقوام ، وسبب سيادة وتطور أو انحطاط الحضارات ، وردود الفعل وصفات ومعنويات الاقوام والأشخاص ، واسلوب عملهم بجاذبية وجمال فائق .

وبذلك يكون التاريخ وسيلة مناسبة لدراسة عوامل السعادة وشقاء البشر . واذا شاهدنا في القرآن الكريم تأكيداً على تاريخ الاسلاف ، وشاهدنا فيه من السور الدالّة على المباحث التاريخية حتى أن بعض السور تدور معظم آياتها أو كلّها حول تاريخ الاقوام السالفة فذلك كله ناشيء من هذه الملاحظة التي أشرنا بها .

وقد ينكر المعاندون بعض المسائل النظرية ، إلا أنه لا يمكنهم انكار واقعيات التاريخ القطعية ، خاصة وأن القرآن يأخذ بأيدي الناس الى ما خلفته الأقوام الغابرة ، ويروي قصصهم على قبورهم وقمم مدنهم الخربة .

إن التاريخ - في الحقيقة - فرع من المسائل التجريبية ، وبتعبير آخر يمكن ادغامه في مصدر « الحس والتجربة » إلا أنه يختلف عن الحس والتجربة اختلافاً

طفيفاً فالحس والتجربة يتعلقان بالحاضر لكن التاريخ يتعلق بالماضي ، وان الحس والتجربة قد يتعلقان بذات الفرد فقط بينما التاريخ يتعلق بجميع ذوات البشر .
ولكن الأهمية الفائقة لهذا الفرع من التجربة تفرض علينا دراسته كمصدر مستقل للمعرفة .

٣- شوايب التاريخ :

بالرغم من ان التاريخ مرآة كبيرة وجميلة تعكس الواقعيات إلا أن المؤسف فيه هو وجود أيادٍ ملوثة سعت وتسعى دائماً لتغيير وتشويه الوجه الشفاف لهذه المرأة ، ولهذا السبب فان هناك كثيراً من الشوايب في التاريخ تحول دون معرفتنا للحقيقة ودون تمييزنا الصادق عن الكاذب منه .

إن سبب التشويه واضح ، حيث لم يكن المؤرخون محايدون دائماً ، بل كثيراً ما يؤرخون التاريخ بالشكل الذي يتناسب مع دوافعهم الشخصية والتكتلية ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان جبايرة كل عصر سعوا لأغراء المؤرخين بالاموال وغيرها ، ليملوا عليهم ما يحلو لهم .

وبالرغم من المساعي التي تبذل بعد زوال كل من الجبايرة والظالمين وتوفر أجواء حرة أكثر في سبيل اصلاح الاخطاء ، وتصحيح ما لحق بالتاريخ من فساد ، إلا أن المؤرخين قد لا يوفقون في هذا المجال لاصلاح الخطأ ، أو تكون اصلاحاتهم غير كافية .

والملفت للنظر أن قضايا التاريخ تتبدل كلما تبدلت الحكومات المستبدة ذات الميول والاتجاهات المتضاربة ، فـ « بنو امية » مثلاً حرقوا التاريخ الاسلامي بشكل ، و « العباسيون » حرقوا بشكل آخر ، كما أن الذين خلفوا العباسيين صاغوه

بشكل آخر .

إنَّ (ستالين) كتب تاريخ الثورة الشيوعية في روسيا بشكل ، وقد دُرِّس في جميع المدارس آنذاك ، والذين خلفوه كانوا يعتبرونه جلاداً مصاصاً للدماء فجمعوا تلك الكتب ودوّنوا تاريخ الثورة بصيغة أخرى ، وهكذا فعل كل من خلف الحكومة في الاتحاد السوفيتي فكتب التاريخ بما يتناسب مع ميوله الشخصية والمذهبية .

ولهذا السبب ، فان البعض أساء الظن بالتاريخ وقال فيه - مبالغة - هذه العبارة : « إن التاريخ مجموعة حوادث لم تحدث أبداً ، وأقوام لم توجد أبداً » !! إلا أن الانصاف يفرض علينا أن نعدّ التاريخ أحد مصادر المعرفة بالرغم من الغبار الذي غطّاه ، وذلك لأن التاريخ كأي خبر آخر منه « متواتر » ومنه « موثوق » ومنه « ضعيف » ومنه « مجهول » .

ولا يمكن انكار ما تواتر في التاريخ عن مجند المغول وجيش هتلر والحوادث المفجعة في « الاندلس » ، والمئات من هذه الحوادث ، والذي يصلح للنفي والاثبات والاشكال هو جزئيات التاريخ ، وهي بدورها إذا ثبتت باخبار الثقة صلحت للقبول . بالطبع فان الاخبار الضعيفة في هذا المجال ليست قليلة . وهذا حكم عادل بحق التاريخ ، فينبغي عدم الأخذ بكل ما جاء في التاريخ ، كما ينبغي عدم نبذ كل ما نقل فيه .

وقد سَلِمَ قسمان من التواريخ من أي تحريف وتلوّث وهما :

التواريخ التي ظلت في صورة آثار تكوينية في الخارج ، فلا يمكن تحريفها ببساطة ، وقد أكد القرآن المجيد على هذا القسم كثيراً ، وآيات « السير في الارض » بهدف التعرف على تاريخ الاسلاف ناظرة الى هذا القسم منه . والأعظم من ذلك هي التواريخ التي وصلتنا عن طريق « الوحي » مثل

تواريخ القرآن التي تعتبر أصيلة وخالصة من جميع الرغبات والنزعات ، فكما أن الله عز وجل أفضل مقنن فهو أفضل مؤرخ كذلك ، لأنه خبير بجميع الجزئيات ومنزه عن الاتجاهات الفردية والجماعية ، ومع توفر هذين الشرطين فهو أفضل مؤرخ روى لنا التاريخ .

وقد يتعجب البعض ويسأل : لماذا يعيد الله تعالى قصة نوح أو موسى أو فرعون أو مواجهة الانبياء للمستكبرين عدة مرات ؟

لقد غفلوا عن أن كل حكاية ناظرة الى الحادث من زاوية واحدة فقد يكون لكل حدث تاريخي زوايا وجوانب متعددة ، فقد ينظر - مثلاً - الى تاريخ بني اسرائيل من حيث مواجهتهم لطاغوت زمانهم ، وقد ينظر لتاريخهم من حيث عنادهم لأنبيائهم ، وقد ينظر الى تاريخهم من حيث عواقب الاختلاف والتشتت وعدم الاتحاد ، او من حيث آثار ونتائج نكران النعم ، والخلاصة : إن كثيراً من الحوادث التاريخية كالمرآة ذات الأبعاد المختلفة ، يسلط كل واحد بعد الاضواء على جانب من الجوانب (وسيأتي شرح هذا بالتفصيل في بحث تواريخ القرآن) .



٤ - فلسفة التاريخ :

إن المهم في التاريخ هو العثور على « اصول » و « نتائج » الحوادث .
فاذا حصلت ثورة في بقعة ما من العالم - مثلاً - ينبغي أولاً دراسة العوامل التي أدت الى هذه الثورة والتحقق منها بدقة .

ثانياً النظر في نتائج هذه الثورة . وهذان الامران هما اللذان يخرجان التاريخ عن كونه مجرد حكايات مسلية ، ويبدلانه الى مصدر مهم للمعرفة .

لكن يؤسفنا أن يكتفي المؤرخون بذكر الحوادث التاريخية ، في مرحلة

تبلورها فقط ، وقلما يتجهون نحو اصول الحوادث ونتائجها ، ولم يتركوا في مجال تحليل القضايا التاريخية أثراً تذكر .

إلا أن القرآن قرن تدوين الحوادث مع البحث عن أصولها ونتائجها فتارة بعد ذكره لمقطع تاريخي يقول :

﴿ فَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (آل عمران / ١٣٧) .

وتارة يقول : ﴿ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (الاعراف / ٨٦) .

وتارة يقول : ﴿ فَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (النمل / ٦٩) .

وتارة يقول : ﴿ اِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوْا مَا بِاَنْفُسِهِمْ ﴾ .

(الرعد / ١١) .

والجدير بالذكر أن للتاريخ فروعاً عديدة أهمها تاريخ الانسان والمجتمعات البشرية ، وتاريخ الحضارات ، وتاريخ العلوم والفنون البشرية ، وهي تواريخ محورها الأساس هو الانسان .

ياله من بسطاء اولئك الذين يظنون أن التاريخ - بالرغم من كل فروعه وتشعباته - وليد قسري للقضايا الاقتصادية وخاصة وسائل الانتاج ، أي ان التاريخ خلقته وسائل الانتاج واجهزته التي صنعها الانسان بنفسه !

وعلى هذا الاساس يمكننا القول : إن هؤلاء باسلوبهم الخاطيء وتفكيرهم الشاذ لم يعرفوا الانسان ولا التاريخ أبداً .

٥ - التاريخ « النقلي » و « العلمي » و « فلسفة التاريخ » .

قسم أحد العلماء المعاصرين التاريخ - باعتبار - الى ثلاثة أقسام :

١ - التاريخ النقلي : وهو عبارة عن مجموعة من الحوادث الجزئية المعينة

التي حدثت في الماضي ، وهو أشبه ما يكون بالقلم الذي يصور حادثة أو حوادث ، لهذا فانه جزئي دائماً وليس كلياً ، ويتحدث عما كان لا عما يكون ، ويتعلق بالماضي لا بالحاضر ، ونقلني لا عقلي .

وهذا الفرع من التاريخ يمكنه - عن طريق المحاكاة - أن يكون معلماً مفيداً ، وعبرة يعتبرها الناس ، وهو أشبه بتأثر الانسان بجليسه ، وأشبه بالاسوة التي يعرضها القرآن للناس ليعتبروا منها ويقتدوا بها .

٢- التاريخ العلمي : وهو التاريخ الذي يتحدث عن قواعد وسنن الأسلاف التي تُستنبط بعد تحليل حوادث العصور السابقة ، وفي الحقيقة فان التاريخ النقلي كالمادة الخام لهذا التاريخ .

ومن ميزات هذه السنن هي امكانية تعميمها ، وكونها علمية ، وامكانية جعلها مصادراً للمعرفة ، وإحاطة الانسان - عن طريقها - بالمستقبل . وبالرغم من ان هذا النوع من التاريخ كلي و عقلي ، فانه علم بما كان لا بما يكون .

٣- فلسفة التاريخ : وهو علم يتحدث عن تحول المجتمعات من مرحلة الى أخرى ، أو بتعبير آخر : هو علم بما يكون لا بما كان . ويمكن توضيح هذا بالمثل الآتي :

إن « علم الأحياء » علم يبحث عن القواعد الكلية التي تحكم حياة الموجودات الحية ، إلا أن نظرية « تكامل الانواع » إذا قلنا بها - تبحث عن كيفية تحول وتبدل نوع من الحيوانات الى نوع آخر ، إذن ، موضوع البحث في فلسفة التاريخ هو كيفية حركة وتكامل التاريخ ، إن هذا الفرع من التاريخ يتسم بجانب كلي وعقلي ، ورغم ذلك فانه ناظر الى مجريات التاريخ من الماضي الى المستقبل .

وفائدة هذا النوع من التاريخ لا تخفى على أحد^(١).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ما ذكرناه في شروحنا للاقسام الثلاثة كان صحيحاً وإن لم يتفق شيئاً ما مع الاستعمالات العصرية لمفردتي « العلم » و « الفلسفة » وإن المراد كان إيصال المفهوم إلى أذهان القراء فقط .

فضلاً عما ذكر سابقاً نضيف هنا القول بإمكانية ادغام القسم الثاني والثالث في قسم واحد ، ذلك لأن القوانين الكلية التي رسمت التاريخ وتُستخرج وتُستنبط من التاريخ النقلي ، تارة تكون ناظرة إلى الوضع الراهن للمجتمعات ، وتارة أخرى تكون ناظرة إلى تحول وتكامل المجتمعات .

والمهم هنا هو أن القرآن المجيد لم يقتنع بالسرد المجرد لحوادث التاريخ بل أشار أيضاً إلى السنن والقوانين الكلية التي حكمت المجتمعات ، القوانين التي يمكنها أن تزيل القناع عما كان ويكون ، أو عن أي تغير وتحول تاريخي كأي تقدم أو سقوط أو فشل حصل للمجتمعات .

يشير القرآن - مثلاً - إلى هذه السنة : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الأنفال / ٥٣) .

وينبغي الالتفات إلى أن القرآن ذكر هذه السنة بعد ما أشار إلى قصة قوم فرعون وعذابهم بسبب ذنوبهم .

ويقول في آيات آخر (بعد اشارته إلى تاريخ الاقوام القويّة التي بادت بسبب تكذيبهم الرسل وشركهم وذنوبهم وظلمهم) : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ (المؤمن / ٨٥) .

نعم ينبغي الوقاية قبل العلاج ، وهذا قانون كلي ، لأنّ الانسان لو ابتلي بجزاء أعماله فلا فرصة حينئذٍ لجبران الماضي .

(١) ملخص من كتاب فلسفة التاريخ تأليف الشهيد المطهري .

الأجابة على إشكال :

إن قبول وجود قانون كلي في تاريخ الانسان يجسد مفهوم الجبر في التاريخ ولا يتفق وحرية الارادة والاختيار . وهذا ما قد يقال .
لكن الالتفات الى نقطة في هذا المجال يرفع الاشكال بالكامل والنقطة هي :

إن قولنا بوجود قوانين وسنن كلية معناه أن أعمال البشر الاختيارية (سواء الفردية منها او الجماعية) لها مردودات وانعكاسات قهرية ، فمصير الأمم الصامدة والعارفة والمجددة - مثلاً - هو النصر ، ومصير الامم المتشعبة والجاهلة هو السقوط والفسل .

هذه سنة تاريخية ، فهل ان مفهوم هذا القانون الكلي هو أن الانسان مجبور ، أم إنه تأكيد لتأثير ونفوذ إرادة الانسان في تعيين مصيره ؟
وهذا الأمر أشبه ما يكون بقولنا : إن الانسان يموت اذا تناول سُمّاً ، وهذا المردود قهري ولا يتنافى واختيار الإنسان وأصل إرادته .



٦- التاريخ في نهج البلاغة والروايات الاسلامية :

بما أن نهج البلاغة كتاب عظيم ذا محتوى تربوي غني جداً ، وبما أن التربية بلا معرفة ، والمعرفة بلا تربية أمر محال ، فقد أكد هذا الكتاب على القضايا التاريخية كثيراً .

إن أمير المؤمنين عليه السلام عند حديثه عن الحوادث التاريخية بصورها وكأنه يأخذ بأيدي الناس الى مكان الحدث ويريهم فرعون وجنوده يقتفون آثار مستضعفي بني اسرائيل ومن ثم يشاهدون غرقهم في نهر النيل .

إنه يصور قوم نوح وقوم عاد وثمود تحت تأثير الدمار الشامل الذي خلفه الطوفان والصواعق والزلازل والأمطار الحجرية ، والناس يشاهدون أخذ هذه الأمم الطاغية واللاهية مع قصورهم ومدنهم بطغيانهم وهلاكهم في طرفة عين بحيث لم يبق إلا آثار الخراب والصمت القاتل المهيمن عليها ، وكل من سآخ في نهج البلاغة مرّ بهم ورجع بكنز هائل من العلم و المعرفة والخبرة . إن قدرة نهج البلاغة في تصوير الحوادث قدرة عجيبة حقاً ، وكذا الأمر عند بيانه لفلسفة التاريخ .

وقد شرحنا سابقاً كلام الإمام علي عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام حول تأثير التاريخ على طول عمر الإنسان ، طول يمتد بامتداد أعمار جميع البشر من حيث المعرفة والتجربة .

وهناك عبارات جميلة له (ع) حول جري السنن التاريخية حيث يقول :
«عباد الله إنَّ الدهر يجري بالباقيين كجريه بالماضين ، يعود ما قد ولّى منه، ولا يبقى سرمداً ما فيه ، آخر فعالة كأوله ، متشابهة اموره ، متظاهرة أعلامه»^(١).
وفي تفسيره للإيمان باعتباره ذا أربعة أعمدة الصبر واليقين والعدل والجهاد () ، يقول : « اليقين منها على أربع شُعَب ، على تبصرة الفطنة وتأوّل الحكمة ، وموعظة العبرة وسنة الأولين »^(٢).

ويقول عليه السلام في موضع آخر :

« واعلموا عباد الله انكم وما انتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم ، ممن كان اطول منكم اعماراً ، واعمر دياراً ، وابتعد آثاراً ، اصبحت اصواتهم هامدة ، ورياحهم راكدة ، واجسادهم بالية ، وديارهم خالية ، وآثارهم

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٥٧ .

(٢) نهج البلاغة ، الكلمات القصار ، الجملة ٣١ .

عافية ، فاستبدلوا بالقصور المشيدة ، والنمارق الممهدة ، الصخور والاحجار المسندة ، والقبور اللاطئة المُلحَدة التي بُني على الخراب فناؤها وشيّد بالتراب بناؤها»^(١).

ويقول في خطبة اخرى :

« فاعتبروا بما اصاب الامم المستكبرين من قبلكم . من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته . واتّعظوا بمثاوي خدودهم ومصارع جنوبهم »^(٢).

كما يقول في نفس الخطبة :

« فانظرو كيف كانوا حيث كانت الاولاد مجتمعة والاهواء مؤتلفة . والقلوب مهتدلة . والايدي مترادفة . والسيوف متناصرة ، والبصائر نافذة والغرائم واحدة ، الم يكونوا أرباباً في اقطار الأرضين ؟ وملوكاً على رقاب العالمين ؟ ! فانظروا الى ما صاروا اليه في آخر امورهم ، حين وقعت الفرقة ، وتشّت الألفة ، واختلفت الكلمة ، والافئدة ، وتشعبوا مختلفين ، وتفرقوا متحاربين ، قد خلع الله عنهم لباس كرامته ، وسلبهم غضارة نعمته ، وبقي قصص اخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين »^(٣).

ويقول في خطبة اخرى :

« وان لكم في القرون السالفة لعبرة ، أين العمالقة ؟ وابناء العمالقة اين الفراعنة وأبناء الفراعنة^(٤) ؟ اين اصحاب مدائن الرّس^(٥) الذين قتلوا النبيين ،

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٢٢٦ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٢ (الخطبة الناصعة) .

(٣) نفس المصدر .

(٤) العمالقة : أقوام قوية و متمكنة وجبارة وظالمة كانوا في شمال العراق ، وقد فتحوا « مصر » وحكموها لفترة في عهد الفراعنة .

(٥) يعتقد الكثير ان اصحاب الرس قوم سكنوا اليمامة جنوب الحجاز ، وكان لهم نبي باسم حنظلة ،

واطفثوا سنن المرسلين ، واحيوا سنن الجبارين ؟ اين الذين ساروا بالجيوش ، وحزموا بالألوف ، وعسكروا العساكر ومدنوا المدائن؟^(١) .

كما أن الروايات الاسلامية اولت عناية كبيرة لهذه المسألة ، واعتبرتها أحد المصادر المهمة للمعرفة وبالأخص للمسائل الاخلاقية ، وتهذيب النفوس ، والالتفات الى واقعيات الحياة .

وقد جاء في رواية أن الامام امير المؤمنين عليه السلام عندما كان في طريقه مع عسكره الى صفين وصل الى مدينة (ساباط) ثم الى مدينة (بهر سير)^(٢) (المناطق التي كانت مركزاً لحكومة الساسانيين) التفت احد صحابته فجأة الى آثار كسرى (والملك الساساني المعروف) وانشد البيت :

جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد
فقال الامام عليه السلام : لِمَ لم تقرأ هذه الآيات : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانْكَبُوا كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ
فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾^(٣) .

وقد جاء في حديث الامام الصادق عليه السلام : إن داود عليه السلام خرج من المدينة وهو يقرأ (الزبور) ، وما من جبل أو حجر أو طير أو حيوان وحشي إلا ويقرأ معه ، وهو مستمر في طريقه حتى وصل الى جبل ، يعيش على قمته نبي عابد اسمه (حزقيل) ، أدرك مجيء داود عندما سمع ترتيل الجبال والطيور والوحوش ،

→ وقال البعض انهم قوم شعيب ، ويعتقد بعض آخر أن مدنهم كانت بين الشام والحجاز (يراجع تفسير نمونة الجزء ١٥ الصفحة ٩٢ للتفصيل الأكثر) .

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٢ .

(٢) يقول البعض انها مشتقة من الاصل الفارسي أي (بواردشير) او (دهاردشير) وهي إحدى المدائن السبعة التي كانت تقع غرب نهر دجلة (معجم البلدان الجزء ١ الصفحة ٥١٥) .

(٣) بحار الانوار الجزء ٦٨ الصفحة ٣٢٧ .

وعندها سأل داود النبيّ : هل تأذن لي بالصعود إليك ؟ فأجابهُ النبي العابد : لا ، فبكى داود ، فأوحى الله اليّ (حزقيل) بأن لا يوبّخ داود ، وأن يطلب من الله تعالى حسن العاقبة ، فقام حزقيل وأخذ بيد داود وجاء به اليّ محله .

فسأله داود : هل عزمت على الذنب يوماً ؟

فاجاب : لا .

ثم سأل : هل حصل عندك الغرور والعجب لكثرة عبادتك ؟

أجابه : لا ، ثم سأله : هل رغبت في الدنيا وهل أحببت شهواتها ولذاتها ؟

أجاب : نعم ، نعم قد يخطر هذا في قلبي .

فسأله : ماذا تفعل آنذاك ؟ أجاب : أدخل في هذا الوادي واعتبر بالذي فيه .

فدخل داود الوادي ، فرأى أريكة من حديد وعليها جمجمة متآكلة وعظاماً

رميمة ولوحة مكتوبة ، فعرف داود : أن ذلك يتعلق بملك مقتدرٍ حكم سنين طويلة وبنى مدناً كثيرة . وقد بلغ به الأمر اليّ ما تراه ...^(١) .

آخر الحديث حول التاريخ المعلم :

إنّ ما ذكرناه عن التاريخ كمصدر للمعرفة والعلم مشروط بالامور الآتية :

أولاً : أن لا يدرس الانسان التاريخ للتسلية .

ثانياً : أن يدرس العلاقة الحقيقية بين القضايا التاريخية وأعمال الانسان ،

ولا يحلل القضايا التاريخية على أساس التبريرات الوهمية كالحظ والصدفة ، أو

المصير المحتوم أو القضاء والقدر (على التفسير الذي يعتقده الجاهلون ، والذي

تُسلب على أساسه قدرة الانسان في الاختيار) .

(١) بحار الانوار الجزء ١٤ الصفحة ٢٢ (ملخص الحديث) .

ثالثاً : أن يستنبط القوانين التاريخية الكلية من الحوادث الجزئية ، وأن يحقق في اصول ونتائج كل حادثة ثم يجعل نفسه مصداقاً لهذه القوانين ويخرج بالنتيجة .

رابعاً : أن لا يسعى ليجزّب الحوادث (التي جربت قبله) بنفسه ، وذلك لكي لا يكون مصداقاً لهذا الحديث « من جرّب المجزّب حلّت به الندامة » .
خامساً : أن يكون ناقداً للحوادث التاريخية ومميزاً للمسلمات عن المشكوكات والأساطير عن الواقعيات .

وخلاصة الحديث هو أن يتلقى التاريخ كمصدرٍ ملهمٍ للمعرفة والخبرة في حياته ، وليس بشكله المحرّف .



المصدر الرابع :

الفطرة

والوجدان

والشعور الباطني

٤ - الفطرة والوجدان والشعور الباطني

تلميح :

عندما يصل الانسان الى سنّ الرشد ، يتعرف على بعض الحقائق من دون معلم كاستحالة اجتماع الضدين أو النقيضين حيث تكون واضحة عنده .
ويدرك حسن وقبح كثير من الامور ، فالظلم عنده قبيح والعدل والاحسان عنده حسن .

وعندما يقوم بعمل مشين ، يسمع صوت رادع باطني يؤنبه على عمله ،
وعندما يأتي بعمل حسن يشعر بالطمأنينة والرضا النفسي .
يستأنس بالجمال ويحب العلم والمعرفة .
يحس في باطنه ارتباطاً بمبدأ مقدس ، وبتعبير آخر : إن في باطنه ما يجره
ويجذبه الى الله عزّ وجلّ .

وهذا يكشف عن وجود مصدرٍ للمعرفة في باطن الانسان غير المصادر
التي قرأنا عنها سابقاً ، يطلق عليه « الفطرة » ، وتارة « الوجدان » واخرى « الشعور
الباطني » .

ولتعيين حدود العقل وحدود الفطرة نتأمل الايضاحات الآتية :

إنَّ الرُّوحَ ظاهرة عجيبة ذات جوانب وأبعاد متعددة ، ندرك بعضها ، ونجهل الآخر ، كما أن لها نشاطات مختلفة بمحاذاة جوانبها المختلفة .

وإنَّ العقل يشكل قسماً من الروح ، ووظيفته التفكير ، كما أن هناك قسماً آخر وهو الحافظة ووظيفتها حفظ المعلومات و تخزينها وتقسيمها وتبويبها واستخراج المراد والمطلوب منها - بشكل معجز - من بين الملايين من المفاهيم والحوادث والذكريات .

والقسم الآخر هو العواطف أو مركز الحب والعشق والعداء والخصومة والبغضاء .

والقسم الآخر هو الأعمال الباطنية كالاختيار والارادة والعزم والتصميم .
والخلاصة ينبغي القول : إن الروح بحر عظيم ملؤه العجائب والغرائب ، وإن القوانين التي تحكمها قوانين متنوعة ومعقدة للغاية .

إلا أنه يمكن تقسيم الروح الى قسمين كليين :

١ - القسم الذي يتعلق بالتفكير والادراكات النظرية ، أي ما يكتسبه الانسان عن طريق الاستدلال .

٢ - القسم الذي يتعلق بالادراكات البديهية الضرورية ، أي ما هو حضوري ومعلوم عند الانسان بلا دليل أو برهان .

وكلما تحدثنا عن الفطرة والوجدان ، فإن مرادنا هو القسم الأخير من الادراكات .

(الفطرة) : وتعني الخلقة الاولى ، أي خلق الروح والنفس ممتزجة مع مجموعة من المعلومات الفطرية .

و (الوجدان) : ما يجده الانسان في نفسه من دون حاجة لتعلمه .

و (الشعور الباطني) : الادراك الباطني للانسان الذي يستلهم منه

الانسان ، وعلى أية حال ، فان مما لا شك فيه أن هذ الشعور أحد مصادر العلم ومعرفة الحقائق ، الذي قد يعبر عنه بـ « القلب » وهو يختلف بوضوح عن « العقل » الذي هو مركز الادراكات النظرية بالرغم من أنهما فروع لشجرة واحدة وثمرتان لروح الانسان (فتأمل) .

بالطبع ، ليس كل ما قيل هنا متفق عليه من قبل الفلاسفة جميعهم ، بل أردنا الإشارة الى هذا الموضوع ، وسنعيد الإشارة إليه مرةً أخرى بشكلٍ استدلالي ان شاء الله .

وبعد الالتفات الى هذه الملاحظة ، نتأمل في القرآن لنرى كيف يكشف لنا عن هذا المصدر .



نقرأ أولاً الآيات الآتية :

١- ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾

(الشمس / ٧ - ٨)

٢- ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(الانبياء / ٦٤)

٣- ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴾

(لقمان / ٢٥)

٤- ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾

(العنكبوت / ٦٥)

٥- ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾

(البقرة / ١٣٨)

٦- ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

(الرحمن / ٣ - ٤)

٧- ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

(العلق / ٥)

٨- ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا

تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الروم / ٣٠)

معاني المفردات :

إنَّ كلمة « الهمها » مأخوذة من مادة « الألهام » أي - كما يصرح به كبار اهل اللغة - الشيء الذي يقع في قلب الانسان ، ويقول الراغب في مفرداته : « الألهام : إلقاء الشيء في الروح ويختص ذلك بما كان من جهة الله وجهة الملائكة الأعلى » . والروح يعني القلب . اما الرُّوع فيعني الخوف والانبهار .

ثم استشهد بالاية ﴿ فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ كدليل على ما قاله .

وقد جاء في لسان العرب : أنها من مادة (لَهم) وتعني البلع ، والالهام يعني التلقين الالهي ، وهو نوع من أنواع الوحي (الوحي بمعناه العام) .

ومع الالتفات الى أصل هذه الكلمة يمكن العثور على سبب الاطلاق ، وكأن الروح تفتح فم الانسان وتلقي فيه حقيقة بواسطة التعليم الالهي فيمضغها فمه .

(الفطرة) جاءت من مادة فَطَرَ ، ويعتقد البعض انها في الاصل تعني »

البَقْر» وهو الشَّقُّ^(١) ، بينما يعتقد البعض الآخر أنها تعني الشق طولاً ، ثم استعملت بمعنى الخلق ، وكأنَّ ستار العدم يُبْقَر ويُمزَّق فتخرج منه الموجودات الحية ، كما يقال للعمل المنافي للصوم كتناول الطعام (إفطار) ، فيقال : إن ذلك بسبب بَقْرِ شيء ممتد ومتصل .

ويقال للنبات الذي يفطر الأرض ويبقرها « فُطِر » لانه يبقر الأرض ويخرج منها ، هنا يطلق على حلب الثدي بالأصابع « فَطَر » .

كما ان العجين اذا اختمر وصَيَّرَ خبزاً اطلق عليه (فَطَر)^(٢) .

وعلى كل حال ، فان المراد من هذه المفردة في الآيات هو الخلقة الالهية الاولى ، والهداية التكوينية نحو حقائق مودعة في روح الانسان وهو مجبول عليها .

وأما كلمة (النفس) - وكما أشرنا سابقاً - فتعني « الروح » وقد يطلق على ذات الشيء « نفس الشيء » كما جاء ذلك في القرآن الكريم (ويحذركم الله نفسه) كما قد جاءت هذه المفردة بمعنى « الدم » و « العين » و « الشخص »^(٣) . كما أنها قد تطلق اطلاقاً خاصاً على « النفس الامارة » إلا أنها جاءت في الآيات هنا بمعنى « الوجدان » الذي يشكل قسماً من روح الانسان .

وكلمة (صِبْغَة) مشتقة من مادة « صَبَغ » أي طلى لوناً ، ويطلق على نتيجة العمل « صبغة » ، و « صِبْغ » يعني الطعام الذي يؤكل مع الخبز بحيث يكون الخبز كالصبغة لذلك الطعام ، وادعى البعض أنه يعني زيت الزيتون الذي يغمس فيه الخبز ويؤكل .

(١) لسان العرب .

(٢) كتاب العين ، ولسان العرب ، ومفردات الراغب .

(٣) مجمع البحرين الطريحي ، مادة نفس ، ومفردات الراغب .

ويقول الراغب : إن « الصبغة » المذكورة في الآية إشارة الى العقل الذي جُبل عليه الانسان وميّزه عن الدواب ، وهو كالفطرة^(١) .

إن التعبير بالصبغة - كما يقول عدد من أئمة اللغة - قد يكون بسبب أنَّ « النصارى » يغسلون الوليد بعد اليوم السابع بماء ممزوج بمادة صفراء اللون (غسل التعميد) معتقدين ان هذا الصبغ يطهره وينزهه ، والقرآن يصرح لهم : إن صبغة الاسلام والتوحيد أحسن من هذه الصبغة وأشرف .
وعلى هذا ، فالتعبير بالصبغة يتناسب كثيراً مع الفطرة والخلقة الاولى ، خاصة وأن بعض الروايات فسرت الصبغة بـ « الاسلام والولاية »^(٢) .



جمع الآيات وتفسيرها :

في الآية الاولى بعد أن أقسم الله بالنفس وبالذي سواها وما فيها من قابليات ، أشار الى المصدر المُلهم للمعرفة وهو « الوجدان الاخلاقي » ، وقال : إن الله ألهم الانسان المعرفة في مجال التقوى والفجور .

وقد جاء في آية اخرى ما يماثل مفاد هذه الآية ، فبعد إشارته الى خلق الانسان قال : وهديناه النجدين .

وينبغي الالتفات هنا الى أن « نجد » - في الأصل - المكان المرتفع ويقابله « تَهامة » اي الارض المنخفضة ، إلا أن النجد هنا - بقرينة ما قبل وما بعد الآية ، وبقرينة بعض الروايات التي فسرت النجد - كناية عن الخير والشر وعوامل

(١) مفردات الراغب ، مادة (صبغ) .

(٢) تفسير البرهان الجزء ١ الصفحة ١٦٧ - ١٥٨ .

السعادة والشقاء^(١).

كما ان الآية : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ أَمَّا شَاكِرًا وَ أَمَّا كَفُورًا ﴾ (الانسان / ٣) قد تشير الى نفس المعنى ، او على الأقل تندرج « الهداية الفطرية » في المفهوم العام للهداية التي جاءت في هذه الآية .

والآية الثانية ناظرة الى تحطيم الاصنام من قبل بطل التوحيد ابراهيم الخليل عليه السلام : ومحاكمة عبدة الاصنام له في بابل ، فعندما سُئِلَ : ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ ؟

أجابهم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ .
ثم قالت الآية : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي ظالمون لأنفسهم ولمجتمعهم و ربهم وخالقهم الذي يغدق عليهم النعم .
يعتقد بعض المفسرين : ان عبارة : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ تعني لوم احدهم الآخر ، إلا أن هذا خلاف ظاهر الآية ، فالتفسير الاول أصح .
نعم ، إنه الضمير الذي يجعل عبدة الأصنام المغرورين يلومون أنفسهم ويوبخونها .

إن التعبير بـ (النَّفْسُ اللَّوَامَةُ) في الآية الشريفة : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴾ (سورة القيامة / ٢) ، خاصة وان الله قرنها بيوم القيامة ، إشارة واضحة الى هذه المحكمة الباطنية والوجدان الفطري .

والآية الثالثة تشير الى أمر المشركين ، حيث يعرضون عن اتباع آيات الله عندما يُدْعَوْنَ إليها ويصرون على اتباع ما كان عليه آباؤهم ، فيقول الله في هذا

(١) تفسير القرطبي الجزء ١٠ الصفحة ٧١٥٥ ، ومجمع البيان الجزء ١٠ الصفحة ٤٩٤ .

المجال : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ، وبالرغم من ذلك لم يخضعوا لله تعالى ، بل لأصنامهم التي صنعوها بأيديهم لجلههم ! ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وجوابهم على هذا السؤال عن خلق السموات والارض ، يمكن ان يكون نابعا عن « الفطرة » ، ويوضح حقيقة أن الانوار الالهية متأصلة في الانسان منذ تكوينه فطرياً ولكن الناس غافلون عن هذا الحكم الفطري ، فيذهبون عنه شططاً .



وتشير الآية الرابعة الى نفس المفاد الذي جاء في الآية الثالثة ، فقد وضحت التوحيد الفطري الذي يتجلى في باطن الانسان عندما يمرّ بالأزمات والشدائد ، ومثال ذلك أن الناس عند ركوبهم السفينة ومواجهتهم الامواج المتلاطمة والزوابع والعواصف يذكرون الله ، لانهم لا يجدون احداً يستطيع انقاذهم آنذاك من الشدائد غير الله .

فعندما ترفع ستائر التقاليد الخرافية والالوهام والتعاليم الخاطئة وتتجلى فطرة البحث عن الله ، يذكرونه ويدعونه باخلاص كامل .

وما أن أي يهدأ البحر أو يصلوا الى الساحل ، حتى تساورهم الأفكار الملوثة بالشرك مرة اخرى وتستعيد الأصنام وجودها في قلوبهم وتسدل ستاراً على فطرتهم مرة ثانية ؟



والآية الخامسة ، بعد ما عدت التوحيد دين وملة ابراهيم وانبياء آخرين

كاسماعيل واسحاق ويعقوب وموسى وعيسى عليه السلام قالت : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ .

إنَّ النصارى الذين يعتقدون بالتثليث ، ويغسلون أولادهم بغسل التعميد ، ويضيفون - أحياناً - مادة صفراء إلى الماء الذي يُغسل به ، ويشرعون عملهم باسم « الأب » و « الابن » و « روح القدس » يعتبرون هذا العمل مطهراً لهم من الذنوب التي ورثها من آدم عليه السلام ^(١) .

إنَّ القرآن أبطل هذه الأفكار جميعها وصرح : إن صبغة الله أحسن من هذه الصبغ الخرافية ، فسلموا لهذه الصبغة لتطهر أرواحكم من كل شرك وإثم وعبادة للأصنام .

وقد جاء في الروايات - كما قلنا سابقاً - أن المراد من الصبغة هو الاسلام والولاية ^(٢) ، وهذا تأكيد على وجود إلهامات فطرية في ذات الانسان .



والآية السادسة والسابعة تحدثتا بعد الإشارة إلى خلق الانسان تحدثتا عن تعليمه البيان وما لم يعلم .

وقد عرّفت آية اخرى الخالق عزّ وجلّ بأنه الذي علّم الانسان الكتابة ، حيث قالت : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ (العلق / ٤) .

وعلى هذا فهو معلم البيان كما هو معلم بالقلم ، وهو معلم الانسان مالم

(١) لقد جاء في قاموس الكتاب المقدس : أن غسل التعميد احد القواعد المقدسة التي كانت معروفة قبل ظهور المسيح عليه السلام ، وهو من فرائض الكنيسة ، ويستعملون فيه الماء ويثلاثون عليه ، ويعتبرونه مطهراً من النجاسات ويعتقد الكثير من المسيحيين أن الغسل هذا واجب على اولاد المؤمنين (القاموس الصفحة ٢٥٧ - ٢٥٨) .

(٢) تفسير الميزان الجزء ١ الصفحة ٣١٦ ، وتفسير الدر المنثور الجزء ١ الصفحة ١٤١ .

يعلم ، وهذه التعاليم قد تكون تلميحاً الى التعاليم الفطرية المودعة في باطن الانسان بشكل معلومات ملخصة وأولية ، وقد تكون تلميحاً للوسائل والأسباب والمقدمات التي جعلها الله في الانسان ، والتي تمكنه من اختراع اللغة والخط ، واكتشاف واقعيات الكون الاخرى .

وعلى المعنى الاول تكون الايات شاهداً على بحثنا .

اما الآية الثامنة في البحث فقد تحدثت عن دين الفطرة وأمرت الرسول بأن: ﴿ أَقِمُّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ .

الجميل هنا أن القرآن لم يذكر كون معرفة الله فطرية فحسب ، بل ان الدين بجميع أبعاده وجوانبه فطري .

والأمر كذلك بالضرورة ، وذلك لتنسيق الموجود بين جهاز « التكوين » وجهاز « التشريع » أي ان ما جاء مفصلاً في عالم التشريع ، جاء بصورة مجملة في عالم التكوين ، وعندما يتفق نداء الفطرة مع نداء الانبياء والشرعة ، فان هذا الاتفاق يجعل الانسان في طريق الهدى .

وسنخوض تفصيلاً في هذا الموضوع عند بحثنا في التوحيد الفطري في المجلد الثاني ان شاء الله .

النتيجة :

طبقاً لما قرأناه ، فإن القرآن المجيد يعتبر « الفطرة » أو « الوجدان » مصدراً غنياً للمعرفة ، وقد دعا الجميع - بتعابير مختلفة - للالتفات الى هذا المصدر لأهميته البالغة .



إيضاحات :

١ - فروع الفطرة والوجدان :

إنَّ المعلومات الفطرية والوجدانية لها فروع مختلفة و أهمها الفروع الاربعة التالية ، والجميل أن كل آية من الآيات التي جاءت في أول البحث أشارت الى فرعٍ من هذه الفروع ، وهي :

١ - إدراك الحسن والقبح - أي الاخلاق التي يطلق عليها - أحياناً - « الوجدان الاخلاقي » ، وتعني أن الانسان يعدُّ كثيراً من الصفات حسنةً مثل « الاحسان » و « العدل » و « الشجاعة » و « الايثار » و « العفو » و « الصدق » و « الامانة » وغير ذلك من الصفات ، من دون أن يتعلمها من أحد .

ويعد قبالة هذه الصفات ، صفات قبيحة مثل « الظلم والجور » و « البخل » و « الحسد » و « الضغينة » و « الكذب » و « الخيانة » وأمثالها .

والآية : ﴿ فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ تشير الى هذا النوع من التعاليم الفطرية .

٢ - إدراك البديهيات العقلية : التي تعتبر أساس الاستدلالات النظرية ، ولا يمكن اقامة البرهان في أي موضوع دون الاستناد اليها .

وتوضيح ذلك : أن في الرياضيات مجموعة من القضايا البديهية تنتهي إليها جميع الاستدلالات الرياضية وهي وجدانية ، مثل (الكل أكبر من الجزء) ، وإذا

تساوى أحد شيئين متساويين مع شيء آخر ، تساوى كل منهما مع الشيء الآخر ، أو اذا أنقصنا مقدارين متساويين من شيئين متساويين أو اضعفنا ذلك المقدار الى كل منهما فالنتيجة تساويهما كذلك .

وكذلك الأمر بالنسبة للاستدلالات العقلية الفلسفية ، فلا يمكن الاستدلال من دون الاستناد الى قضية استحالة اجتماع الضدين او النقيضين وغير ذلك مثلاً .
ويستخدم القرآن - أحياناً - هذه الاصول المسلّم بها لاثبات قضايا مهمة ، كما في قوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر / ٩) ويقول في آية اخرى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ (الرعد / ١٦) .

٣ - الفطرة المذهبية - أن الانسان يتعلم بعض القضايا والمسائل العقائدية من دون الاستعانة بمعلم او استاذ كمسألة معرفة الله والمعاد وقضايا عقائدية اخرى يأتي شرحها في المجلد الثاني ان شاء الله .

والآية : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ تشير الى هذا القسم من المعرفة الفطرية .

ولهذا السبب نرى الايمان بمبدأ مقدس موجوداً على مرّ العصور ، كما أن لدينا قرائن تثبت تجذّر هذا الايمان عند الانسان البدائي كذلك ولا يمكن اتساع هذا المعتقد واستمراره عند البشر عبر مرّ العصور إلا اذا كان متجذراً في فطرة الانسان .

٤ - محكمة الوجدان : إن في باطن الانسان محكمة عجيبة يمكن تسميتها « القيامة الصغرى » ، تحاكم الانسان على أعماله ، فتشجعه على الحسنات ، وتوبخه على السيئات ، ونجد هذه التشجيعات والعقوبات في باطننا جميعاً (بالطبع مع وجود اختلاف) ، وهي نفسها التي نقول عنها تارة : (إن ضميرنا

راضٍ) ، وتارة : (إن ضميرنا يؤنبنا) الى حدٍ حيث يسلب منا النوم ، بل قد يؤدي - احياناً - الى نتائج مفعجة مثل الانتحار والجنون والابتلاء بامراض نفسية والآية : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ تشير الى هذا القسم .

٢ - هل توجد معرفة فطرية ؟

بالرغم من ان الجميع يشعرون بوجود هذا المصدر في ذواتهم اجمالاً ، أي يشعرون بوجود مجموعة من الخطابات والالهامات ، او بتعبير آخر وجود ادراكات لا تحتاج الى معلم أو استاذ ، إلا أن بعضاً من الفلاسفة شكك في هذا المصدر ، وعلى العموم توجد ثلاث نظريات في هذا المجال :

الف - نظرية الذين يعتقدون أن كل ما لدى الانسان من معلومات موجود في باطنه ، وما يتعلمه في الدنيا ، يتذكره في الحقيقة ، لا أنه يتعلمه من جديد ! هذا ما نقل عن افلاطون واتباعه ^(١) .

ب - نظرية اولئك الذين يدّعون أن المعرفة بجميع اقسامها عند الانسان فطرية ، بالرغم من اذعانهم لِقابلية الانسان على ادراك القضايا المختلفة ، ويتصورون ان ادراكة الفطري انعكاس لتجاربه وحاجاته والضرورات الاجتماعية . اعتبر « فرويد » عالم النفس المعروف « الوجدان الاخلاقي » مجموعة من النواهي الاجتماعية والميول المكبوتة في ضمير الانسان . يقول : إن « الوجدان

(١) يقول افلاطون : إن الروح قبل حلولها في البدن ودخولها في العالم المجازي كانت في عالم المعقولات والمجردات و « المثل » ، أي انها أدركت الحقائق ونسيتها بمجرد دخولها في عالم الكون والفساد ، إلا أنها لم تمنح عنها بالكامل ، فالانسان كالظل والشبح فما هو في « المثل » يتذكره بمجرد الالتفات إليه ، فكسب العلم والمعرفة تذكر في الحقيقة ، واذا كان الانسان جاهلاً منذ البدء فلا يمكنه تحصيل العلم (مسير الحكمة في اوربا الجزء ١ الصفحة ٢٣ - نظريات افلاطون) .

الاخلاقي « لا يمثل سلوكاً ذاتياً وعميقاً لروح الانسان ، بل إنه رؤية باطنية بسيطة للنواهي الاجتماعية ، ولا يوجد في تاريخ المجتمع ولا تاريخ الفرد تصورات بدائية عن حسن الأشياء وقبحها ، وقد تولدت هذه التصورات من البيئة الاجتماعية وتشعبت عنها^(١) .

وقد فسر أتباع المذهب المادي (الديالكتيك) الادراكات الفطرية على أساس مقولتهم المعروفة « كل شيء وليد الظروف والاضاع الاقتصادية » ، فانكروا وجودها .

ج - نظرية اولئك الذين يرون أن قسماً من معلوماتنا فطرية والقسم الآخر مكتسب ، والمعلومات المكتسبة تنتهي الى تلك المعلومات الفطرية وهي أساسها .

وقد أثبتت الأدلة المنطقية العقلية ، والأدلة النقلية من الآيات و الروايات هذه النظرية وذلك للأسباب الآتية :

أولاً : أننا نعتقد بوجود قضايا بديهية مُسَلَّم بها في الرياضيات وبدون تلك البديهيات لا يمكن اثبات أية قضية رياضية ، كذلك الأمر بالنسبة للقضايا الاستدلالية الاخرى ، فلا بد من اعتمادها على قضايا بديهية مُسَلَّم بها تكون الأساس لكل استدلال .

وبعبارة اخرى : لو أنكرنا القضايا الفطرية بالكامل لأنكرنا جميع معارفنا ، لان جميع القضايا العقلية ستكون مرفوضة ، وسنسقط في النهاية في وادي السفسطة .

وإذا أثبتنا - مثلاً - بالحس والتجربة أو بدليل عقلي وجود أمر ما ، فاذا كنا

(١) افكار فرويد الصفحة ١٠٥ ، و مجموعة ماذا أعلم - للأمراض اخر الروحية - الصفحة ٦٤ (بالفارسية) .

غير واثقين بقضية « استحالة اجتماع النقيضين » التي تعتبر من القضايا البديهية جداً ، فعندئذ يمكننا التشكيك بالأمر ، والقول بإمكانية عدم وجود الامر الذي اثبتنا وجوده !

وإذا أردنا اثبات هذه الاصول البديهية بالتجربة والاستدلال فسينتهي الأمر بنا الى الدور والتسلسل ولا تخفى سلبيات هذا الأمر على أحد .

ثانياً : فضلاً عما سبق ، فكما نردّ السفسطائيين (الذين ينكرون كل شيء) وكذا المثاليين (الذين ينكرون الحقائق الخارجية ، ويعتقدون بالامور الذهنية فقط) بالاستناد الى الوجدان ونقول : أن الوجدان يشهد ببطلان مثل هذه العقائد ، لأننا ندرك أنفسنا والعالم الخارجي الذي يحيط بنا بوضوح ، فكذلك الامر هنا ، لأن هذه الضرورة الوجدانية دليل على وجود كثير من الادراكات الباطنية .

وكما أننا نحس بحاجات جسمية وروحية كثيرة (الحاجات الجسمية مثل الاكل والشرب والنوم ، والروحية مثل الميل الى العلم والاحسان والجمال والعبادة والقداسة) ويقول بعض علماء النفس : أن هذه المقتضيات تشكل الابعاد الاربعة لروح الانسان) .

فهذا الوجدان ذاته يصرح لنا بحسن الاحسان و العدالة وقبح الظلم والاعتداء ، وفي هذه الادراكات لانحتاج الى مصدر اجتماعي او اقتصادي او غير ذلك بل يكفي الوجدان .

أنّ حجة أمثال « فرويد » و « ماركس » واضحة ، حيث أنهم يعتقدون بأصل واحد وهو رجوع كل قضية اجتماعية وفكرية الى الجنس او الاقتصاد ، ويصرون على توجيه كل شيء على ضوء هذا الأصل .

ثالثاً : أن الموضوع واضح من وجهة نظر توحيدية ، لأننا اذا سلمنا أن الانسان خُلِقَ للتكامل على أساس سنة ألهية ، فلا ينبغي الشك في أن وسائل ودوافع مثل هذا التكامل يجب أن تكون مهيئة في ذاته ، وموجودة ، وان ما جاء به الانبياء وما ورد في الكتب السماوية متناسب وهيئة الانسان التكوينية . وعليه ، فحاكم التكوين والخلقة متناسب وفي تناسق كآمل مع عالم التشريع .

أو بتعبير آخر : فان صفوة هذه التعليمات مودعة في ذات الانسان وان ما جاء في الشرائع السماوية هو شرح مفصل لهذه الصفوة من التعليمات . ولهذا ، فلا يمكن التشكيك في التعاليم الفطرية التي يؤيدها العقل والرؤية الكونية التوحيدية .



سؤال :

لقد صرَّح القرآن : ﴿ وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ (النحل / ٧٨) .
 ألا يستفاد من هذه الآية أن لا وجود للمعلومات الفطرية أبداً ؟

الجواب :

أولاً : أنَّ الانسان في ساعات ولادته لا يعلم شيئاً قطعاً ، وحتى المعلومات الفطرية ليست فعلية ، وعندما يعرف نفسه ويصبح مميزاً يتحسس المعلومات النظرية ويدركها بلا معلم أو استاذ أو حسي أو تجربة ، وألاً فكيف يمكن القول بأن

الانسان يعلم كل شيء حتى بوجوده بالذات - بالتجربة وأمثالها^(١).

ثانياً : ألم نقل بأن القرآن يفسر بعضه بعضاً ؟

حيث ان آيات مثل : ﴿ فَالْهَمَّهَا فَجُورُهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ و ﴿ فَطَرَهُ اللهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ التي جاءت في أول البحث تفسر الآية : ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ ، فتكون المعلومات الفطرية مستثناة من هذه الآية .



سؤال آخر :

وقد يطرح هنا سؤال آخر عكس الاول وهو : أن القرآن الكريم أطلق كثيراً من مفردة « التذكير » على علوم الانسان ، مثل : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (النحل / ١٣) ويقول في آية اخرى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران / ٧) وفي اخرى أيضاً : ﴿ وَبَيِّنْ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (البقرة ٢٢١) .

ألم يكن المراد من هذه الآيات هو نفس ما ذهب إليه افلاطون ، أي ان العلوم عبارة عن تذكير لما هو موجود في سريرة الانسان ، وحاصل عنده منذ القدم ؟



(١) نقلت عبارة معروفة عن (دكارت) قال فيها : « كنتُ شاكاً حتى في نفسي ، ثم رأيت اني افكر ، فأدركتُ اني موجود » إنها عبارة مليئة بالأخطاء ، لأن الذي يقول : أنا أفكر فانه يعترف بالـ (انا) قبل اعترافه بالتفكير ، لا أنه يعترف بالتفكير قبل الأنا .

الجواب :

أن « التذكير » من مادة « ذكر » ومعناه الاولى - كما يقول أئمة اللغة - هو الحفظ ، وكما يقول الراغب في مفرداته : الذكر قد يطلق على حالة نفسية تُعين الانسان على حفظ العلوم والمعارف ، وقد يقال لحضور الشيء في القلب ، أو البيان ، وما جاء في لسان العرب قريب لما جاء في المفردات ، حيث قال : الذكر ، يعني الحفظ كما يعني الموضوع الذي جرى على الألسن .
وعلى هذا ، فالذكر والتذكر لا يعني حضور الشيء في القلب بعد النسيان أو استعادة الذكرى فقط ، بل يشمل جميع المعلومات .



٣ - « الفطرة » و « الوجدان » في الروايات الاسلامية :

لقد أشير في الروايات الاسلامية الى هذا المصدر كثيراً ونذكر هنا نماذج من تلك الروايات :

- ١ - قال رسول الله ﷺ في حديث معروف له : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه »^(١) .
- يدل هذا الحديث بوضوح على أن التوحيد ، بل حتى الاصول الاساسية للاسلام مودعة في فطرة الانسان^(٢) .
- ٢ - وقد جاء في حديث أن شخصاً سأل الامام الصادق عليه السلام عن الآية :

(١) بحار الانوار الجزء ٣ الصفحة ٢٨١ .

(٢) يأتي شرح هذا الحديث مفصلاً في المجلد الثاني من هذا التفسير .

﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ، فأجاب الامام عليه السلام : « التوحيد »^(١) .

٣- وفي حديث آخر أجاب عن نفس السؤال بهذا الجواب : « هي الاسلام »^(٢) .

٤- وقد قال الامام عليه السلام في حديث آخر في هذا المجال : « فِطْرَهُمْ عَلَى الْمَعْرِفَةِ »^(٣) .

٥- وقد جاءت روايات عديدة عن الامام الصادق عليه السلام فسرت الآية : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ بالاسلام^(٤) .

٦- وقد جاء في حديث قدسي : « خلقت عبادي حنفاء » . وقال صاحب مجمع البحرين بعد ذكره لهذا الحديث : يعني مؤهلين لقبول الحمد ، ثم اعتبر معنى الحديث نفس معنى الحديث المعروف « كل مولد يولد على الفطرة » .
وهناك ملاحظة جديرة بالذكر وهي : أن الروايات الاسلامية عبرت عن الاعمال الحسنة بالمعروف وعن الاعمال السيئة والقبيحة بالمنكر وتطلق هذه المفردة على الأمر المجهول ، فقد يُثَبِّتُ هذا الاطلاق أن الاعمال الحسنة امور تعرفها الروح وتستأنس بها وتسكن إليها اما الاعمال القبيحة والسيئة فهي امور تتنفر منها الروح ، ومجهولة عندها .



(١) (٢) (٣) اصول الكافي الجزء ٢ ، باب فطرة الخلق على التوحيد ، حديث ١ و ٢ و ٤ والروايات التي جاءت في هذا المجال كثيرة ويمكن الرجوع الى المصادر التالية : البحار الجزء ٣ باب ١١ من ابواب التوحيد واصول الكافي الجزء ٢ باب فطرة الخلق على التوحيد .
(٤) بحار الانوار الجزء ٣ الصفحة ٢٨٠ .

المصدر الخامس:

الوحي السماوي

٥ - الوحي السماوي

تمهيد :

توجد آيات كثيرة في القرآن الكريم حول هذا المصدر ، بل أن بحث هذا المصدر طرح في جميع الكتب السماوية ، وفي الحقيقة أن أتباع الأديان السماوية يعتبرون « الوحي » أهم مصدرٍ للمعرفة ، لأنه ينهل من العلم الألهي الواسع ، في حين ان المصادر الاخرى تتعلق بالانسان نفسه ، وهي محدودة جداً بالنسبة لهذا المصدر .

أن الرؤية الكونية الالهية تقول : أن الله عزّ وجلّ (ولأجل هداية البشر) أي بيان الطريق له (أوحى الى رجال الوحي (أي الرسل العظام) كل ما يحتاجه الناس في سبيل اجتياز الطريق الى التكامل والسعادة .

وفي الحقيقة ، أن العقل اذا كان ذا أنارة قوية فان الفطرة والوجدان والتجربة بمنزلة أنارة من نوع آخر ، و « الوحي » بمنزلة الشمس الساطعة ، الأكبر والأعظم من الانارتين السابقتين .

وعلى هذا ، فيُعدُّ الوحي - من وجهة نظر الالهيين - أهم وأغنى مصدر للمعرفة .

والآن نقرأ خاشعين الآيات الآتية :

١ - ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ

أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ ﴾

(الشورى / ٥١)

٢ - ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾

(النجم / ٣ - ٤)

٣ - ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾

(فصلت / ٦)

٤ - ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾

(الاسراء / ٣٩)

٥ - ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(البقرة / ٩٧)

٦ - ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾

(النحل / ٨٩)

٧ - ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا

الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ

عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(الشورى / ٥٢)

٨ - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾

(النحل / ٤٣)

٩ - ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ

وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾

(الحديد / ٢٥)

١٠- ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(الحجر / ٩)

١١- ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(آل عمران / ١١٨)

١٢- ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾

(النساء / ١٦٤)

شرح المفردات :

١- « الوحي » استعملت في القرآن والروايات والأدب العربي بمعانٍ كثيرة، ألا أن المعنى الأولي للوحي - كما يقول الراغب في مفرداته - هو « الإشارة السريعة » ، ولذا يقال للأعمال السريعة « وحي » ، كما يقال « وحي » للحديث الرمزي المتضمن كتابات ، والذي يُتبادل بسرعة ، والذي قد يحصل بالكتابة أو الإشارة ، ثم اطلقت هذه المفردة على المعارف الالهية التي تقذف في قلوب الانبياء والاولياء .

وللوحي أشكال متعددة ، فتارة يكون بمشاهدة ملك من الملائكة واستماع حديثه ، كما هو الحال بالنسبة لجبرئيل عليه السلام حيث كان الله يوحى الى الرسول ﷺ بواسطته .

وتارة باستماع صوته فقط دون مشاهدته كما كان يوحى الى موسى عليه السلام .

وتارة يوحى بالالقاء بالقلب فقط .

وتارة يوحى الله بالالهام فقط كما هو الحال بالنسبة لأُم موسى عليه السلام .

وتارة بالمنام (كالرؤيا الصادقة) (١).

١ ألا أن الخليل بن أحمد في كتاب العين يقول: أن أصل معنى «الوحي» هو «الكتابة»، ويقول ابن منظور في لسان العرب: أن الوحي يعني «الإشارة» و«الكتابة» و«الرسالة» و«الالهام» و«الحديث الخفي» و«كل خطاب يُلقى على آخر».

ومن مجموع ماتقدم نستشف أن «الوحي» في الأصل يعني الإشارة السريعة والحديث الرمزي والخطاب الخفي المتبادل بالرسائل أو الإشارات، وبما أن التعاليم الإلهية أوحيت إلى الأنبياء بشكل غامض، أطلقت مفردة «الوحي» عليها.

وذلك لأن الألفاظ التي نستعملها وضعت لمستلزمات حياتنا اليومية، فإذا أردنا أن نستعملها في الأمور الخارجة عن قضايانا اليومية، فينبغي توسيع معانيها، وتارة تجريدها أو استعمالها فيها بملاحظة مناسبة ما.

يقول الشيخ المفيد رحمته في «شرح الاعتقادات»: أن أصل الوحي يعني الكلام الخفي، أطلق على كل شيء قصد به تفهيم المخاطب بحيث يخفى عن الآخرين، وإذا نسب الوحي إلى الله عز وجل فالمراد به الخطابات التي تخص الأنبياء والرسل (٢).

٢ - أما «الانزال» و«التنزيل» فاشتقتا من مادة «نزول» وتعني - في الأصل - الهبوط والمجيء من المكان العالي إلى المكان الداني، وفرقهما عن النزول أنهما مصدران لفعلين متعديين في حين أن النزول مصدر لفعل لازم. وقد يكتسب الانزال معنى حسياً مثل ما جاء في هذه الآية: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ

(١) مفردات الراغب مادة «وحي».

(٢) سفينة البحار الجزء ٢ الصفحة ٦٣٨.

السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿ (الفرقان / ٤٨) .

وقد يكون بمعنى موهبة توهب من صاحب مقامٍ عالٍ الى صاحب مقامٍ
دانٍ : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ (الزمر / ٦) .

وقد يكون الانزال بمعنى ألقاء المعارف الالهية من قِبَلِ الله ، وقد استعمل
هذا المعنى في القرآن كثيراً .

وهناك بحث لأئمة اللغة في كون الانزال والتنزيل بمعنى واحد ، أو ان لكلٍ
معنى يختص به ، فبعض يقول : انه لا اختلاف في المعنى بينهما غير ان التنزيل
يفيد الكثرة فقط^(١) .

بينما يعتقد بعض آخر : ان « التنزيل » يفيد التدرج ، و « الانزال » يفيد
التدرج والدفعه الواحدة ، واعتمد الراغب في تفرقه هذا على الآية :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ
مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ
إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾

(محمد / ٢٠)

فالآية تحدثت أولاً عن طلب المؤمنين لنزول آيات الجهاد تدرجياً ، ثم
أشارت الى نزول حكم الجهاد بصورة قاطعة وجامعة ، وعندها ينظر المنافقون
الى الرسول نظر المغشي عليه من الموت .

٣ أن « تبين » اشتقت من مادة « بَيْنَ » أي المسافة الفاصلة بين الشيئين ،
ثم جاءت بمعنى « الايضاح » و « الفراق » ، وذلك لأن الفصل بين الشيئين
يستدعي هذين الأمرين ، ثم استعملت بعد ذلك لكلٍ من المعنيين بصورة
مستقلة ، فتارة تعني « الفراق » واخرى « الايضاح » .

(١) وهذا رأي صاحب لسان العرب ، حيث نقله عن ابي الحسن .

وقد جاء في « صحاح اللغة » أن « بين » تأتي بمعنيين متضادين هما ،
الفراق والآخر الاتصال . ويظهر أن معناهما في الأصل - كما جاء في غير صحاح
اللغة - هو الفراق ، ألا أن الفراق قد يؤدي إلى الاتصال بشيء آخر فاستعمالها في
للاتصال لانه يلزم الفراق .

وعلى أية حال فإن مفردة (تبين) جاءت في كثير من آيات القرآن بمعنى
الظهور والانكشاف والوضوح ، ولهذا يقال للدليل الواضح والمنكشف « بيّنة »
سواء كان عقلياً أو محسوساً ، فيطلق على الشاهدين العادلين (اللذين هما أمرّ
محسوس) « بيّنة » ، كما تطلق « البيّنة » على معاجز الأنبياء ، و « البيان » يعني رفع
ستار الأبهام عن شيء ، سواء كان بالنطق أو بالكتابة أو بالاشارة .

٤ - « التكليم » و « تكلم » من مادة « كلم » ، وفي الاصل - كما يقول الراغب -
يعني التأثير الذي يُرى أو يُسمع ، فالذي يُرى كجرح الآخرين ، والذي يُسمع فهو
الحديث الذي نسمعه من الآخرين .

يذكر الخليل بن أحمد في كتابه « العين » : أن أصل التكليم يعني « الجرح » ،
وعلى هذا فاطلاقه على النطق كان بسبب التأثير العميق الذي يتركه الحديث في
قلوب المستمعين له ، بل قد يكون تأثير الكلام أشد من تأثير السيف والخنجر ،
وكما يقول الشاعر العربي المعروف :

جراحات السنان لها التيام ولا يلتام ما جرح اللسان

ويستفاد من بعض العبارات إن « التكليم » و « التكلم » لهما معنى واحد ،
وكلاهما بمعنى النطق والحديث ، ولهذا عدت « متكلم » او « كلیم » احدي
صفات الله في حين إذا أردنا التقيد بالآية : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ينبغي
القول أن الله « مُكَلَّم » .

ولا يستبعد احتمال استعمال مفردة « التكلم » في موارد حيث يحدث

شخص شخصاً آخر ، ألا أن « التكليم » مثل « المكالمة » تطلق على الحديث المتبادل بين طرفين ، وكلام الله مع موسى عليه السلام في جبل طور من هذا القبيل . ومن هنا يطلق « علم الكلام » على علم العقائد ، لأنه يذكر أن أول بحث بُحث فيه بعد الاسلام هو كلام الله (القرآن) ، حيث كان البعض يعتقد أنه أزلي ، والبعض الآخر : أنه حادث . وقد أدى الخلاف في هذه المسألة في القرون الاولى من عهد الاسلام الى شجار ونزاعات شديده ، حدثت بين المسلمين آنذاك^(١) . ونعلم الآن أن ذلك النزاع لم يكن له أساس ولانتيجه ، لأنه إذا اريد من القرآن محتواه ، فالمسلم أنه كان مع علم الله أزلياً ، وإذا كان المراد منه ألفاظه وكتابته ونزوله بواسطة الوحي ، فهذا حادث في زمن بعثة الرسول ﷺ بلا شك ، وعلى أية حال ، فالهدف من هذا الحديث كان بيان وجه تسمية « علم العقائد » بـ « علم الكلام » .



شرح الآيات وتفسيرها :

شمس الوحي الساطعة :

أن قضية الوحي انعكست في القرآن بشكل واسع . وقد أشارت مئات الآيات الى الوحي كمصدرٍ عظيم للعلم والمعرفة ، حيث أشارت بعضها اليه بهذا العنوان « الوحي » وبعضها بـ « التنزيل » و « الانزال » وبعضها بـ « تبين الآيات الالهية » وبعضها بـ « تكليم الله الرسل » ، وبمصلحات اخرى .

(١) ذكر هذا الاحتمال في دائرة معارف القرن العشرين كاول احتمال في مجال التسمية هذه (دائرة

معارف القرن العشرين - فريد وجدي - الجزء ٨ مادة كلم) .

وأفضل تعبير في هذا المجال أن يقال : اذا كان العقل في المنظار القرآني بمثابة «مصباح» شديد الاضاءة لكونه مبيناً للحقائق ، فان الوحي « كالشمس الساطعة التي تضيء أرجاء المعمورة » .

أشير في الآية الاولى الى ثلاثة طرق من طرق اتصال الانبياء بالله عز وجل ، حيث قالت : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَيَّ حَكِيمٌ ﴾ فالطريق الاول هو الايحاء ، والثاني هو التكلم من وراء الحجاب كما تكلم الله مع موسى في جبل طور سيناء ، والطريق الثالث هو إرسال رسول لبلاغ الخطاب الالهي الى النبي ، كما كان يهبط جبرئيل عليه السلام على النبي ﷺ لبلاغه الخطابات الالهية .

وعلى هذا ، فالالهام القلبي وايجاد الامواج الصوتية (النقر في السمع) وهبوط ملك الوحي ، ثلاثة طرق لاتصال الانبياء بعالم ما وراء الطبيعة .



والآية الثانية بعد أن اقسمت بالنجم قالت : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ .

أن القسم (بالنجم اذا هوى) قد يكون إشارة الى غروب وافول نور الايمان والهداية عن الوجود في عصر الجاهلية ، الغروب الذي يكون مقدمة لطلوع آخر ، أي طلوع شمس الوحي على لسان الرسول ﷺ .

وعلى هذا الاساس ، فالآية أدرجت كلام الرسول ﷺ تحت أصل كلي ناتج عن الوحي والارتباط الغيبي .



والآية الثالثة أمرت الرسول بأن يتخذ موقفاً اتجاه مطالب بعض المشركين العجيبة وغير المألوفة ، ويقول لهم : أني لستُ ملكاً من ملائكة الله ولا موجوداً أعلى من البشر ولا ابن الله ، ولا شريكه ، ﴿ أَنَّمَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ وهذا (الايحاء) هو الذي يفرقني عنكم .

وعلى هذا ، فالرسول يمتاز عن بقية البشر بميزة خاصة وهي اختصاصه بمصدر المعرفة هذا (الوحي) .



والآية الرابعة ، بعد ما ذكرت ستة من أحكام الاسلام المهمة (حرمة قتل الاولاد وحرمة الزنا وقتل النفس والاقتراب من مال اليتيم ووجوب الوفاء بالعهد وايفاء الكيل) خاطبت الرسول ﷺ قائلة : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ .

وطبقاً لهذه الآية ، فان الاحكام الجزئية حالها حال اصول الدين والعقيدة توحى الى الرسول ﷺ .



أن خامس آية نزلت لتجيب على اولئك اليهود الذين قالوا : أن جبرئيل عدونا عندما سمعوا أنه يأتي الرسول بتعاليم الاسلام ، فأمرته الآية بأن يقول لهم : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

والتعبير في هذه الآية يكشف عن أن جبرئيل عليه السلام كان ينزل - أحيانا - آيات القرآن على قلب الرسول مباشرة في حين أن بعض الروايات تشير الى ان جبرئيل كان يأتي للرسول ﷺ على هيئة انسان احيانا ويقوم بابلاغه الخطاب

الالهى بهذا الطريق ^(١) .



والآية السادسة وضحت الحقيقة الآتية : أن القرآن الذي انزلناه على الرسول هو تبيان لكل شيء وحاملاً للهداية والرحمة والبشارة الى جميع المسلمين ، وعليه فإن جميع هذه المعارف تصدر عن هذا المصدر العظيم أي الوحي .
 بديهي أن المراد من « كل شيء » هو جميع القضايا التي تتعلق بسعادة الانسان ، فتعلم أن أسس جميع هذه القضايا قد جاءت في القرآن (سواء المادية منها أو المعنوية) في صورة قوانين كلية .



وقد صرحت الآية السابعة بأن القرآن روح نزلت على الرسول ﷺ من قبل الله عز وجل ، ولم يكن يدري ما الكتاب ولم يكن يدري ما الايمان ، وقد قيل للقرآن « روح » لأنه يبعث الحياة في قلوب المجتمع البشري ، وهذا حديث سَلَّمَ به كثير من المفسرين ^(٢) .

والمراد بـ : « ما كنت تدري ما الكتاب » هو أن الرسول لم يكن عارفاً بمحتوى الآيات قبل البعثة ، وهناك شواهد تاريخية وروايات تكشف عن سبق

(١) أصرَّ الفخر الرازي على تأويل الآية بما يتناسب مع ما ذهبت إليه الروايات من أن جبرئيل عليه السلام كان يتمثل امام الرسول ﷺ في صورة انسان ، وبما أن القلب هو مركز حفظ الآيات عبر الله بهذا التعبير ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ (تفسير الفخر الرازي الجزء ٣ / ١٩٦) ، لكننا لا نرى ضرورة لتأويل الآية بالشكل الذي قاله الفخر الرازي ، بل يمكن القول بأن اتصال جبرئيل عليه السلام بالرسول كان يتم بطريقتين : جسماني وروحي .

(٢) يقول الراغب : « سمي روحاً لكونه القرآن سبباً للحياة الاخرية » .

معرفته بالله للبعثة .

وعلى أية حال ان هذا تأكيد آخر على قبول « الوحي » كأهم مصدر للمعرفة ، لأن القرآن عُدَّ هنا « روحاً » و « نوراً » و « هداية » .

والآية الثامنة بعد ما تجاوزت نبوة الرسول ﷺ أشارت الى الانبياء من قبله وقالت : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ فاهم على ارتباط وعلم بمنبع المعرفة هذا .

وتحدثت الآية التاسعة عن « البينات » ونزول الكتب السماوية وقوانين الحق والعدالة على الرسل ، وقالت : أُنَّا أَنْزَلْنَا الرُّسُلَ مِنْ بَيْنِنَا لِيُنَظِّمُوا لَكَ شَأْنَكِمْ وَتُخْرِجُوا مِنَ الظُّلُمِ ، وهذه كلها امور ملهمة من مصدر الوحي .

وقد تحدثت الآية العاشرة عن انزال « الذكر » أي الآيات التي تكون سبباً لتذكر الناس ووعيتهم ، كما أن الله يعد الناس في هذه الآية بحفظ هذه الآيات من أي نقص او تحريف فالوحي - أذن - هو عامل يقظة الناس ، وبما أن الله له جافظ ، فسيحتفظ الوحي كمصدر مهم أو أهم للمعرفة .

وتقول الآية الحادية عشرة : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾
وهذا دليل واضح على أن الآيات الالهية سبب ليقظة العقول ونشاطها .

واخيراً ، وقد تحدثت الآية الثانية عشرة عن تكليم الله لموسى عليه السلام ، وقد
كان الكلام هذا مصدراً لمعرفة موسى الالهية ، وهو نوع من الوحي .
هذه نماذج من آيات القرآن التي صرحت - رافعة لأي ابهام وشبهة - بأن
الوحي مصدر أساس للمعرفة .

هذا في وقت ينكر فيه الفلاسفة الماديون هذا المصدر على الاطلاق ،
ويفسرونه بتفسيرات نقرأها في البحوث القادمة .

وبعدما اتضح أصل هذا المصدر ، نذهب الى قضايا مختلفة تحوم حوله .

إيضاحات :

١ - أقسام « الوحي » في القرآن المجيد :

لقد استعملت مفردة « الوحي » في القرآن المجيد في عدة معانٍ ، بعضها
تكوينية واخرى تشريعية ، وبصورة عامة فانها مستعملة في سبعة معانٍ :

١ - « الوحي التشريعي » وهو الذي يهبط على الرسل ، وقد جاءت في أول
البحث نماذج من الآيات التي استعملت فيها هذه المفردة بهذا المعنى .

٢ - « الالهامات التي توحى لغير الانبياء » كما هو الأمر بالنسبة لأُم موسى
﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ... ﴾ (القصص / ٧) .

وهناك ألهام يماثل هذا إلا انه يختلف عنه شكلياً ، كالذي حدث لمريم ،

حيث تمثل لها الوحي وبشرها بولادة عيسى (مريم / ١٧ - ١٩) .

٣- « وحي الملائكة » أي الخطابات الالهية التي توجه إليهم ، كما جاء ذلك في سورة الأنفال الآية : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ إِنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

٤ - « الخطاب مع الإشارة » كما جاء ذلك في حديث زكريا مع قومه : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (مريم / ١١) .

٥ - « اللقاءات الشيطانية الغامضة » كما جاء في الآية : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الانعام / ١١٢)

٦- « تقدير القوانين الالهية في عالم التكوين » كما في الآية : ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ (فصلت / ١٢)

وما جاء في شهادة الارض يوم القيامة : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ (الزلزال / ٥) قد يكون تلميحاً لهذا المعنى من الوحي .
وقد جاءت مفردة الوحي بمعنى « خلق الغرائز » كما في الآية : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (النحل / ٦٨)

ومن جهة اخرى فان هبوط الوحي على الرسل جاء على أربع صورٍ على الأقل ، كما جاء ذلك في القرآن المجيد ، وهي :

١ - صورة ملك يشاهده الرسول .

٢ - وسماع صوت الوحي دون رؤيته .

٣ - وفي صورة ألهام قلبي .

٤ - وفي صورة رؤيا صادقة ، كما جاء ذلك في قصة ابراهيم عليه السلام عندما أمره

الله أن يذبح ابنه اسماعيل (الصافات / ١٠٢) ، أو ما حصل للرسول ﷺ عندما بشره الله - بالرؤيا - بدخول المسلمين الكعبة آمنين (الفتح / ٢٧) .

وقد جاء في رواية أن أحد الصحابة سأل الرسول : كيف ينزل عليك الوحي ؟

فأجابه الرسول ﷺ : « يأتيني أحياناً مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ ، فيفصم عني وقد وعيتُ ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول »^(١) .

وفي حديث آخر عن الامام الصادق عليه السلام قال :

الانبياء والمرسلون على أربع طبقات : فنبىّ منبأ في نفسه لا يعدو غيرها ، ونبي يرى في النوم ويسمع الصوت ولا يعاينه في اليقظة ، ولم تبعث الى أحد وعليه إمام مثل ما كان ابراهيم على لوط عليه السلام ونبي يرى في منامه ويسمع الصوت ويعاين الملك ، وقد أرسل الى طائفة قلّوا أو كثروا كيونس عليه السلام... والذي يرى في نومه ويسمع الصوت ويعاين في اليقظة وهو إمام مثل اولي العزم وقد كان ابراهيم عليه السلام نبياً وليس بإمام حتى قال الله « اني جاعلك للناس إماماً قال : ومن ذريتي فقال الله : لا ينال عهدي الظالمين » من عبد صنماً أو وثناً لا يكون إماماً^(٢) .

٢ - ما هي حقيقة الوحي ؟

لقد قرأنا وسمعنا الكثير عن حقيقة الوحي ، لكن رغم ذلك كله ، فإن معرفتنا لحقيقته غير ممكنة ، لعدم ارتباطنا بهذا العالم الغامض ، وحتى لو فسرنا لنا الرسول بنفسه ، فإنه لا ينطبع شيء في أذهاننا عنه سوى شبح .
ومثلنا كمثل الأعمى منذ الولادة الذي يريد تصوير أشعة الشمس الجميلة ،

(١) بحار الانوار الجزء ١٨ الصفحة ٢٦٠ .

(٢) اصول الكافي ، باب طبقات الانبياء ، الجزء ١ .

وأما موج البحر الهائجة وأجنحة الطاووس الملونة والمنظر الخلّاب للورد وبراعم الحديقة الخضراء .

قد تحصل صور مبهمّة ومشوشة لهذه المخلوقات عند الأعمى ألا أن تصويرها الحقيقي أمر محال له .

لكننا نستطيع توضيح الوحي عن طريق آثاره وأهدافه ونتائجه ، ونقول : أن الوحي هو اللقاء الالهي الذي يتم بهدف تحقيق النبوة والتبشير والانداز ، أو نقول : أنه نور يهدي به الله من يشاء ، أو نقول : أنه وسيلة الارتباط بعالم الغيب وأدراك معارف ذلك العالم .

وقد يكون اختصاص حديث القرآن عن الوحي بآثاره ناشئاً من هذا السبب .

ينبغي أن لا نتعجب من هذا الأمر ، وأن لا نتخذ عدم ادراك حقيقته دليلاً على عدم الوجود ، أو نفسره بتفسير مادية جسمية ، فان في عالم الحيوانات التي نعدّها في مستوى أدنى من مستوانا فضلاً عن عالم النبوة ، تُشاهد آثار أحاسيس وأدراكات يعجز البشر عن ادراكها ، فانا نعلم ان بعض الحيوانات تضطرب قبل حدوث الزلزلة وتصرخ بصورة جماعية احياناً ، وتارة تحدث اصواتاً مروعة حاكية عن قرب وقوع حدث مفعج ، هذا كله بسبب تحليها بحاسة تستطيع بواسطتها أن تكشف قرب وقوع الزلزلة ، الأمر الذي تعجز عن كشفه أحدث تكنولوجيا في العصر الحاضر .

أو أن بعض الحيوانات تتنبأ بتغيرات الأحوال الجوية للأشهر القادمة ، فتبني بيوتها وفقاً لتلك الأحوال في الأشهر المقبلة عليها ، وتعد الطعام الذي يتناسب مع طول فصل المطر والشتاء ، فاذا كان طويلاً - مثلاً - يختلف مقداره عمّا لو كان قصيراً !

كما أن بعض الطيور قادرة على الهجرة الجماعية من المناطق القطبية الى الاستوائية أو بالعكس ، وقد يتم ذلك في الليل بل وحتى في الليالي وفي السماء الملبدة بالغيوم ، مع أن الانسان لا يمكنه السير في هذا الطريق وينجح باجتيازه بنسبة واحد بالمائة ، إلا بالاستعانة بالوسائل الدقيقة ، وكذا الأمر بالنسبة لبعض الحيوانات حيث تطلب صيدها في ظلام الليل الدامس ، وأحياناً تحت أمواج المياه وغير ذلك من الأمثلة التي يصعب على الانسان تصديقها ، ألا أن العلم أثبت صحتها .

أن هذه الواقعيات التي ثبتت بالعلم والتجربة تكشف عن وجود أدراك وشعور خاص لتلك الحيوانات لم نتحلّ به نحن ، بالطبع أن الاطلاع الكامل على عالم حواس الحيوانات الغامض أمر محال ، ألا أنه لا يمكن أنكار هذه الحقائق^(١) . فبالرغم من ان حواس الحيوانات أمر طبيعي لا يرتبط بما وراء الطبيعة ، الا اننا نعرف حقيقته ، فكيف يمكن لنا أن ننكر عالم الوحي الغامض او نشكك فيه بسبب عدم أدراكنا له ؟

لم نقصد من حديثنا الاخير الاستدلال على ثبوت مسألة الوحي ، بل أردنا نفي استبعاد وجود هذا العالم ، وهو جواب لأولئك الذين ينكرون وجوده بسبب عدم امكان ادراكه .

ولنا طرق واضحة لاثبات قضية الوحي منها :

- ١ - نشاهد من جهة رجالاً يدعون النبوة جاؤوا بكتب وتعاليم تفوق قدرة البشر الفكرية ، فالرسول الامي - مثلاً - كيف أمكنه الاتيان بكتاب ذي محتوى مجيد من مجتمع متأخر للغاية كمجتمع الحجاز في عصر الجاهلية ؟ !
- ٢ - ومن جهة اخرى فان دعوى الرسل مقترنة دائماً مع معاجز تفوق قدرة

(١) يراجع كتاب « عالم حواس الحيوانات الغريب » (بالفارسية) .

البشر ، وهذا يكشف عن ارتباطهم بعالم ما وراء الطبيعة .

٣- ومن جهة ثالثة ، فإن الرواية الكونية التوحيدية تقول لنا : أن الله خلقنا للتكامل والسير نحو ذاته المقدسة الأبدية ، وبديهي أن اجتياز هذا الطريق أمر غير ممكن لكثرة مصاعبه وانعطافاته وتعرجاته ومشاكله وخطاره لأننا نشاهد عجز العقل وضعفه في ادراك كثير من الحقائق ، وشاهدنا الاختلاف الفاحش بين العلماء والمفكرين ، وشاهدنا مصير الأمم التي وضعت قوانينها بالاعتماد على العقل فقط .

وعلى هذا ، فإننا نقطع بأن الله لم يترك الإنسان وعقله بل أمدّه بقيادة يرتبطون بعالم الغيب ، ويستفيضون من بحر العلم الإلهي ، وهذا هو الذي يعينه لاجتياز الطريق والوصول إلى الأهداف المقصودة .

وبهذه القرائن الثلاث أمكننا ادراك العلاقة بين عالم الإنسانية وعالم ما وراء الطبيعة ، وأمكننا الإيمان بالوحي رغم أننا لم نتعرف على حقيقته وماهيته ، وبتعبير آخر : أن علمنا بالوحي علم اجمالي وليس علماً تفصيلياً .



٣- الوحي عند فلاسفة الشرق والغرب :

سعى كثير من فلاسفة الشرق والغرب في العهد القديم والجديد إلى فتح الطريق أمامهم نحو عالم الوحي الغامض وسعوا إلى تفسيره بما يتناسب مع مبانيهم الفلسفية ، ألا أن دراسة بحوثهم في هذا المجال تكشف عن ضياعهم في متاهات الطريق ، ألا البعض منهم ، ولم ينجل لذلك البعض ألا شبح مبهم عن ذلك العالم .

يقول أحد العلماء :

كان الغربيون الى القرن السادس عشر كجميع الامم المتديّنة يقولون بالوحي لان كتبهم مشحونة بأخبار الانبياء ، فلما جاء العلم الجديد بشكوكه ومادياته ذهبت الفلسفة الغربية الى ان مسألة الوحي من بقايا الخرافات القديمة ، وتعالّت حتى انكرت الخالق والروح معاً ، وعللت ما ورد عن الوحي في الكتب القديمة بأنه اما اختلاف من المتنباة انفسهم لجذب الناس اليهم وتسخيرهم لمشيتهم ، واما الى هذيان مرضي يعتري بعض العصبيين فيخيل اليهم انهم يرون اشباحاً تكلمهم وهم لا يرون في الواقع شيئاً .

.. راج هذا التعليل في العالم الغربي حتى صار مذهب العالم الرسمي فلما ظهرت آية الارواح في امريكا سنة ١٨٤٦ واعاد العلماء البحث بها على قاعدة العلم التجريبي المقرر لا المفرد ولا على اسلوب التقليد الديني ولا من طريق الضرب في مهامة الخيالات .

توصلوا الى نتائج وان كانت غير ما قرره علماء الدين الاسلامي الا انها خطوه كبيرة في سبيل اثبات امر عظيم كان قد احيل الى عالم الامور الخرافيه «^(١) . هناك نظريتان مختلفتان لتبرير ظاهرة الوحي ، أحدهما للفلاسفة المتقدمين ، والاخرى للمتأخرين ، ألاّ أنهما لا تنطبقان مع حقيقة الوحي التي تستشف من القرآن . والنظريتان هما :

١ - يعتقد عدد من الفلاسفة المتقدمين أن منشأ الوحي هو «العقل الفعّال» ، والعقل الفعّال وجود روحي مستقل عن وجودنا ، وهو قرينة ، ومصدر لجميع علوم البشر ومعارفه ، كما يعتقدون بأن الأنبياء كانت لهم علاقة وثيقة مع هذا العقل الفعّال ، وكانوا يستلهمون منه ، وما حقيقة الروحي ألاّ هذه العلاقة . وفي الحقيقة ، لا دليل لهؤلاء لا ثبات مدعاهم القائل بأن الوحي هو عبارة

عن الارتباط والعلاقة مع العقل الفعّال ، إضافة الى هذا ، فانه لا دليل على وجود ما يزعمون وجوده أي « العقل الفعّال » كمصدر مستقل للعلوم ، كما ذكر ذلك في المباحث الفلسفية .

وعلى هذا ، فالنظرية المذكورة عبارة عن احتمال مبني على احتمال ، وفرضية مستندة الى فرضية ، ولم تثبت أي من الفرضيتين ، كما أنه لا حاجة لفرض « العقل الفعّال » بل يكفي القول بأن الوحي عبارة عن الاتصال بعالم ما وراء الطبيعة والذات المنورة ، أما كيف وبأي شكل يتم ذلك ؟ فهذا لم يتضح لنا . نحن شاهدنا آثاره فأما بوجوده ، دون أن نعرف حقيقته ، وكثير من حقائق هذا العالم حالها كحال الوحي .

٢ - يعتقد عدد من الفلاسفة المعاصرين أن « الوحي » هو تجلّ « علم اللاشعور » أو العلاقة الغامضة مع حقائق هذا العالم التي قد تنشأ من « النبوغ الباطني » تارة ، وتارة أخرى من « الرياضة الروحية » وعن مساعٍ من هذا النوع . وقد عدّ علماء النفس شخصيتين للإنسان : « الشخصية الظاهرة والارادية » وهي جهاز الادراك والتفكير والمعلومات الحاصلة بالحواس العادية ، والشخصية الاخرى هي « الشخصية غير المرئية واللاأرادية » التي قد يعبر عنها بـ « الوجدان الخفي » أو « الضمير الباطني » أو « علم اللاشعور » ويعتبر علماء النفس أنّ حلّ كثير من المشاكل الروحية كامن في هذه الشخصية .

أنهم يعتقدون ان مجالات فعالية ونشاط الشخصية الثانية اوسع بكثير من مجالات نشاط وفعالية الاولى .

وقد كتب أحد علماء النفس في هذا المجال :

يمكننا تشبيه الشخصية بقطعة ثلج عائمة في الماء ، وعادة ما يكون تسعها خارج الماء ، وهذا المقدار الخارج هو الشخصية الظاهرة أو عالم الشعور ، ويقابلها

الشخصية للأرادية او عالم اللاشعور ، حيث ان القسم الاعظم من النشاط الذهني لم نُحط به علماً ويحصل بشكل غير ارادي ، وهو بمثابة الاجزاء الثمانية من قطعة الثلج تحت الماء^(١) .

لا شأن لنا فيمن كشف الشخصية الثانية للانسان ، « فرويد » أم غيره ، كما لا شأن لنا في أن كلام المتقدمين فيه إشارة الى ما ذهب اليه المعاصرون أم لا ، المهم بالنسبة لنا هو أن كثيراً من علماء النفس ، بعد اكتشاف عالم اللاشعور وحل بعض المعضلات الروحية عن طريق هذا الاكتشاف ، سعى لتبرير ظاهرة الوحي بما يتناسب ويتفق مع هذا الاكتشاف ، حيث ادعوا أن الوحي هو ترشحات عالم اللاشعور التي تظهر عند الانبياء على شكل طفرات فكرية بالصدفة .

وقد ساعد الانبياء في ذلك احياناً - أمران : الاول النبوغ الفكري ، والثاني هو الترويض والتفكير المستمر .

وطبقاً لهذه الفرضية ، فان علاقة « الوحي » بعالم ماوراء الطبيعة ليست علاقة من نوع خاص ومغايرة للعلاقات الفكرية والعقلية لبقية أفراد البشر ، وان هذا لا يتم عن طريق وجودٍ روحي مستقل باسم « الوحي » ، بل هو انعكاس لضمير الانبياء الخفي ، وهذه الفرضية كالسابقة القائلة بأن الوحي هو الاتصال بالعقل الفعال ، تفتقد الدليل . وقد يكون المراد بهذا من هذا الكلام ليس اثبات حقيقة الوحي ، بل مرادهم أن ظاهرة الوحي لا تتنافى مع العلوم الحديثة ، ويمكن بتجلي عالم اللاشعور لدى الانبياء .

وبتعبير أوضح ، فان العلماء يصرون على تفسير جميع ظواهر العالم طبقاً للقوانين الطبيعية والاصول العلمية التي اكتشفوها ، ولهذا فانهم بمجرد مشاهدتهم لظاهرة جديدة ، يسعون الى تحليلها في اطار العلم الحديث ، واذا

(١) معرفة النفس ترجمة (الدكتور ساعدي) الصفحات ٦ و ٧ مع إيضاح بسيط (بالفارسية) .

افتقدوا الدليل في هذا المجال اكتفوا بالفرضيات .
 لكن تلقي ظواهر العالم بهذا الشكل ليس صحيحاً ، وهذا هو خطأ العلماء
 الطبيعيين ، فان مفهوم كلامهم هذا هو : اننا فهمنا الاصول والقوانين الاساسية
 للعالم ، ولا توجد ظاهرة خارجة عن أطر هذه القوانين والاصول .
 وهذا ادعاء محض ولا دليل له ، بل لنا دليل على العكس ، حيث نشاهد
 بمرور الزمن اكتشاف اصول وقوانين جديدة لنظام هذا العالم ، ولدينا قرائن تثبت
 أن نسبة ما نعلمه عن هذا العالم الى ما لا نعلمه كنسبة القطرة الى البحر .
 لقد عجزنا عن المعرفة الدقيقة لحواس الحيوانات الغامضة ، بل وحتى عن
 معرفة أسرار وجودنا ، لذا لا يمكننا سوى ادعاء معرفة قسم من هذه الأسرار فقط .
 فلماذا - أذن - هذا الاصرار كله على تبرير ظاهرة الوحي في أطر القوانين
 العلمية المكتشفة ، بل ينبغي القول : أن الوحي حقيقةً شاهدنا آثارها ولم نطلع
 على ذاتها وحقيقتها .



٤- فرضية كون الوحي غريزة :

أبدى بعض المفكرين الاسلاميين المتأثرين بأفكار العلماء الغربيين فرضية
 اخرى في مجال الوحي تختلف في الظاهر عن الفرضيتين السابقتين إلا أنها تتفق
 معهما جوهرياً .

وقد بُنيت هذه الفرضية على الاصول الآتية :

١- أن « الوحي » لغة يعني النجوى بهدوء ، واستعملت في القرآن بمفاهيم
 عدة تشمل أنواع الهدايات الغامضة ، بدءاً بهداية الجمادات والنباتات وانتهاءً

بهداية الانسان عن طريق الوحي .

٢ - أن الوحي نوع من انواع الغريزة ، وهداية الوحي ليس الا هداية غريزية .

٣ - أن الوحي هداية الانسان من وجهة نظر جماعية ، أي ان المجتمع الانساني بما هو كتلة واحدة ، له مسير وقوانين وحركة ، فيحتاج للهداية ، ودور « النبي » في هذا المجال كدور الجهاز المتسلم الذي يتسلم ما يحتاجه نوع البشر بشكل غريزي .

٤ - أن الأحياء تهتدي في مراحلها الاولى بواسطة الغريزة ، وكلما تكاملت ونما حس التصور والفكر عندها ، كلما نقصت قدرة الغريزة فيها ، وفي الحقيقة فان الحس والتفكير يستخلفان الغريزة ، وعلى هذا الاساس فالحشرات لها غرائز أكثر وأقوى ، والانسان أقل غرائزاً بالقياس الى الحيوانات الاخرى .

٥ - أن المجتمعات البشرية (من وجهة نظر اجتماعية) تسير دائماً في طريق التكامل وتتجه نحوه ، فكما أن الحيوانات في مراحل حياتها الابتدائية كانت تستند الى الهداية الغريزية بالكامل ، ثم اعتمدت تدريجياً على حواسها وتخيلها واحياناً تفكيرها ، وعندما نما عندها التفكير والحواس تدريجياً ، استخلفا الغريزة ، كذلك المجتمع البشري ، فبنموه وتكامل عقله ضعفت غريزة الوحي عنده .

٦ - أن للعالم البشري عهدين ، عهد هداية الوحي ، وعهد هداية التعقل والتفكير في طبيعة التاريخ .

٧ - أن الرسول ﷺ الذي ختمت به النبوة رسول للعهد القديم والحديث ، فانه من حيث مصدر الالهام الذي كان يستفيض منه (لا مصدر التجربة الطبيعية والتاريخ) فهو يتعلق بالعهد القديم . ومن حيث روح تعاليمه التي تدعو الى التفكير والتعقل ودراسة الطبيعة والتاريخ (التي ينتهي عمل الوحي بمجيئها) فهو يتعلق

بالعصر الحديث^(١).

أن المستخلص من هذه الفرضية أن الوحي نوع معرفة لاأرادية تشبه الغرائز وهي دون المعرفة الارادية التي تحصل عن طريق الحواس والتجربة والعقل ، وتضعف هذه القدرة « الوحي » كلما تكامل جهاز العقل والفكر ، فيستخلف العقل حينئذٍ الوحي ، ومن هذا الباب ختمت النبوة .

بالرغم من أن هذه الفرضية - صدرت عن مفكر اسلامي - الا أنها أضعف في بعض جوانبها من الفرضيات التي أبداه علماء وكُتَّاب غربيون في هذا المجال ، ومثلها من حيث فقدان الدليل ، ويمكن القول : أن هذه النظرية أسوأ نظرية أبدت في هذا المجال لحد الآن ، وذلك للامور الآتية :

أولاً - أن العلماء الغربيين عدوا الوحي شيئاً فوق الادراك الحسي والعقلي للانسان ، بينما عُدَّ في هذه النظرية شيئاً دون ذلك ، وهذا شيءٌ عجاب !
ثانياً - لم يَعِدَّ المفكرون الغربيون الوحي نوعاً من أنواع الغرائز الحيوانية ، في حين عُدَّ في هذه النظرية من ذلك القبيل .

ثالثاً - أن أمر الوحي واضح بالكامل لمسلم عارف بمفاهيم القرآن حيث يُعتبر نوعاً من الاتصال بالعالم الالهي ، وتسلم معارف عظيمة وجليلة للغاية من هذا العلم لم يستطع الانسان أن يصل اليها بالعقل .

أن الوحي من وجهة نظر القرآن الكريم هداية أرادية بالكامل وأرفع بكثير من « الهداية العقلية » ، - وكما قلنا سابقاً - فإننا اذا شبهنا العقل بنورٍ مصباح نير فان الوحي بمثابة الشمس الساطعة .

(١) مقدمة في الرؤية العالمية الاسلامية ، للشهيد المطهري (وقد ذكر الشهيد المرحوم النقاط السبعة السابقة التي تعكس رأي اقبال اللاهوري في كتابه « احياء الفكر الديني في الاسلام » بشكل ملخص ونقدها) .

يخاطب القرآن الناس - من جهة - قائلاً: ﴿ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾
(الاسراء / ٨٥) .

ومن جهة اخرى يصف الله علمه ويقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان / ٢٧) .

فوحي النبوة ارتباط بهذا العلم اللا متناهي ولهذا يصرح القرآن الكريم أن الله هو معلم الرسول ﷺ :

﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾

(النساء / ١١٣)

ان العقل والعلم البشري مهما نميا وتكاملا أضعف من أن يقودا الانسان الى طريق السعادة من دون هداية الوحي ، والدليل الحي لهذا الكلام هو مذاهب الفلاسفة وانحرافاتهم العجيبة .

ان الذين عُرفوا كمفكرين اسلاميين هم مفكرون غربيون في واقع امرهم ، وأفكارهم اتخذت صبغة الافكار الغربية ، ولهذا سعوا دائماً لذكر تبريرات طبيعية للامور غير الطبيعية .

ان الغربيين اذا اصرروا على ذكر تبريرات طبيعية للامور الغيبية ، فذلك لانكارهم عالم الغيب ، فلا ينبغي لأي مسلم اقتفاء أثرهم في ذكر تبرير طبيعي لمسألة كهذه .

من المؤسف أن الآثار السيئة لهذا التقليد نجدها في كثير من كتب اولئك المفكرين الذين غالباً ما درسوا في الغرب ، ومعلوماتهم عن الاسلام قليلة جداً .

٥ - كيف تَيَقِّن الرسول بأن الوحي من الله ؟

ان هذا السؤال من جملة الاسئلة التي طُرحت حول مسألة الوحي . كيف علم الرسول بان الوحي من الله وليس ألقاء شيطانياً ؟ وبتعبير آخر : ما هو مصدر هذا العلم واليقين ؟

ان الجواب عن هذا السؤال واضح ، فاضافة الى أن الفرق بين الالتقاءات الرحمانية والالتقاءات الشيطانية كالفرق بين السماء والارض ، فأن محتوى كل منهما يعرف نفسه ، وينبغي القول : أن الرسول عندما يتصل بالوحي يذعن بحقيقته بالنظر الباطني ، وأمره كالشمس الساطعة نهاراً ، فلا نعتني بالذي يشكك بوجودها ويقول : يُحتمل أن تكون وهماً لا أكثر ، وذلك لأن احساسنا بها قطعي ولا يقبل الشك .

يقول العلامة الطباطبائي رحمته الله عند تفسيره للآية ﴿ فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ (طه / ١١ - ١٢) .

وهذا حال النبي والرسول في أول ما يوحى اليه بالنبوة والرسالة ، لم يختلجه شك ولم يعترضه ريب في ان الذي يوحى اليه هو الله سبحانه ، من غير ان يحتاج الى أعمال نظر ، او التماس دليل ، او اقامة حجة ، ولو افتقر الى شيء من ذلك كان اكتساباً بواسطة القوة النظرية ، لا تلقياً من الغيب ، من غير توسط واسطة ^(١) .

ومن هنا يتضح سقم ما جاء في بعض الروايات من أن الوحي عندما نزل لأول مرة على الرسول في غار « حراء » ذهب الى بيت خديجة وقص عليها ما جرى و اضاف : أني أخاف (أي أخاف أن تكون الايحاءات شيطانية لا ألهية)

فطمأنته خديجة ، ثم ذهب الى ورقة بن نوفل (ابن عم خديجة) الذي كان متخذاً المسيحية ديناً له في عهد الجاهلية ، وكان يعرف القراءة والكتابة العربية والعبرية ، فطلب من النبي حكاية ما جرى له ... وبعدهما قصّ الرسول ﷺ الحدث له ، قال ورقة : أنه هو الوحي الذي كان يهبط على موسى ثم أضاف : ليتني أكون حياً عندما يخرجك قومك من هذه المدينة ^(١)

أن الاختلاف في هذا الحديث واضح . اذ كيف يحتاج الرسول الذي يتصل بعالم الغيب الى ورقة بن نوفل الكاهن النصراني ؟ وكيف يمكن الاعتماد على وحي مثل هذا ؟

لماذا لم يشك به موسى بن عمران عندما نزل عليه أول مرة في طور سيناء ؟ بالرغم من ان موسى سمع صوته فقط ولم يشاهده ، ألم تكن هناك أيد خفية وراء هذه الخرافات لتضعيف أعمدة الوحي والنبوة في الدين الاسلامي ؟



٦ - القرآن أغنى مصدر للمعرفة في الاحاديث الاسلامية :

نستمر في البحث مع الاشارة الى أهمية وغنى أكبر مصداق للوحي وهو القرآن المجيد اعتماداً على ما جاء على السنة الأئمة البررة ، كي يكون تأكيداً لأصل وموقعية القرآن كمصدرٍ عظيم للمعرفة ، كما يكون جواباً لأولئك الذين يذهبون شططاً ويعدون الوحي من « الغرائز الحيوانية » وأدنى من الادراكات

(١) نقل هذا المضمون كثير من المحدثين والمفسرين من أهل السنة منهم « البخاري في صحيحه » و « مسلم » و « سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن في بداية سورة العلق » كما ورد في « دائرة معارف القرن العشرين - مادة وحي - » .

العقلية ، ويعتقدون أن الانسان استغنى عن الوحي والمعارف التي تنشأ منه بعد تكامله العقلي !

١- قال الرسول الاكرم ﷺ مخاطباً المسلمين :

« إذا التبست عليكم الامور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن ... مَنْ جعله أمامه قاده الى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه الى النار ، وهو أوضح دليل الى خير سبيل ، مَنْ قال به صدق ، وَمَنْ عمل به أُجِرَ ، وَمَنْ حَكَمَ به عَدَلَ »^(١).

٢- ويقول الامام امير المؤمنين عليه السلام في احدى خطب نهج البلاغة :

« ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحُه ، وسراجاً لا يخبو توقده ، وبحراً لا يدرك مقره ، ومنهاجاً لا يضل نهجُه ، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه ، وفرقاناً لا يخدم برهانه ، وتبياناً لا تُهدم أركانه ، وشفاءً لا تخشى أسقامه ، وعزاً لا تُهزم أنصاره ، وحقاً لا تُخذل أعوانه ».

« فهو معدنُ الايمان وبحبوحته وينابيع العلم وبحوره ، ورياض العدل وغدرانه ، وأثافي الاسلام وبنياه »^(٢).

٣- ويقول الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام : سأل رجل الامام الصادق عليه السلام :

« ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة » ؟ فقال الامام : « لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ، ولا لناس دون ناس ، فهو في كل زمان جديد ، وعند كل قوم غرض الى يوم القيامة »^(٣).

والأحاديث الواردة في هذا المجال كثيرة في مصادر السنة والشريعة ، وقد

(١) نقل المرحوم العلامة المجلسي هذه الخطبة في بحار الانوار عن أبي سعيد الخدري من جملة حُطَب الرسول التي نقلها (الجزء ٧٤ الصفحة ١٧٧) .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٨ .

(٣) بحار الانوار الجزء ٨٩ الصفحة ١٥ .

ذكرنا ثلاثة فقط ، احدها للرسول ﷺ والآخر لأمر المؤمنين ﷺ وحديثاً للامام الصادق عليه السلام .



٧ - الوحي الخاص الى غير الأنبياء (وحي الالهام) :

كما ذكرنا في بداية البحث ان للوحي معانٍ كثيرة ، منها « وحي النبوة والرسالة » ، وهناك قسم آخر من الوحي وهو « الالهام » الذي يُلقى في قلوب غير الانبياء ، أو خطاب يُبلغ به غير الانبياء .

ومثاله ما جاء عن أم موسى حيث يقول القرآن في هذا المجال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ (القصص / ٧) ، وقريب من هذا ما جاء عن الحواريين ، حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (المائدة / ١١١) .

كما قال الله في يوسف قبل ان يبعثه نبياً ، عندما أراد اخوته أن يلقوه في اليم : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (يوسف / ١٥) . وهذا الوحي ليس هو نفس وحي النبوة ، بل وحي ألهامي ، بقرينة الآية (٢٢) من نفس السورة ، حيث جاء فيها أن الله ألهم نبيّه (يوسف) كي يدرك بأنه ليس وحيداً بل الله يحفظه ويرزقه نصيباً من القدرة ويصل الأمر الى أن يندم اخوته على فعلهم ، وهذا الوحي هو الذي جعل الأمل ينبعث في قلب يوسف . يذكر « الفخر الرازي » ستة احتمالات في ذيل الآية (٣٨) من سورة طه ، وأغلبها خلاف الظاهر ، لأن ظاهر الآية هو الالتقاء في القلب ، أو سماع صوت

ملك الوحي الذي يتناسب والمعنى اللغوي للوحي^(١).

ومثال القسم الثاني هو الخطاب الذي أبلغه أحد الملائكة لمريم والذي كان يتعلق بولادة عيسى عليه السلام ، وقد حكى القرآن حوار مريم مع الملك الذي تمثل في صورة انسان وسيم .

وأوضح مثال للوحي الالهامي هو الذي كان يُقذف في قلوب الأئمة المعصومين عليهم السلام والذي أشير إليه كثيرا في الروايات .

وعندما سُئل الامام الصادق عليه السلام عن مصدر علم الأئمة قال : « مَبْلَغُ علمنا ثلاثة وجوه : ماض ، وغابر ، و حادث فاما الماضي فمُفَسَّرٌ وأما الغابر فمزبور ، وأما الحادث فقذف في القلوب ، ونقر في الأسماع وهو أفضل علمنا ولا نبي بعد نبينا »^(٢)

وقد جاء في حديث آخر للامام الرضا عليه السلام يقول فيه : « واما النكت في القلوب فهو الالهام واما النقر في الاسماع فحديث الملائكة ، نسمع كلامهم ولا نرى أشخاصهم »^(٣).

وبصورة عامة ، فان علوم الأئمة عليهم السلام تحصل من عدة طرق : العلوم التي ورثوها عن الرسول والائمة الذين سبقوا ، على شكل وصايا وقواعد مدونة توضع في متناول أيديهم والتي قد يطلق عليها في بعض الاخبار « الجامعة » ، وعندما يحصل لهم أمر مستحدث لا وجود له في المصادر التي في أيديهم ، يوحى الله اليهم ألهاماً قلبياً أو نقرأ في أسماعهم يسمعون به صوت الملائكة « كما هو الحال بالنسبة لمريم عليها السلام » .

(١) راجع المجلد ٢٢ من التفسير الكبير الصفحة ٥١ .

(٢) بحار الانوار الجزء ٢٦ الصفحة ٥٠ .

(٣) ارشاد المفيد الجزء ٢ الصفحة ٨٠ ، وبحار الانوار الجزء ٢٦ الصفحة ١٨ .

لكن المسلم به أن هذا الوحي لا علاقة له بوحي النبوة ، وهو من قبيل وحي الحواريين وامثال ذلك ، وفي الواقع ، أن الاصطلاح العصري للوحي يطلق على وحي النبوة الذي يسمى « ألهاماً » ، وقد قال العلامة الطباطبائي في هذا المجال :
حبذا لو أطلقنا عليه ألهاماً لأنه يتفق والأدب الديني^(١) .

يراجع - للتفصيل - المجلد (٢٦) من بحار الأنوار ، باب علوم الاثمة عليهم السلام ،
كما يراجع المجلد الاول من اصول الكافي باب ان الاثمة عليهم السلام محدثون .

٨ - كيفية نزول الوحي على الرسول ﷺ :

كما قلنا سابقاً ، أنا لا ندرك حقيقة الوحي ، وهي من المجهولات عندنا ، لأن أدراكها شيء خارج عن اطار الحس والعقل ، نحن ندرك آثار الوحي فحسب ، والآخر يدل على المؤثر ، وعلى هذا فالسعي لله للوخل في عالم الوحي الغامض عبث ، ألا أن الرسول ﷺ والاثمة عليهم السلام عندما كانوا يُسألون عن كيفية الايحاء ، يجيبون جواباً وافياً بحيث يرسم في ذهن عن الوحي شبحاً ، شبحاً فقط !
تحدث الصدوق رحمته الله في كتابه « الاعتقادات » عن نزول الوحي حديثاً لا بد أنه استخلصه من الروايات حيث قال فيه :

« اعتقادنا في ذلك أن بين عيني اسرافيل لوحاً ، فاذا اراد الله عزوجل ان يتكلم بالوحي ضرب اللوح جبين اسرافيل ، فنظر فيه فقرأ ما فيه ، فيلقيه الى ميكائيل ، ويلقيه ميكائيل الى جبرائيل عليه السلام ويلقيه جبرئيل الى الانبياء عليهم السلام ، وأما الغشية التي كانت تأخذ النبي ﷺ حتى يثقل ويعرق فإن ذلك كان يكون منه عند مخاطبة الله عز وجل اياه فأما جبرائيل فانه كان لا يدخل على النبي ﷺ حتى

يستأذنه اكراماً له ، وكان يقعد بين يديه قعدة العبد »^(١) .

وقد جاء في الروايات مضمون هذا الحديث اجمالاً^(٢) .

ونقرأ في حديث آخر أن الرسول ﷺ عندما كان يوحى إليه يسمع صوتاً هادئاً قرب وجهه .

وقد جاء في حديث آخر : أن الوحي عندما كان ينزل على الرسول ﷺ يبدأ جبينه يتصبب عرقاً وان كان الجو بارداً^(٣) .

وبصورة عامة فان الوحي كان يهبط على رسول الله باشكال مختلفة ، ولكل شكل آثاره الخاصة به .

كما يستفاد من الروايات أن جبرئيل كان يهبط على الرسول أحياناً - بشكله الأصل الذي خلقه الله عليه ، ويحتمل انه هبط بهذا الشكل مرتين فقط طوال عمر الرسول (كما أشير الى ذلك في بعض تفاسير سورة النجم)^(٤) ، كما أنه قد يهبط متمثلاً في صورة « دحية الكلبي »^{(٥) (٦)} .



(١) اعتقادات الصدوق الصفحة ١٠٠ .

(٢) بحار الانوار الجزء ١٨ الصفحة ٢٥٤ حديث ٩ و الصفحة ٢٥٦ حديث ٦ .

(٣) بحار الانوار الجزء ١٨ الصفحة ٢٦١ .

(٤) في ظلال القرآن الجزء ٧ الصفحة ٣٠٦ .

(٥) بحار الانوار الجزء ١٨ الصفحة ٢٦٧ حديث ٢٩ .

(٦) إن دحية بن خليفة الكلبي هو أخو الرسول الرضاعي ، وكان من أجمل الناس آنذاك ، فكان يتمثل في صورته جبرئيل عندما يريد الهبوط على الرسول ﷺ (مجمع البحرين مادة وحي) . وكان من مشاهير صحابة الرسول ﷺ ويُعرف بحسن الوجه ، أرسله الرسول ﷺ بالرسالة الى قيصر الروم « هرقل » في السنة السادسة أو السابعة من الهجرة ، وكان حياً حتى خلافة عمر (قاموس دهخدا بالفارسية) .

٩- الالهامات الغريزية :

قلنا سابقاً أن للوحي مفهوماً واسعاً سواء في القرآن أو في كتب اللغة ، كما قلنا أن أحد مصاديقه هو الادراك الغريزي عند الحيوانات ، ولا يمكن تحليله بأي تحليل مادي ، بل وجوده في الحيوانات دليل على وجود ذلك المصدر الغني والعظيم للعلم والمعرفة فيما وراء الطبيعة .

وقد أشار القرآن المجيد الى هذا الأمر العجيب بالنسبة للنحل في الآيات (٦٨ و ٦٩) من سورة النحل .

لقد اتضح لنا - بعد التحقيقات التي اجريت على هذه الحشرة في العصر الحاضر - أن النحل يعيش حياة اجتماعية وتمدن عجيب يفوق تمدن الانسان في بعض نواحيه ، فالعمران والبناء يتم عنده بدقة كاملة وطبقاً للمواصفات الهندسية ، وكيفية تجميع العسل وتهيئته وادخاره وحفظه من التلوث ، وكيفية تربية الصغار ، والتغذية الخاصة للملكة ، والتحقق من عدم تلوث بعض النحل بالزهور الملوثة ، وكيفية الدفاع ضد العدو ، وكيفية أخبار أعضاء الخلية عن الزهور بواسطة النحل المكلف بالبحث ، وأعطاء المواصفات الدقيقة من حيث المسافة والانحراف وذلك للحركة الجماعية نحو ذلك المصدر ، وغير ذلك من الامور العجيبة التي لا يمكن تفسيرها إلا بالقول بأن لها ألهاً غريزياً .

ويقال : انه تم التعرف على (٤٥٠٠) نوعاً من أنواع هذه الحشرة ، والعجيب في الأمر ان جميعها تتبع طريقة واحدة في كيفية البناء والمَصّ والتغذية من الزهور^(١) .

أن البحث يستدعي عدم الخروج عن صلب الموضوع كثيراً ، وإلا فالحديث عن الحياة الغامضة للنحل طويل ، وكفيينا منه الحديث عن بنائه لبيت

سداسي الاضلاع مع زوايا هندسية دقيقة ، يقول العلماء في هذا المجال : أن الحُجرات المبنية من قبل النحل بنيت بشكل يتطلب مواد بناء أقل ، رغم سعة محتواها ، لوجود ثلاثة أشكال فقط من بين الاشكال الهندسية المتعددة - يمكن بناء البيوت على أساسها من دون حصول فراغ بينها ، والأشكال هي ، المثلث متساوي الاضلاع والرباعي ، والسداسي الاضلاع ، وقد كشفت الدراسات الهندسية أن سداسي الاضلاع يتطلب مواد بناء أقل مع شدة مقاومته ، ولهذا السبب رجحه النحل على الشكلين الآخرين .

من أين حصلت له هذه الالهامات الغريزية ؟

وفي أي مدرسة تعلم هذه التعاليم ؟

لم ينحصر هذا الالهام الغريزي في النحل ، بل نجده في كثير من الحيوانات الاخرى تفوق عجائب كل منها الاخرى ، نذكر لذلك الأمثلة الآتية :
يقول أحد العلماء في كتاب له باسم « البحر بيت العجائب » :

« أن سلوك بعض الأسماك تعتبر من أسرار الطبيعة ولا أحد يستطيع أن يكشف الأسباب لهذا السلوك ، فهناك نوع من الأسماك يسمى « النُّقْط » يغادر البحر المالح الى أنهر عذبة أي الاماكن التي ولدت فيها نفسها ، وقد يقتضي ذلك أن تسير عكس اتجاه حركة المياه ، أو تصعد الشلالات من اسفلها ، وقد يبلغ عددها حداً بحيث تملأ النهر ، وعندما تصل الى المحل المقصود تبيض ثم تموت !

يا تُرى : كيف تشق هذه الأسماك طريقها الى الانهار المناسبة ؟ أنه أمر عجيب ، أعجب من المذيع والتلفاز ، لأنها تفتقد الخارطة ، كما ان بصرها تحت الماء محدود ، ولم يدلها أحد الطريق ، وبالرغم من ذلك فهي تصل الى النهر المقصود . »

ويضيف في نفس الكتاب : «أن الاعجب من ذلك هو سلوك اسماك
«الانكليس» الانجليزية «سمك يشبه الحية» حين تبلغ ثمان سنوات تغادر النهر أو
المستنقع ، ثم تزحف ليلاً على الأعشاب المتشابكة حتى تصل إلى شاطئ
البحر، ثم تجتاز المحيط الاطلسي عرضاً حتى تصل إلى المياه القريبة من
«برمودا» !

وتغوص في المحيط آنذاك وتبيض ثم تموت ...أن صغار هذا الانكليس
تطفو على سطح البحر وتبدأ سفرها إلى وطنها ، وتستغرق هذه السفرة سنتين أو
ثلاثاً حتى تصل إلى المحل الذي كان فيه أسلافها .

كيف وجدت الانكليس طريقها رغم انها لم تعبره سابقاً ؟ أنه سؤال لا
يمكنك الاجابة عنه ، كما لا يستطيع أعقل العلماء الاجابة عنه ، فالجواب سلبى ،
ولا احد يعرفه ^(١) !

وكثير من الطيور المهاجرة تجتاز طرقاً ومسافات طويلة ، وبعضها يجتاز
طريق « اوربا » إلى « افريقيا الجنوبية » دون خطأ في الاتجاه ، لم نكتشف كيفية
اهتداء هذه الطيور في الطريق حتى فترة ليست ببعيدة .

وقد أثبت بعض العلماء - بعد التحقيق والتجارب على هذه الطيور - أنها
تهتدي الطريق بواسطة مواقع النجوم .

واثبتت التجارب انها تعرف مواقع النجوم غريزياً ، وتعلم تغير مواقعها
حسب فصول السنة ، وحتى عندما تتلبد السماء بالغيوم ، فان وميض بعض من
النجوم يكفيها للاهتداء في الطريق .

كما أثبتت تجارب اخرى أنها ورثت معرفتها عن الفلك ومواقع النجوم ،
أي انها تعلم كل شيء عن السماء ومواقع النجوم وأن لم تشاهد السماء سابقاً ،

(١) البحر ، بيت العجائب الصفحة ١١٦ و ١١٧ (بالفارسية) .

بالطبع لم تُكتشف كيفية انتقال هذه المعلومات التفصيلية لهذه الطيور بالورثة ، خاصة وان السماء تتغير أشكالها بمرور الزمان ، ثم : من أين حصل الجيل القديم على هذه المعلومات ؟ !^(١) .

والنموذج الآخر لهذه الغريزة هو سلوك طير باسم « آكسك لوب » عندما تبيض ، فيقول العالم الفرنسي « وارد » حول هذا الحيوان :
 « أني درست حالات هذه الطيور ، فوجدت من خصائصها أنها تموت بعد أن تبيض ، ولا ترى أفراخها أبداً ، كما أن الأفراخ لا ترى أمهاتها الحنونات ، وعندما تفقس البيوض تخرج كالدود بلا أجنحة ولا ريش ، ولا قدرة لها على تحصيل الطعام ، ولا قدرة لها للدفاع عن نفسها من الحوادث والمخاطر التي تهدد حياتها ، ولهذا ينبغي أن تبقى في مكان محفوظ فيه طعام يكفيها لمدة سنة ، ولهذا السبب ، فالأم عندما تشعر أنها على وشك أن تبيض تبحث عن قطعة من خشب ثم تثقبها ثقباً عميقاً ، وتجمع فيها المؤونة الكافية ، فتجمع أولاً أوراق الأشجار ما يكفي لفرخ واحد لمدة سنة وتلقيها في نهاية الثقب العميق ، ثم تضع عليها بيضة وتبني عليها سقفاً محكماً من معجون خشبي . ثم تبدأ ثانياً في جمع مؤونة فرخ آخر لمدة سنة وبعد جمعها المؤونة ووضعها على سطح الغرفة الأولى ، تضع بيضة ثانية عليها وسقفاً آخر ، وهكذا تبني الغرفة بعد الغرفة حتى تموت^(٢) .
 من الذي علم هذا الطير هذا الحجم من المعلومات رغم انه لم ير أمه ولا أفراخه ؟ لا جواب لأحدٍ على هذا السؤال ألا القول : بأنها الهامات غريزية من قبل الخالق العظيم .

(١) حواس الحيوانات الغامضة ، تأليف (ويتوس دروشر) ، ترجمة لاله زاري الصفحة ١٦٧ - ١٧١ (ملخص) « بالفارسية » .

(٢) « المتلبسون بالفلسفة » الصفحة ٢٢٩ ، « بالفارسية » .

المصدر السادس:

الكشف والشهود

٦- الكشف والشهود

تمهيد :

أن سادس وآخر مصدر للمعرفة هو « الشهود القلبي والمكاشفة » .
وقبل كل شيء ينبغي تعريف هذا المصدر المجهول عند أكثر الناس ، كي
يتضح فرقه عن « الوحي » و « الالهام » و « الفطرة » و « الادراكات العقلية » ، ولكي
لا يحملة الجهلة على « اتباع الظن » .

ومن جهة اخرى ، لكي نحول دون استغلال هذا العنوان من قبل البعض ،
والنظر اليه نظرة تشاؤمية من قبل البعض الآخر .

ان الكائنات على قسمين :

١ - الكائنات التي يمكن أدراكها بالحواس وهي « عالم الحس » .

٢ - الكائنات الخفية عن حواسنا وتلك هي « عالم الغيب » .

لكن الانسان - أحياناً - يفتح أمامه طريق باتجاه عالم الغيب يمكنه من
معرفة بعض الحقائق الغيبية (حسب قابليته) ، وبتعبير آخر : تتكشف له بعض
حقائق عالم الغيب فيشاهد تلك الحقائق كما يشاهد حقائق عالم الحس ، بل
أوضح وأوثق .

ويقال لهذه الحالة « المكاشفة » أو « الشهود الباطني » .

وهذا العلم هو المراد في الايتين (٥ و ٦) من سورة التكاثر حيث جاء

فيهما : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ !

وقد جاء في المصادر الاسلامية المختلفة : أن « المجرمين » و « المؤمنين »

تحصل لديهم هذه الحالة عند الاحتضار ، فيشاهد المؤمنون عندها ملائكة الله المقدسين بينما يعجز الجالسون حولهم عن ذلك .

كما حصل هذا الامر لرسول الله ﷺ في غزوة الخندق عندما ضرب

الرسول ﷺ الصخرة ثلاثاً وكان يظهر بريقاً في كل ضربة وعند سؤال المسلمين عن هذا البريق قال : أضاءت الحيرة وقصور كسرى في الاولى وفي الثانية أرض الشام والروم وفي الثالثة قصور صنعاء ... وسيأتي تفصيل الحديث^(١) .

كما أنه قد حصل هذا لآمنة ام النبي الاكرم ﷺ عندما كانت حبلئ به

حيث قالت : رأيت نوراً خرج مني شاهدت به قصور بلاد « بصرى » في « الشام » ، وهناك كثير من النماذج جاءت في الآيات والروايات نشير إليها فيما بعد ، انشاء الله . فهذه كلها لاوحي ولا إلهام قلبي ، بل نوع من المشاهدة والادراك تختلف عن المشاهدة والادراك الحسي .

وعلى هذا ، فالكشف والشهود - اختصاراً - عبارة عن : الدخول في عالم ما

وراء الحس ومشاهدة حقائق ذلك العالم بالعين الباطنية ، كالمشاهدة الحسية بل أقوى ، أو سماع تلك الحقائق بأذن روحانية .

بالطبع لا يمكن الوثوق بكلام كل من يدعي التحلي بهذه الملكة ، إلا أنه

ينبغي الاذعان بأصل وجود مصدر المعرفة ونتحدث أولاً عن هذا الأمر ، ثم عن

كيفية الوصول إليه ، ثم طرق تمييز المدعين الصادقين عن الكاذبين . وبعد هذا

التمهيد ، نصفي خاشعين الى الآيات التالية :

١- ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ .

(الانعام / ٧٥)

٢- ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

(التوبه / ١٠٥)

٣- ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ .

(النجم / ١١ - ١٤)

٤- ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ .

(التكاثر / ٥ - ٦)

٥- ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّخْجُورًا ﴾ .

(الفرقان / ٢٢)

٦- ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

(الانفال / ٤٨)

٧- ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ

تُفَنَّدُونَ ﴿

(يوسف / ٩٤)

٨ - ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿

(مريم / ١٧)



شرح المفردات :

إِنَّ « ملكوت » اشتقت من مادة « المُلْك » والتي تعني الملكية والحكومة ، واضيفت لها « الواو » و « التاء » للتأكيد والمبالغة ، أمَّا مَلَكُوتٌ فتعني الحكومة والعزة .

يقول الطريحي في « مجمع البحرين » : إن ملكوت جاءت بمعنى العزة والسلطنة والمملكة ، وادعى بعض أئمة اللغة أنها تعني « الحكومة العظيمة » وهو يتفق مع ما قاله الراغب في مفرداته ، ويقول صاحب الميزان :

كان النظر في ملكوت الأشياء يهدي الانسان الى التوحيد هداية قطعية^(١) .

إِنَّ « فؤاد » - كما بينا معناه بالتفصيل سابقاً - معناه القلب والروح عندما

ينضجان ويتكاملان ، وهو مشتق من مادة « فَاد » التي تعني الشوي .

وإنَّ « أجد » من مادة « وجود » ويعني الحصول ، فقد يكون الحصول عن

طريق احدى الحواس الظاهرية ، مثل الرؤية بالعين ، والسماع بالاذن ، أو بواسطة

الحاسة الشامة ، وقد يحصل عن طريق الحواس الباطنية مثل الاحساس بالجوع أو

الشبع والهم والغم ، وقد يحصل عن طريق العقل مثل وجدان الله بالاستدلال

العقلي والبراهين المختلفة .

كلمة « تمثّل » من مادة « مثول » ويعني الوقوف أمام شخصٍ أو شيءٍ ، ويقال مُمَثِّل بشخصٍ أو شيءٍ أي ظهر في صورة شخصٍ أو شيءٍ آخر ، وقد تكرر موضوع التمثل في الروايات الاسلامية والتواريخ ، منها ظهور ابليس في « دار الندوة » أمام المشركين وهم يخططون لقتل الرسول ﷺ متمثلاً في شكل رجلٍ صالحٍ وخير .

ومنها تمثل الدنيا في صورة امرأة جميلة وخلافة امام الامام علي عليه السلام وعدم استطاعتها من النفوذ في قلبه الطاهر وقصتها معروفة ، ومنها تمثل أعمال الانسان امامه في القبر ويوم القيامة ، كلٌ بشكله المناسب له حيث عبرت الروايات الاسلامية عن هذا الأمر بالتمثل ، ومفهوم التمثل في جميع هذه الموارد هو ظهور شخصٍ أو شيءٍ في صورة شخصٍ أو شكلٍ آخر من دون تغير في باطنه وماهيته^(١) .



جمع الآيات وتفسيرها :

إنَّ الآية الاولى بعد اشارتها لمقارنة ابراهيم بطل التوحيد للشرك وعبادة الاصنام ، تحدثت عن الشأن الرفيع لايمانه وبقينه ، ودليل هذا الشأن هو أن الله أراه ملكوت السموات والأرض ، فاصبح من أهل اليقين أي وصل الى درجة عين اليقين وحق اليقين ، وقد يكون هذا عطية من الله له ، جزاءً لما عاناه من جراء كفاحه للشرك وعبدة الأصنام ، ومع الالتفات الى أن « السموات » تفيد العموم هنا (لانها جاءت جمعاً لا مفرداً ومعرفة لانكرة) ، تدرك أن الله أطلع ابراهيم عن

سلطانه على جميع ما في السموات من الكواكب والنجوم والمجرات وغيرها ،
كذلك سلطانه على الارض ما ظهر منها وما بطن ، وقد عبّر القرآن عن هذا الأمر
بهذا التعبير « تُرِي ابراهيم »

ومع الالتفات الى أن الانسان لا يمكنه رؤية هذه الحقائق بعينه الظاهرية
واستدلالاته العقلية ، ندرك أن الله أراه هذه الحقائق عن طريق الشهود الباطني
وإزالة الستار التي تحول دون مشاهدة الانسان الحقائق المكتومة .

ويذكر الفخر الرازي احتمالين في تفسيره لـ «الأراءه » ، أحدهما : انها
حسية ، والثاني : إنها إراءة عن طريق الاستدلال العقلي ، ثم اختار الاحتمال
الثاني ، وذكر تسعة أدلة عليه^(١) .

لكنّ - كما قلنا سابقاً - الانسان عاجز عن الاحاطة الكاملة بأسرار سلطان الله
على العالم سواء كان عن طريق الحس أو عن طريق العقل ، وتحتاج الاحاطة هذه
إلى طريق إدراك آخر ، وهو الشهود الباطني ، ولهذا السبب يذكر صاحب « في
ظلال القرآن » : ان المراد من الآية إخبار ابراهيم عن أسرار الخلق الخفية ورفع
الحجاب عن آيات كتاب الخلق التي نشرت كي يصل ابراهيم الى درجة اليقين
الكامل^(٢) .

وتعبير آخر : إن ابراهيم اجتاز مراحل التوحيد الفطري والاستدلالي - في
البداية - من مشاهدته لطلوع الشمس وغروبها وطلوع النجوم وافولها ، وجاهد
المشركين واجتاز درجات التوحيد في ظل هذا الجهاد العظيم ، الواحدة تلو
الآخري ، الى أن بلغ مرحلة حيث كشف الله له الحقائق ، وهي مرحلة الشهود
الباطني .

(١) التفسير الكبير الجزء ١٣ الصفحة ٤٣ .

(٢) في ضلال القرآن الجزء ٣٩٠ الصفحة ٢٩١ .

وهناك حديث للامام الصادق عليه السلام في هذا المجال يشير فيه الى هذا المعنى حيث يقول : « كُشِطَ لأبراهيم السموات السبع حتى نظر ما فوق العرش ، وكشط له الارضون السبع ، وفعل لمحمد عليه السلام مثل ذلك ... » « والائمة من بعده قد فعل بهم مثل ذلك »^(١).

وقد جاء صاحب البرهان بكثير من الآيات في تفسيره هذا المجال ، تكشف أن الادراك هذا ليس هو نفس الادراك العقلي أو الحسي ، بل - وكما صرح صاحب الميزان وأشرنا إليه سابقاً - إن الملكوت هي مجموعة الامور التي تتعلق بالذات الربانية من حيث انتمائها الى تلك الذات ، وهذا ما شاهده ابراهيم وبلغ به الى أن وصل الى التوحيد الخالص^(٢).

وهناك روايتان نقلتا في تفسير « الدر المنثور » عن أحد صحابة الرسول عليه السلام والآخرى عن ابن عباس تبيان أن الله رفع الستار الحاجب عن ابراهيم وأراه ملكوت السموات والارض أي أسرار قدرته ، وتحكمه بأسرار الكون^(٣).



والآية الثانية بعد ذكرها لأحكام « الزكاة والصدقة والتوبة » خاطبت الرسول قائلة : ﴿ وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

(١) تفسير البرهان الجزء ١ الصفحة ٥٣١ الحديث ٢ (ومضمون الحديث الثالث والرابع قريب من مضمون هذا الحديث) .

(٢) الميزان الجزء ٧ الصفحة ١٧٨ .

(٣) الدر المنثور الجزء ٣ الصفحة ٢٤ .

لا شك ان المراد من رؤية الأعمال هو رؤية الله لجميع أعمال الناس سواء الصالحة منها أو غير الصالحة وما ظهر منها وما بطن « بقريئة وحدة السياق » وينبغي القول بأن مشاهدة الرسول مثل مشاهدة الله ، لأن الآية مطلقة ولم يقيد بها شيء ، وأما المؤمنون ، فالمراد منهم خلفاء الرسول ﷺ المعصومون (لا جميع المؤمنين) .

ومع الالتفات الى أنه لا يمكن مشاهدة هذه الأعمال مشاهدة حسية أو استدلالية عقلية ، ينبغي القول : إن الآية بينت حقيقة وهي أن الرسول ﷺ والائمة ﷺ يتحلون بمشاهدة تختلف عن المشاهدة الحسية المتعارفة يشاهدون بها جميع أعمال المؤمنين .

وقد ذهب الفخر الرازي الى ان المراد من الآية جميع المؤمنين لا الائمة ، وعندما وقع في اشكال أن المؤمنين لا يطلع أحدهم على أعمال الآخر ، أجاب : إن المراد أنهم يُخبرون بها . وهذا تكلف بلانتيجة ، وتبرير خلاف الظاهر .

كما أنه نقلت روايات عديدة في ذيل هذه الآية بينت أن أعمال العباد تُعرض كل صباح (بعض الروايات ليس فيها قيد الصباح) على رسول الله ﷺ والائمة ﷺ فيرونها ويفرحون بها إن كانت طاعاتٍ ، ويتألمون إن كانت معاصياً^(١) .

وهذا الحجم الكبير من الروايات درس كبير لجميع سالكي طريق الحق والهداية ، فان هناك مراقبين أجلاء يراقبون أعمالهم . إن الايمان بهذه الحقيقة لها

(١) جاء في تفسير البرهان في ذيل الآية المذكورة ، وفي البحار الجزء ٣٣ الصفحة ٣٢٦ فما بعد ، عشرات من الروايات المنقولة في هذا المجال ، ويمكن القول : انها وصلت الى مستوى التواتر . وفي المجلد الثاني الصفحة ١٥٧ فما بعد ، والمجلد الاول من اصول الكافي باب « عرض الأعمال » جاء ذلك مفصلاً .

مردودات تربوية جمّة ، وقد نقل هذا المضمون في ضمن روايات كثيرة عن الامام الصادق عليه السلام حيث يقول في أحدهما : « إذا صار الأمر إليه جعل له عموداً من نور يُبصرُ به ما يعمل به أهل كل بلدة »^(١).



والآية الثالثة إشارة الى ما يعتقده البعض من مشاهدة الرسول ﷺ لجبرئيل عليه السلام في شكله الحقيقي ، وقد شاهد به هذا النحو مرتين ، المرة الاولى في بداية بعثته حيث ظهر عليه السلام في الافق وغطى الشرق والغرب ، وكان بدرجة من الجلالة والعظمة حيث اضطرب الرسول حينها اضطراباً شديداً ، والمرة الثانية هي عند معراجهِ ﷺ ، وقد اشير في النجم لكلا اللقائين .

وهناك تفسير آخر وهو أن المراد من الرؤية في الآية هو حصول الشهود الباطني له ، الشهود للذات الالهية المقدسة ، وهو شهود بالعين الباطنية لا الظاهرية ، وهو مصداق واضح لـ « لقاء الله » في هذا العالم ، وقد جاء شرح ذلك مفصلاً في تفسير للأمثل ذيل آيات سورة النجم^(٢).

وعلى أي حال فإن الآية تصرح : إن ما رآه الرسول ﷺ بقلبه قد حدث بالفعل ، وقبله صادق بما شاهد به وغير كاذب .

والتعبير هذا شاهد على مسألة الكشف والشهود الباطني الذي يعتبر أحد مصادر المعرفة الانسان ، انسان مثل الرسول ﷺ .

وقد جاء في تفسير الميزان :

ولابدع في نسبة الرؤية وهي مشاهدة العيان الى الفؤاد فان للإنسان نوعاً من

(١) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة الجزء ٥ الصفحة ٢٠٠ (لقد جمع في هذا الكتاب روايات عديدة بهذا المضمون) وقد ذكر بعضاً منها البحراني في تفسيره « البرهان » .

(٢) تفسير الأمثل الجزء ٢٢ الصفحة ٤٨٤ الى ٣٩٣ .

الادراك الشهودي وراء الادراك باحدى الحواس الظاهره والتخيل والتفكر بالقوى الباطنه كما أننا نشاهد من انفسنا أننا نرى وليست هذه المشاهده العيانية ابصاراً بالبصر ولا معلوماً بفكر ، وكذا نرى من انفسنا أننا نسمع ونشم ونذوق ونلمس ونشاهد أننا نتخيل ونتفكر وليست هذه الرؤيه ببصر او بشيء من الحواس الطاهره او الباطنه فإننا كما نشاهد مدركات كل واحده من هذه القوى بنفس تلك القوة كذلك نشاهد ادراك كل منها لمدرکها وليس هذه المشاهده بنفس تلك القوه بل بأنفسنا المعبر عنها بالفؤاد (١).

وقد صرح المفسرين : إن المراد من الرؤيه في الآية هو المشاهده بالقلب . وقد جاء في حديث أن سأل أحد صحابة الامام أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام : هل رأى رسول الله ﷺ ربه عز وجل ؟ فاجابه عليه السلام « نعم بقلبه ، أما سمعت الله عز وجل يقول : ما كذب الفؤاد ما رأى ، لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد » (٢).

بديهي ، أن المراد من « الرؤيه القلبيه » ليس هو الفكر والاستدلال العقلي ، لأن هذا أمر لا يختص بالرسول ﷺ بل يحصل لجميع المؤمنين والموحدين .



وقد خاطبت الآية الرابعه المؤمنين كافة قائلة : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ ثم تضيف : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ .

وهناك بحث بين المفسرين في ان الرؤيه هذه تقع في الدنيا أم في الآخرة ؟ أو أن الاولى في الدنيا والثانية في الآخرة ؟ لكن ظاهر الآية يدل على أن الثانية تقع

(١) تفسير الميزان : ج ١٩ ، ص ٢٩ .

(٢) نور الثقلين الجزء ٥ الصفحة ١٥٣ حديث ٣٤ .

في الآخرة ، بقرينة ﴿ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ وذلك لأنه لا سؤال في الدنيا ، وعلى هذا فالرؤية الاولى « رؤية الجحيم » تقع في الدنيا .

وقد جاء في تفسير الميزان : إن ظاهر الآية يدل على وقوع رؤية الجحيم قبل يوم القيامة ، بالطبع رؤية قلبية التي تعد من ثمار الايمان واليقين ، كما هو الأمر في قصة ابراهيم ورؤيته لملكوت السموات والارض .

وقد تقدّم أنّ البعض يرى ان الرؤية في كلا الموردين تتعلق بيوم القيامة ، ولهذا تكلفوا كثيراً عند بيانهم للفرق بين الرؤيتين ، كما يُشاهد ذلك في كلام المفسر الفخر الرازي^(١) .

وعلى أية حال ، فإن الآية تأكيد في ظاهرها على أن الانسان - في بعض الحالات - تُرفع عن قلبه الحجب فيتمكن من رؤية بعض حقائق عالم الغيب .



والآية الخامسة أشارت الى طلب الكافرين المُلح ، حيث كانوا يسألون : لِمَ لَمْ يُنَزَّلْ عَلَيْنَا مَلَائِكَةٌ ؟ أَوَلَمْ لَمْ تَرَ اللَّهَ جَهْرَةً ؟ (الفرقان / ٢١) .
ويجيبهم القرآن : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ .

وهناك خلاف بين المفسرين في المراد من « يوم » في الآية . فأى يوم هو ؟ يعتقد البعض ان المراد منه هو يوم القيامة لكن البعض يعتقد - مع الالتفات الى الآيات التي تحدثت عن (ملائكة الموت) ومن ضمنها الآية التالية : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ - أن المراد منه هو لحظات الموت ، أو بعد الموت وقبل يوم القيامة .

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ٣٢ الصفحة ٨٠ .

وقد نقل هذا الرأي عن ابن عباس^(١).

وقد جاء في حديث الامام الباقر^(عليه السلام): « فاذا بلغت الحلقوم ضربت الملائكة وجهه ودبره (قيل اخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) وذلك قوله ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ »^(٢).

وطبقاً لهذا التفسير ، فان الانسان عندما يكون على وشك الموت تُرفع عن قلبه الحُجُب ، فتحصل له حالة الكشف والشهود ، فيرى الملائكة .

والآية السادسة تحدثت عن معركة بدر وأن الشيطان زين للمشركين أعمالهم وصورها لهم وكأنهم يحسنون صنعا ، وذلك كي يظنون حُسنَ للظن بعقباهم.

ومن جهة اخرى فان جنود قريش رغم عدتهم وعددهم الذي يقدر بعدة أضعاف المسلمين آنذاك اصطفوا أمام المسلمين ، والشيطان يوسوس لهم في هذا الحين أنهم سينتصرون ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَّكُمْ ﴾ . وعندما استعدت الحرب ونزلت الملائكة لنصرة المسلمين ، تراجع الشيطان ، وقال لهم : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لأنه رأى الامدادات الغيبية وآثار رحمة الله !

اختار كثير من المفسرين الرأي الأول ، وهناك روايات معروفة تؤيد هذا الرأي ، حيث قالت : إن الشيطان تمثّل لهم في صورة « سراقه بن مالك » الذي

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ٢٤ الصفحة ٧٠ .

(٢) البرهان الجزء ٣ الصفحة ١٥٨ حديث ١ .

يعتبر من أشراف « بني كنانة » وقد حصل هذا الأمر (التمثيل) عندما هاجر الرسول ﷺ ، حيث اشترك الشيطان آنذاك في شورى المشركين في « دار الندوة » متمثلاً في صورة رجل كبير السن من أهالي « نجد » وليس محالاً أن يتمثل في صورة انسان ، لأن هذا ممكن بالنسبة للملائكة (كما هو منقول في قصة ابراهيم ومريم) .

والبحث الآخر هو : هل ان الشيطان رأى الملائكة حقاً يساندون جند الاسلام ؟ أو أنه عندما رأى آثار الانتصار غير المرتقب تيقن بنزول الملائكة والامدادات الغيبية ؟ هناك نظريتان في هذا المجال :

يعتقد كثير من المفسرين أن المراد رؤيتهم حقيقةً ، ويؤيد ذلك ظاهر الآيات اللاحقة التي تحدثت عن دخول الملائكة ساحة بدر .

وعلى هذا ، فما كان المؤمنون ولا المشركون يرون تواجد الملائكة في بدر ، بينما كانت الحجب مرفوعة عن الشيطان ، فكان يرى الملائكة .

وهذا نوع من الكشف والشهود منحه الله للشيطان لأهداف معينة .



والآية السابعة أشارت الى قصة يوسف . فعندما خرج أولاد يعقوب مع القافلة فرحين من مصر ، وكانوا قد شاهدوا يوسف على عرش السلطة رجعوا حاملين قميص يوسف لتقر عين أبيهم ، وعندما تحركت القافلة من مصر ، قال يعقوب لمن حوله في بلاد كنعان : إني أشم رائحة يوسف إذا لم ترموني بالكذب والجهل . إن ما قاله يعقوب كان صدقاً لانه لم يشم الرائحة بالشامة الطبيعية التي يمتلكها جميع الناس ولهذا لم يصدق أحد ممن كان حوله فنسبوا الضلالة الى الشيخ الكنعاني ذلك النبي العظيم حيث قالوا له : ﴿ تالله إنك لفي ضلالك

الْقَدِيم ﴿ (يوسف / ٩٥) .

وقد تبين صدق شيخ كنعان عند رجوع الاخوة الى كنعان .
وقد عُدَّت المسافة بين مصر وكنعان بعشرة أيام في بعض الروايات ،
وبثمانية أيام في بعضها الاخر وفي روايات اخرى بثمانين فرسخاً^(١) .
لا دليل على حمل الآية على المعنى المجازي والقول بأن شم رائحة
القميص كناية عن قرب لقائه بيوسف حيث ألهم الأب بذلك اللقاء (مثل قولنا
نشم رائحة انتصار المسلمين على الأعداء) ، وذلك لأنه مع امكان حمل الألفاظ
على الحقيقة لا يمكن الحمل على المجاز .
وفي النهاية نستنتج أن مكاشفة حصلت ليعقوب ورفعت عنه الحجب ،
وباحساس يفوق الاحساس الظاهري استطاع أن يشم رائحة قميص ابنه من بعيد .

وقد تحدثت الآية الثامنة والاخيرة عن قصة تمثل الملك الالهي لمريم
حيث يقول القرآن في هذا المجال بصراحة :
انزلت مريم عن أهلها في الضفة الشرقية من « بيت المقدس » ، واتخذت
حجاباً بينها وبين الناس (وهذا الحجاب اما أن يكون لأجل التفرغ للعبادة
والنجوى أكثر ، أو أن يكون لأجل التطهير والغسل) ، وأيما كان فان الله أرسل إليها
روحه ، فتمثل لها بشراً وانساناً سوياً اي كاملاً من دون عيب وذا هندام جميل ،
ففرغت مريم في الوهلة الاولى ، لكنها اطمأنت عندما قال لها : (إنما انا رسول
ربك لأهب لك غلاماً زكياً) أي عيسى عليه السلام .

(١) تفسير مجمع البيان الجزء ٥ الصفحة ٢٦٢ ، وتفسير الفخر الرازي الجزء ١٨ الصفحة ٢٠٧ .

واستمر الحديث بينهما طويلاً ، وقد ذكر في سورة مريم^(١) .

ادعى البعض ان الملك تمثل لمريم في حس الباصرة فقط ، (وليس في الخارج) ، لكن هذا خلاف الظاهر ولا دليل عليه ، والقرائن تدل على أن هذا الشهود قد حصل لمريم فقط ، ويحتمل انه اذا كان أحد معها ما كان قادراً على الرؤية ، وعليه فالآية قرينة اخرى على مسألة امكانية الشهود حتى لغير الأنبياء .

النتيجة :

نستخلص مما مضى أن هناك مصدراً للمعرفة غير المصادر التي قرأنا عنها الى الآن ، وهو مصدر مبهم وغامض بالنسبة لنا ، لكن يستفاد وجوده من آيات القرآن بوضوح ، وهو لا يختص بالانبياء والائمة ، بل قد يحصل لغيرهم أيضاً ، وإذا شككنا في بعض الآيات في مجال استفادة هذا المصدر منها ، فانه يُستشف من مجموع الآيات هذا المصدر .

بالطبع ، إن هذا الحديث لا يعني فسح المجال أمام كل من يدعي الكشف والشهود ، بل إنَّ لهما علائم سنشير إليها فيما بعد ان شاء الله .

إيضاحات :

١ - نماذج جميلة من الكشف والشهود في الأحاديث الاسلامية :

إنَّ الروايات التي كشفت عن هذا المصدر ليست قليلة وقد وصلت الى درجه « الاستفاضة » على حد تعبير علماء الحديث ، وقد أوردنا هنا نماذجاً من

(١) راجع تفسير الأمل الجزء ١٣ الصفحة ٣٢ فما بعد .

هذه الروايات :

١- ذكر في تاريخ معركة الاحزاب أن المسلمين عند حفرهم للخندق حول المدينة (كوسيلة دفاعية أمام العدو) خرجت عليهم صخره كسرت المعول ، فأعلموا النبي ﷺ ، فهبط إليها ومعه سلمان فأخذ المعول وضرب الصخرة ضربة صدعها ، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة ، فكبر رسول ﷺ والمسلمون ، ثم الثانية كذلك ، ثم الثالثة ، ثم خرج وقد صدعها ، فسأله سلمان عما رأى من البرق ، فقال رسول الله ﷺ : أضاءت الحيرة وقصور كسرى في البرقة الاولى ، وأخبرني جبرئيل أن امتي ظاهرة عليها ، وأضاء لي في الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم ، وأخبرني أن امتي ظاهرة عليها ، وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء ، وأخبرني أن امتي ظاهرة عليها ، فأبشروا ، فاستبشر المسلمون^(١) .

وقد قال المنافقون آنذاك : ألا تعجبون ؟ يعدكم الباطل ، ويخبركم أن ينظر من يشرب الحيرة ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم ، وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا . إلا أن الحوادث المستقبلية أثبتت صحة ما قاله الرسول ﷺ .

وقد يحمل البعض الشهود هنا على معنى مجازي ، لكن لا مبرر لهذا الحمل مع امكان الحمل على المعنى الحقيقي .

٢- قد جاء اخر حديث الامام الصادق عليه السلام حول معركة مؤتة (التي وقعت بين المسلمين والروم الشرقية في شمال الجزيرة) : ان المسلمين عندما ذهبوا للقتال بقيادة جعفر بن أبي طالب ، فان الرسول ﷺ كان يوماً في المسجد وقد تسطحت له الجبال والارتفاعات فشهد جعفرأ يقاتل الكفار ثم قال : قتل

جعفر^(١).

وقد جاءت تفاصيل أخرى عن هذا الموضوع في روايات أخرى ، حدث ان الرسول ﷺ ارتقى يوماً المنبر بعد صلاة الصبح ، فصوّر للمسلمين ساحة المعركة في مؤنة بدقة ، وتحدث بالتفصيل عن شهادة « جعفر » و « زيد بن حارثة » و « عبد الله بن رواحة » وكأنه يرى الساحة بأم عينيه ، والجدير بالذكر أن التواريخ المعروفة - عند إيرادها لهذه القصة - نُقلت هذا الحديث عن الرسول أنه قال : إن الشهداء الثلاثة حُمِلوا إلى السماء على سررٍ من ذهب ورأيت ازوراراً في سرير « عبد الله بن رواحة » نسبة لسريري الشهيدين الآخرين ، فُسِّلَ عما هذا ؟ قال : مضيا ، وتردد بعض التردد ثم مضى) ، فالتعبير بالرؤية في الرواية له معنى عميق وهو نموذج من نماذج الشهود .

٣- وهناك حديث في تفسير الآية : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ، يقول : إن شأن نزول الآية هو النجاشي سلطان الحبشة ، فانه عندما توفي أخبر جبرئيل الرسول بالأمر ، فدعى الرسول المؤمنين لأن يصلُّوا على أحد اخوتهم ، فسألوا : من هو ؟ أجاب : النجاشي . ثم جاء الرسول إلى مقبرة البقيع ، فتجلت له بلاد الحبشة وتابوت النجاشي من المدينة ، فصلَّى عليه^(٢) .

٤- وقد جاء في تاريخ ام الرسول آمنة عليها السلام ، أن نزل عليها ملك عندما كان الرسول في رحمها وقال لها : إن في رحمك سيد هذه الامة فقولي عند ولادته : إني أعوذ بالله الأحد من شر الحاسدين ، وسمَّيه « محمد » ، وقد شاهدت عند حملها أنه خرج منها نوراً أضاء لها قصور بُصرى من أرض الشام !^(٣) .

(١) البحار الجزء ٢١ الصفحة ٥٨ حديث ٩ .

(٢) البحار الجزء ٨ الصفحة ٤١١ .

(٣) سيرة ابن هشام الجزء ١ الصفحة ١٦٦ .

وهذا الحديث يكشف عن امكان حصول حالة الشهود لغير الأنبياء والائمة .

٥ - وفي الحديث المعروف : ان امير المؤمنين عليه السلام كان في بعض حيطان فدك وفي يده مسحاة فهجمت عليه امرأة من اجمل النساء فقالت : يا ابن ابي طالب ان تزوجتني اغنك عن هذه المسحاة وادلك على خزان الارض ويكون لك الملك ما بقيت . قال لها : فمن أنتِ حتى اخطبك من اهلك ؟
قالت : انا الدنيا : فقال عليه السلام : ارجعي فاطلبي زوجاً غيري فلست من شأني فأقبل على مسحاته وانشأ .

لقد خاب من غرته دنيا دنية وما هي ان غرت قروناً بطائل
اتتنا على زي العروس بثينة وزينتها في مثل تلك الشمائل
..... الخ^(١) .

وقد حمل البعض الرواية على « التشبيه » و « التمثيل » و « المجاز » لكننا اذا اردنا حفظ الظاهر ، فمفهومها هو ان الدنيا تمثلت للامام علي عليه السلام في عالم المكاشفة في صورة امرأه جميلة واجابها عليه السلام بالسلب .
وقد نقل تمثل الدنيا للمسيح عليه السلام كذلك في صورة امرأة مخادعة مع اختلاف بسيط عما نقل عن الامام علي عليه السلام^(٢) .

٦ - وقد جاء في احوال الامام السجاد عليه السلام (وعندما كانت فتنة عبد الله بن الزبير في الحجاز مستعرة والكل كان يرتقب نهاية الامر) أن الامام عليه السلام قال : خرجت حتى انتهيت الى هذا الحائط فانكأت عليه فاذا برجل عليه ثوبان ابيضان ينظر في تجاه وجهي ثم قال : يا علي بن الحسين مالي اراك كئيباً حزيناً أعلى الدنيا فرزق الله حاضر للبر والفاجر .

(١) بحار الانوار الجزء ٤٠ الصفحة ٣٢٨ الحديث ١٠ .

(٢) بحار الانوار الجزء ٧٠ الصفحة ١٢٦ باب حب لدينا وذمها الحديث ١٢٠ .

قلت : ما على هذا أحزن وانه لكما تقول . قال : فعلى الآخره فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر - او قال قادر - قلت : ما على هذا احزن وانه كما تقول : فقال : مم حزنك ؟ قلت : مما نتخوف عليه فتنة ابن الزبير وما فيه الناس قال : فضحك ثم قال : يا علي بن الحسين هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه قلت : لا ، قال : فهل رأيت احداً توكل على الله فلم يكفه ؟ قلت : لا ، قال : فهل رأيت احداً سأل الله فلم يعطه ؟ قلت : لا ، ثم غاب عني^(١) .

٧- وفي حديث آخر للامام نفسه عليه السلام يقول فيه : كأني بالقصور وقد شيدت حول قبر الحسين عليه السلام وكأني بالأسواق قد حفت حول قبره فلا تذهب الايام والليالي حتى سار اليه من الآفاق وذلك عند انقطاع ملك بني مروان^(٢) .

٨- جاء في أمالي الصدوق عن احوال الحر بن يزيد الرياحي :

لما خرجت من الكوفة نوديت أبشريا حُرّاً بالجنة .

فقلت : ويلّ للحر يبشر بالجنة وهو يسير الى حرب ابن بنت رسول

الله ﷺ ؟ !^(٣) .

٩- وقد جاء في حديث معروف دار بين ام سلمة زوجة الرسول ﷺ

والامام الحسين عليه السلام ان الامام عليه السلام أراها كربلاء ومحل شهادته^(٤) .

١٠- وقد نقلت حكايات متعددة عن العلماء العظام والمتقين والمؤمنين

الصادقين في مجال المكاشفات وذكرها هنا يطيل بحثنا - الا انه ينبغي القول بانها خرجت عن فحوى الخبر الواحد ووصلت الى درجة الاستفاضة ويمكنها ان تكون مؤيداً جيداً لموضوعنا .

(١) اصول الكافي الجزء ٢ باب التفويض الى الله الحديث ٢ .

(٢) البحار الجزء ٩٨ الصفحة ١١٤ - كتاب المزار - الحديث ٣٦ .

(٣) أمالي الصدوق الصفحة ٩٣ مجلس ٣٠ .

(٤) مدينة المعاجز الصفحة ٢٤٤ .

٢- كيف تُرفع الحجب ؟

إضافة إلى الأحاديث السابقة ، فإن هناك تعابير في الروايات تدل على أن الإنسان كلما ازداد إيمانه و يقينه زالت عنه الحُجُب و النفسيات والصفات الذميمة (التي اصطنعها الإنسان نفسه بذنوبه) عن قلبه وتكشفت له حقائق أكثر عن الكون إلى درجة تمكنه من النظر إلى ملكوت السموات والارض كما نظر إبراهيم الخليل .

إن قلب الإنسان وروحه كالمرآة التي قد لا تعكس حقيقة بسبب المعاصي وسوء الأخلاق ، لكنها عندما تطهر بماء التوبة ، ويزول غبار المعاصي عنها ، ويعقل القلب جيداً ، فإن الحقائق ستسطع فيها ويكون صاحبها أمين اسرار الله ، ويسمع نداءاته التي لا يسمعها إلا من أوّتمن .

ويمكن عدّ الأحاديث التالية شواهداً على ما قلناه !

١ - يقول الرسول ﷺ في ضمن حديث له : « لولا أن الشياطين يحومون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت »^(١) .

٢ - وقد جاء في خبر آخر عن الرسول ﷺ أيضاً : « ليس العلم بكثرة التعلم ، وإنما العلم نور يقذفه الله في قلب من يجب ، فينفتح له ، ويشاهد الغيب ، وينشرح صدره فيتحمّل البلاء ، قيل : يا رسول الله هل لذلك من علامة ؟ قال : التجافي عن داء الغرور ، والأنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله »^(٢) .

٣ - وقد وصف نهج البلاغة حُجَجَ الله على الناس في الارض هكذا :
« هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين ، واستدانوا ما

(١) البحار الجزء ٧٠ الصفحة ٥٩ ، باب القلب وصلاحه الحديث ٣٩ .

(٢) تفسير الصراط المستقيم الجزء ١ الصفحة ٢٦٧ .

استعوره المُتَرَفُونَ ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدان
أرواحها مُعلَّقة بالمحلِّ الأعلى ، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه «^(١) .
٤ - وقد جاء في حديث « ذعلب اليماني » الخطيب النبه الذي كان من
صحابه الامام علي عليه السلام : سأل الامام يوماً هذا السؤال : « هل رأيت ربك يا أمير
المؤمنين ؟ »

أجاب الامام : « أفأعبد ما لا أرى » ؟ !

فقال : « وكيف تراه » ؟

فقال الامام : « لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه القلوب
بحقائق الايمان »

ثم أضاف : « قريبٌ من الأشياء غير ملابس ، بعيد منها غير مباين »^(٢) .

ليس مراد الامام من ادراك الله إدراك بالاستدلال العقلي ، وهذا واضح ، لأن
هذا الأمر حاصل لجميع الموحدين وحتى لتلك العجوز صاحبة الغزل المعروفة ،
فانها تستدل على وجود الله بحركة آلة الغزل التي تحتاج الى محرك ، فكيف
بالفلك العظيم والسموات والارضين .

فالمراد - إذن - إدراك الله يفوق الادراك الطبيعي ، أي الشهود الباطني ، فانه
يرى الله به واضحاً بدرجة وكأنه يراه بعينه . (دققوا) .

٥ - وقد جاء في حديث معروف للامام امير المؤمنين عليه السلام :

« لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً » .

أي اني أرى جميع الحقائق من وراء ستار الغيب أراها بالشهود الباطني ،
وبصيرتي تشق حاجز الغيب وتنفذ فيه .

(١) نهج البلاغة ، الكلمات القصار : ١٤٧ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٧٩ .

٦- قال الامام علي بن الحسين عليه السلام :

« ألا إن للعبد أربع أعين : عينان يُبصر بهما دينه ودنياه ، وعينان يُبصر بهما أمر آخرته ، فاذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه ، فأبصر بهما الغيب وأمر آخرته »^(١).

وقد جاءت روايات عن الشيعة الصادقين يشبه مضمونها مضمون هذا الحديث^(٢).

٧- ونقرأ في حديث الامام الصادق عليه السلام : ان الرسول ﷺ رأى يوماً الصحابي « حارثة » فسأله عن حاله .

فاجابه حارثة : « يا رسول الله مؤمن حقاً ! »

فقال الرسول ﷺ : « لكل شيء حقيقة فما حقيقة قولك ؟ »

فاجابه حارثة : « يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظلمات هواجري وكأني انظر الى عرش ربي وقد وضع للحساب وكأني انظر الى اهل الجنة يتزاورون في الجنة وكأني اسمع عواء اهل النار في النار .

فقال رسول الله ﷺ : « عبد نور الله قلبه أبصرت فاثبت » .

فقال حارثة : « يا رسول الله ادع الله لي أن يرزقني الشهادة معك » .

فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارزق حارثة الشهادة » .

ولم تمض أيام كثيرة حتى أرسل الرسول فريقاً لاحدى المعارك وكان معهم حارثة فقاتل وقتل ثمانية أو تسعة من الأعداء ثم قُتل شهيداً^(٣).

٨- وقد جاء في حديث للرسول ﷺ نقل في كتب اهل السنة : « لولا تكثير

(١) خصال الصدوق الصفحة ٢٦٥ الحديث ٩٠ .

(٢) بحار الانوار الجزء ٦٧ الصفحة ٥٨ الحديث ٣٥ .

(٣) اصول الكافي الجزء ٢ الصفحة ٥٤ باب حقيقة الايمان واليقين الحديث ٣ .

في كلامكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتكم ما أسمع»^(١).
 إن هذه الأحاديث وأحاديث أخرى من هذا النوع ، وضحت العلاقة بين
 الكشف الروحاني والايمان و اليقين ، وبينت امكانية حصول الانسان بالتكامل
 المعنوي - على هذا الادراك الذي لا نعلم عنه غير أنه موجود فحسب .

٣ - سبعة منامات صادقة في القرآن المجيد :

إن « الرؤيا الصادقة » إحدى فروع الشهود والكشف ، والصادقة هي التي
 تتحقق وتطابق الواقع ، فتعد منامات كهذه نوعاً من الكشف .

إن الفلاسفة الروحيين - خلافاً للفلاسفة الماديين الذين يعتقدون بأن
 الاحلام هي وليدة النشاطات اليومية أو الآمال غير المتحققة أو الخوف من الامور
 المختلفة - يعتقدون ان الاحلام تنقسم الى الأقسام التالية :

١ - الرؤيا التي تتعلق بالذكريات والميول والآمال .

٢ - الرؤيا غير المفهومة والمضطربة ويعبر عنها بـ « أضغاث أحلام » وهي
 نتيجة قوة الوهم والخيال .

٣ - الرؤيا التي تتعلق بالمستقبل وترفع الستار عن بعض أسرارهِ ، وبتعبير
 آخر انها شهود يحصل للانسان وهو نائم .

لا دليل للفلاسفة الماديين على نفي القسم الثالث ، بل لدينا قرائن كثيرة
 تثبت واقعية هذا القسم من الرؤيا ، وقد ذكرنا عدة نماذج حية لا تقبل الرد في
 التفسير الأمثل^(٢) .

(١) تفسير الميزان الجزء ٢ الصفحة ٢٩٢ .

(٢) التفسير الأمثل الجزء ٩ الصفحة ٣١٥ الى ٣١٧ .

والجدير ذكره ان القرآن ذكر سبعة موارد على الأقل من موارد الرؤيا الصادقة ، وذكرها هنا يناسب تفسيرنا الموضوعي :

١ - تحدث القرآن في سورة الفتح عن الرؤيا الصادقة للرسول ، حيث رأى نفسه مع أصحابه يدخلون مكة لأداء مناسك العمرة وزيارة بيت الله الحرام ، فأفصح الرسول عن منامه هذا للمسلمين ففرحوا ، إلا أنهم تصورا أن الرؤيا هذه تحققت في السنة السادسة عندما حصل صلح الحديبية ، ولم يحصل الفتح يومذاك ، إلا أن الرسول طمئنهم بأن الرؤيا صادقة وستتحقق يوماً ما .

وقد أجاب القرآن أولئك الذين شككوا في صدق الرؤيا بقوله :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ .

(الفتح / ٢٧)

تحقق المنام بجزئياته في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة ، وقد عرفت العمرة في تلك السنة بـ « عمرة القضاء » لأن المسلمين كانوا قاصدين أدائها في السنة السادسة ، لكن قريش منعتهم منها .

رغم ان المسلمين دخلوا مكة (التي تعتبر مركزاً لقدرة المشركين وسلطانهم) من دون سلاح ، إلا أن ابهتهم كانت مشهودة للأعداء ، وقد صدق عليهم تعبير « آمين » و « لا تخافون » بالكامل ، فأدوا مراسم زيارة بيت الله وبه تحقق منام الرسول ﷺ بجميع خصوصياته رغم أن تخمين وقوع أمر كهذا كان شبه مستحيل ، وهذا من عجائب تاريخ الاسلام .

٢ - وقد أشير في سورة الاسراء الى رؤيا اخرى للرسول ﷺ إشارة عابرة

وقصيرة حيث قال تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾

(الاسراء / ٦٠)

وقد نقل مفسروا الشيعة والسنة حديثاً معروفاً جاء فيه : ان الرسول ﷺ رأى في المنام قروداً ترتقي منبره وتنزل منه ، فحزن الرسول من جراء هذا الأمر ، لأنه يحكي عن الحوادث المفاجئة في قيادة المسلمين بعد الرسول ﷺ (إن الكثير فسّر المنام بحكومة بني امية ، حيث خلفوا الرسول - ظلماً - واحداً بعد الآخر وأفسدوا في الخلافة ، وكانوا فاقدى الشخصية واتبعوا ما كان عليه آباؤهم في الجاهلية)^(١).

وادعى البعض ان هذه الرؤيا هي نفس رؤيا دخول مكة ، بينما سورة الاسراء نزلت بمكة ، والرؤيا كانت في المدينة وقبل حدث صلح الحديبية في السنة السادسة .

وقد رجح البعض مثل الفخر الرازي أن تكون الرؤيا بمعنى المشاهدة في حالة اليقظة ، والآية تشير الى مسألة المعراج^(٢) .
لكن هذا التفسير ضعيف لأن المعنى الأصلي واللغوي للرؤيا هو المشاهدة عند النوم لا لليقظة ، وعليه فالصحيح هو التفسير الأول .

أما المراد من « الشجرة الملعونة » ، فقد ادعى البعض : إنها هي « شجرة الزقوم » التي تنبت في قعر جهنم طبقاً للآية (٦٤) من سورة الصافات ، وهي طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون طبقاً للآيات (٤٦ و ٤٧) من سورة الدخان .

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ٢٠ الصفحة ٢٣٦ .

(٢) جاءت هذه الرواية في تفسير القرطبي ومجمع البيان والصابي والفخر الرازي ، وقد قال الفيض الكاشاني : إنها من الروايات المشهورة عند العامة والخاصة .

الشجرة الملعونة نسلًا بعد نسل ، وكانوا بلاءً عظيمًا على المسلمين ، وامتحاناً كبيراً لهم .

٣- والرؤيا الصادقة الاخرى هي رؤيا ابراهيم الخليل ﷺ فيما يخص ذبح اسماعيل عليه السلام ،

فانه كان محلاً لامتحان عظيم للوصول الى مقام الامامة وقيادة الامة الرفيع ، فقد أمر بذبح ابنه العزيز « اسماعيل » ، رغم أن الأمر أوحى إليه وهو نائم ، أي ان الابعاز كان مناماً لا شيئاً آخر ، ولنقرأ ما يقوله القرآن في هذا المجال :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

(الصافات / ١٠٢)

إن التعبير بـ « أرى » الذي هو فعل مضارع يفيد الاستمرار يدل على أن ابراهيم عليه السلام كان يرى الرؤيا كراراً ، بحيث حصل له اطمئنان بأن الأمر من الله ، ولهذا أجابه اسماعيل بهذا الجواب : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

ولهذا السبب نفسه جاء في الآيتين (١٠٤ و ١٠٥) من نفس السورة : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ - قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ .

والحادث هذا ، دليل واضح لأولئك الذين يقولون بامكانية عد الرؤيا الصادقة نوعاً من أنواع الوحي للانبياء والرسل ، كما أنه قد جاء في بعض الروايات : « إن الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءاً من النبوة »^(١) .

وقد شكك بعض الاصوليين في مسألة نسخ الحكم قبل العمل به إلا أن

كلامهم - وكما ذُكِرَ في محله - يختص بالأوامر غير الامتحانية ، أما في الامتحانية فهو غير صادق ، والتعبير بـ « قد صدقت الرؤيا » دليل على أن ابراهيم عليه السلام قد أدى ما عليه بما جاء به من تهيئة المقدمات لهذا الايثار الكبير .

٤ - ومن الرؤى الصادقة في القرآن ، هي رؤيا يوسف في بيت أبيه ، حيث أشارت إليها الآيات الاولى من سورة يوسف :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

(يوسف / ٤)

تنبأ يعقوب مستقبل يوسف والحوادث المقبلة عليه فبشره : ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ﴾ .

يعتقد بعض المفسرين ان يوسف رأى هذا في المنام وهو في الثانية عشر من عمره ، وقد تحقق منامه بعد أربعين سنة حيث جلس على عرش الحكومة في مصر ، وجاءه اخوته مع أبويه خاضعين له ، أو ساجدين لله شكراً ، كما أشير الى ذلك في نهاية السورة :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا
تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾

(يوسف / ١٠٠)

إن هذا الحديث يحكي بوضوح عن امكانية تحقق أحلام صادقة منقوشة في قلب طاهر قبل أربعين رغم انه لم يُذكر العدد (٤٠) سنة في آيات القرآن ، إلا أن المستفاد من قرائن الآيات ان الفاصل بين المنام وتحقيقه كان طويلاً جداً .

وجدير بالذكر هنا أن من ضمن البشائر التي بشر يعقوب بها يوسف هذه البشري : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ (يوسف / ٦) .

وهذه الجملة (سواء عنت علم تعبير المنام كما يعتقده كثير من المفسرين أو عنت مفهوماً أوسع من ذلك ليشمل الخبرة والاحاطة باصول وأسباب الحوادث ونتائجها)^(١) ، فانها على كل حال دليل واضح على امكانية صدق بعض الرؤى وتحققها عيناً وواقعاً في الخارج .

٥ و ٦- وهما مناما اللذين كانا مع يوسف في السجن عندما كان مسجوناً بذنب طهارته ، فيحكي الله قصتهما في نفس السورة ويقول :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف / ٣٦)

فدعاهما يوسف للتوحيد وعبادة الله قبل أن يأوّل ما رأى ، ثم قال للذي رأى أنه يعصر خمراً اي عنياً : إنك تخرج من السجن ، وقال للذي رأى فوق رأسه خبزاً يأكل منه الطير : إنك ستُحال للاعدام وقد تحقق المنامان (من المتعارف في بيئة فاسدة وحكومة جبارة مثل بيئة وحكومة مصر آنذاك حيث يحكم على يوسف بالسجن بذنب العفة والطهارة ، أن يطلق سراح الذي يسالم الحكومة ويحضر الخمر لطغاتها ، اما الذين يتحلون بروح الدفاع عن المستضعفين ويعطون خبزاً للطيور فيحكم عليهم بالاعدام) .

وعلى أي حال ، فان هاتين الرؤيتين اللتين حكاهما القرآن بصراحة يكشفان عن امكان اعتبار الرؤيا كمصدر للمعرفة ، بالطبع لا كل رؤيا ولا كل معبر ومفسر لها .

٧- رؤيا سلطان مصر التي جاءت في نفس السورة ، وهي نموذج واضح

آخر للرؤيا الصادقة ، يحكي القرآن هذه الرؤيا قائلاً :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأَخْرَ يَابَسَاتٍ يَأْتُهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي
رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾

(يوسف / ٤٣)

وبما أن حاشية الملك لم يكونوا خبراء بتعبير الرؤيا ، قالوا له : « أضغاث
أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين » .

يحتمل أنهم أرادوا طمأنة سلطان مصر بحديثهم هذا (ينبغي الالتفات الى
أن ملك مصر وفرعونها هو الحاكم العام لمصر ، بينما عزيز مصر فهو - كما يقول
بعض المفسرين - وزير الخزينة ، واسم فرعون المعاصر ليوسف هو « ريان بن
وليد » واسم عزيز مصر « قطفير او عطفير »^(١) .

فتذكر عندها ساقى الملك الذي أطلق صراحه من السجن بعد أن رأى
الرؤيا وأولها يوسف ، فحكى القصة للملك فبعث الملك شخصاً الى يوسف كي
يأول المنام ، فأوله هكذا :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ
إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَاْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ
مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِتُونَ ﴾

(يوسف / ٤٧ - ٤٨)

وقد تحقق المنام بعد ذلك ، وعندما شاهدوا الصدق والمعرفة في

(١) نقل هذا المضمون في التفسير الكبير للفخر الرازي الجزء ١٨ الصفحة ١٠٨ (وللتفصيل براجع
« اعلام القرآن » الصفحة ٦٧٣ ، كما قد صرح « ابو الفتوح الرازي » أن نهاية يوسف وصوله الى سلطة
مصر) تفسير أبي الفتوح الجزء ٦ الصفحة ٤٠١ .

يوسف عليه السلام ، أطلقوا سراحه ، وقد أدى به الأمر أن أصبح عزيز مصر ووزير الخزينة ، ثم من بعده أصبح ملك مصر كلها مع سعتها وعمرانها .

النتيجة :

يستفاد من الآيات السابقة امكانية لاختبار بعض الرؤى مصدراً لأدراك بعض الحقائق ، وبتعبير آخر : فان مسألة الكشف والشهود يمكنها أن تحصل في المنام كما تحصل في اليقظة ، وهذه الرؤى على ثلاثة أقسام (طبقاً للآيات الماضية) :

- ١ - بعض تتحقق في الخارج عيناً من دون أي تغيير ، مثل رؤيا الرسول ، زيارته مع الصحابة لبيت الله الحرام التي جاءت في سورة الفتح .
- ٢ - منامات تتحقق وهي بحاجة الى تفسير وتعبير ، وتتحقق بتفسيرها لابعينها ، ولا يفسرها إلا الخبير بها ، مثل المنامات الأربعة التي حصلت ليوسف ولصديقيه في السجن ولملك مصر ، وقد ذكرت كلها في سورة يوسف .
- ٣ - الرؤيا التي فيها جانب حكم وإيعاز ، وتُعدُّ نوعاً من الوحي يحصل عند النوم مثل رؤيا ابراهيم عليه السلام .

بالطبع ليس مفهوم الكلام هذا أن كل حلم يُعدُّ كشفاً أو شهوداً ، بل إن كثيراً من المنامات تُعدُّ أضغاث أحلام ، وتفتقد لأي معنى ، وهي رؤى ناتجة عن نشاط قوة الوهم ، أو عم الحرمان والكبت والمآسي والانزعاج والتألم .

سؤال ؟

قد يسأل البعض عن المنامات التي تتعلق بحوادث المستقبل ، فهل هي نوع من العلم ؟ أم هي (كما يعتقد فرويد العالم النفساني المعروف) لا شيء سوى إرضاء للشهوات والميول المكبوتة والحرمان الحاصل للانسان ، فتتجلى له في المنام مع تغير وتبدل لخداع « الأنا » ولأرضاء الشهوة المكبوتة فان الحلم إشباع خيالي لها ، وقد ينعكس هذا الميل بنفسه عيناً في الحلم (مثل رؤية عاشق لمعشوقته الفقيدة عيناً) وقد ينعكس في منامه مع تغيير وتبديل ، فيحتاج الى تعبير وتفسير حينها .



الجواب :

إن ما يقوله فرويد هو فرضية لا أكثر ، وفي الحقيقة لا دليل على ما يدعيه أبداً ، فقد تكون بعض المنامات مصداقاً لما يدعيه ، أما كون الاحلام كلها من هذا القبيل فهذا ما لا دليل له عليه^(١) .

نحن نعتقد أن للمنامات أقساماً ، وقسم منها هو الرؤيا الصادقة ، ونعدها وسيلة للكشف أي كشف بعض الحقائق ، وهذه حقيقة آستفدناها من القرآن (الذي هو وحي الهي) بالدرجة الاولى ، وبالدرجة الثانية من التجارب التي حصلت في هذا المجال ، ليس المراد تلك الحكايات التي لا سند لها ، بل المراد الحوادث التي وقعت لشخصيات كبيرة ومعروفة في عصرنا أو في العصور

(١) لم يكتشف العلماء منشأ النوم (لا المنام) بعد ، فلا يعلمون هل أن منشأ نشاط فيزيائي أو كيميائي أو كلاهما ، أو ناشيء عن نشاط الجهاز العصبي ، فاذا كان النوم نفسه لغزاً لم يحل بعد ، فكيف يمكن القول بحل مسألة المنام التي هي أعقد من مسألة النوم أضعافاً مضاعفة ! .

الماضية ، وقد نقلوا هذه المنامات في كتبهم (وقد أشرنا الى بعض من نماذجها الواضحة في الجزء التاسع من التفسير الأمثل) .

ومن هنا يعرف انه لا يمكن عدّ الرؤيا لوحدها مصدراً للمعرفة ، ولهذا يقال بعدم حجية الرؤيا ، بل ينبغي ضم قرائن من الخارج موضحة ولا تقبل النفي ، لتصبح الرؤيا مصدراً مقبولاً للمعرفة .



٤- المكاشفات الرحمانية والمكاشفات الشيطانية :

قد نستغني عن التذكير بأنه كما يوجد كشف وشهود واقعي يحصل تارة بالايمان واليقين الكامل ، وتارة اخرى بالرياضات النفسية ، فانه يوجد كشف وشهود وهمي كثير ، فقد يحصل هذا الكشف بسبب التلقينات المكررة وانحراف الذهن والفكر عن جادة الصواب ، وتارة بسبب اللقاءات الشيطانية ، فتتمثل في ذهن الانسان صور وحوادث لا واقع لها ، إنها مجموعة أوهام لا أكثر ، ومن هذا القبيل الكشف والشهود الذي يدعيه كثير من « الصوفية » ، فان المريد البسيط يعتقد في بداية عمله (من جراء الاعلام والدعاية التي يتلقاها من البعض) أنه ينبغي له أن يرى مرشده الحقيقي في المنام ، وتقوى هذه الفكرة عنده كل يوم ، فيتوقع في كل يوم رؤية جمال مرشده ومراده في عالم الرؤيا يزوره و يرشده (غالباً ما يضع أشخاصاً معينين نصب عينيه لهذا المنصب ، واذا لم يعينهم بالدقة فانه يعين صفات ومميزات خاصة لهم) .

قد يفقد هذا الصوفي تعادل فكره الطبيعي من جراء الرياضات الشاقة وانحراف المزاج ، فتزداد قدرة الوهم عنده ، فيرى في المنام يوماً أشخاصاً قريبين - من حيث الصفات والميزات - من الأشخاص الذين رسمهم في ذهنه ،

وقد يتطابقان في الصفات بالكامل ، وقد يحصل هذا في عالم اليقظة ، لأن عيني هذا السالك البسيط راحلة الى الطريق ، وأذنيه صاغية إليه دائماً ، فتنمو هذه الفكرة عنده ليلاً ونهاراً ، وقد تصنع قوة الوهم عنده - لا إرادياً - صوتاً ينقر أذنه ، أو تتمثل أمامه صورة ، فيتخذها أساس اعتقاده .

كما أن الاستماع الى المواضيع المؤنسة والمنشطة (التي قد تبين في اطار أشارات جميلة وتتزامن مع الحان مخدرة ، يزيد من تأثير التلقينات عليه أضعافاً مضاعفة .

إن تلك الفرقة من الصوفية التي تؤيد « الوجد والسماع »^(١) ، يذوبون فيهما بشكل حيث يفقدون توازنهم ، ويُعطّل العقل عندهم ، فيترك الساحة فارغة لقوة الوهم ، وأولئك الغامرون في وهم الكشف والشهود ومشاهدة عالم الغيب يسبرون في عوالم خيالية تتوقف سعتها على شدة الوهم والخيال عندهم ، فتتمثل أمامهم صور مثل بحار النور ، وجبل الطور ، والسموات السبع والارضين السبع ، وكلما مالت قوة الوهم عندهم الى شكل أو صورة ، تمثل ذلك الشكل او تلك الصورة أمام أعينهم .

إنهم يفرحون لهذه اللحظات كثيراً ، وكأنهم التقوا بالمراد وعانقوه ، فيصرحون وتعلو اصواتهم ، مما يزيد ويفاقم هذه الحالة عندهم ، ثم يمرون بحالة شبيهة بالاغماء ، وبعدما يصحون ويهدءون من هذه الحالة ، يحكون للناس ما رأوا ظناً منهم أنه كشف .

إنهم في الحقيقة يسعون نحو السراب ظناً منهم أنه ماء ، ورغم عدم

(١) المراد من السماع ، الألحان الموسيقية أو نغمات المطربين الدارجة في بعض مجالس الصوفيين ، والمراد من الوجد ، الذوق والشوق واللهفة التي تحصل للصوفيين الذين يحسنون السماع ويقترن مع حركات تشبه الرقص .

وصولهم الى شيء ، يتلون بأمور بعيدة عن الحق والحقيقة .
وبعبارة مختصرة : لا يمكننا تصديق كل من ادعى الكشف والشهود ، وكذا
لا يمكننا اعتبار كل تمثيل وكل نداء إلهياً واقعياً ، وذلك لأن هناك كشفاً شيطانياً .
وقد جاء في حديث للامام علي عليه السلام مع حسن البصري : أن الامام عليه السلام مر
بالحسن البصري وهو يتوضأ فقال : يا حسن اسبغ الوضوء . فقال : يا امير المؤمنين
لقد قتلت بالامس انساناً يشهدون ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً
عبده ورسوله ، يصلون الخمس ، ويسبغون الوضوء . فقال له امير المؤمنين عليه السلام :
قد كان ما رأيت فما منعك ان تعين علينا عدونا . فقال : والله لأصدقك يا امير
المؤمنين لقد خرجت في اول يوم فاغتسلت وتحنطت وصبيت عليّ سلاحي وانا
لا اشك في ان التخلف عن ام المؤمنين عائشه هو الكفر ، فلما انتهيت الى موضع
من الخريبه ناداني مناد « يا حسن الى اين ارجع فان القاتل والمقتول في النار »
فرجعت ذعراً وجلست في بيتي ، فلما كان في اليوم الثاني لم أشك ان التخلف
عن ام المؤمنين عائشه هو الكفر ، فتحنطت ، وصبيت عليّ سلاحي وخرجت
اريد القتال ، حتى انهيت الى موضع من الخريبه فناداني مناد من خلفي : « يا
حسن الى اين مرة بعد اخرى فان القاتل والمقتول في النار » قال علي عليه السلام : صدقك
افتدري من ذلك المنادي ؟ قال : لا . قال عليه السلام : ذاك اخوك ابليس ، وصدقك ان
القاتل والمقتول منهم في النار ، فقال الحسن البصري الآن عرفت يا امير المؤمنين
ان القوم هلكي^(١) .

إن نداءات كهذه أشير إليها في القرآن بصفة وحي الشياطين ، حيث يقول
تعالى في سورة الانعام الآية (١١٢) : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ
الْأَنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ .

إنها نوع من الامتحان للتمييز بين صفوف المؤمنين وغيرهم ، فقد جاء في الآية (١٢١) من نفس السورة :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ﴾

وللسبب الذي مضى ، نرى كتب الصوفيين مليئة بهذا النوع من المكاشفات ، مكاشفات غريبة وموحشة ، ومردوداتها السلبية كثيرة ، نشير الى بعض منها هنا بشكل مختصر :

١ - كتب محي الدين العربي في كتابه « مسامرة الأبرار » إن الرجبين لأشخاص مرتاضون برياضات خاصة ، ومن صفاتهم أنهم يرون الرافضيين (الشيعة) في حالة الكشف في صورة خنازير .

٢ - وكتب الشيخ عطار في كتابه « تذكرة للأولياء » عن « يزيد البسطامي » : طُفْتُ البيت فترة ، وعندما وصلت الى الحق ، رأيت أن الكعبة تطوف حولي ! ... إن الله بلغ بي الى درجة حيث أستطيع أن أرى الخلق جملة بين اصبعي !^(١) .

٣ - وقد جاء في نفس الكتاب ، أن يزيد قال : عرض عليَّ الحقُّ الفِى مقامٍ عنده وفي كل مقام سلطان ، وما قبلتُ^(٢) .

إن هذه إدعاءات لم تُسمع من نبيٍّ مرسل ولا من إمام معصوم ، بل إن أدعيتهم ومناجاتهم في جنب بيت الله التي تكون في غاية التذلل والتواضع تكشف عن أن كشفاً كهذا إن لم يكن فهو - قطعاً - أوهام وتخيلات شيطانية ترسم في أذهان البعض ، لأسباب وعوامل مختلفة ، أشرنا الى بعضها سابقاً ، وإن سعة هذه الأوهام تتوقف على مدى وطول امنيات الشخص وتخيلاته .



(١) تذكرة الاولياء الصفحة ١٠٢ .

(٢) تذكرة الاولياء الصفحة ١٠١ .

سؤال ؟

ثمت سؤال يطرح نفسه هنا ، وهو : هل من طريق لتمييز المكاشفات « الرحمانية » عن « الشيطانية » و « الحقيقية » عن « الوهمية » أم لا ؟

الجواب :

نعم توجد ثلاث علائم تتميز بها - اجمالاً - المكاشفات الشيطانية عن الرحمانية ، وهي : إن الرحمانية اضافة الى كونها يقينية وقطعية تقترب بمستوى عالٍ من الايمان واليقين والمعرفة والاخلاص والتوحيد والعمل الصالح . بينما تفتقد المكاشفات الشيطانية هذه المواصفات ، وعلى هذا الأساس فلا اعتبار بقول من يدعي المكاشفات الرحمانية وهو يفتقد هذه المواصفات .

ولقد قرأنا في رواية مضت أن الرسول ﷺ قال : « العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يحب ، فينفتح له ، ويشاهد الغيب ، وينشرح صدره فيتحمل البلاء ، قيل : يا رسول الله وهل لذلك من علامة ؟ قال : التجافي عن دار الغرور ، والأنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله »^(١) .

ثم إن المكاشفات الحقيقية تتفق دائماً مع الكتاب والسنة ، وفي نفس الاتجاه الذي يتجه إليه كلام الله والمعصومين عليهم السلام ، ولا تميل بقدر الانملة عن جادة الطاعة الربانية ، وغير ملوثة بأصغريثم أو ذنب .

وثالثاً ، إن محتوى المكاشفات الحقيقية تتفق دائماً مع العقل اتفاقاً كاملاً ، وتكون بعيدة عن الامنيات والأوهام غير المعقولة ، فالذي يقول : « إني رأيت الرافضية - مكاشفة - كالخنازير » ، في الحقيقة رأى نفسه في مرآة ذاته . والذي

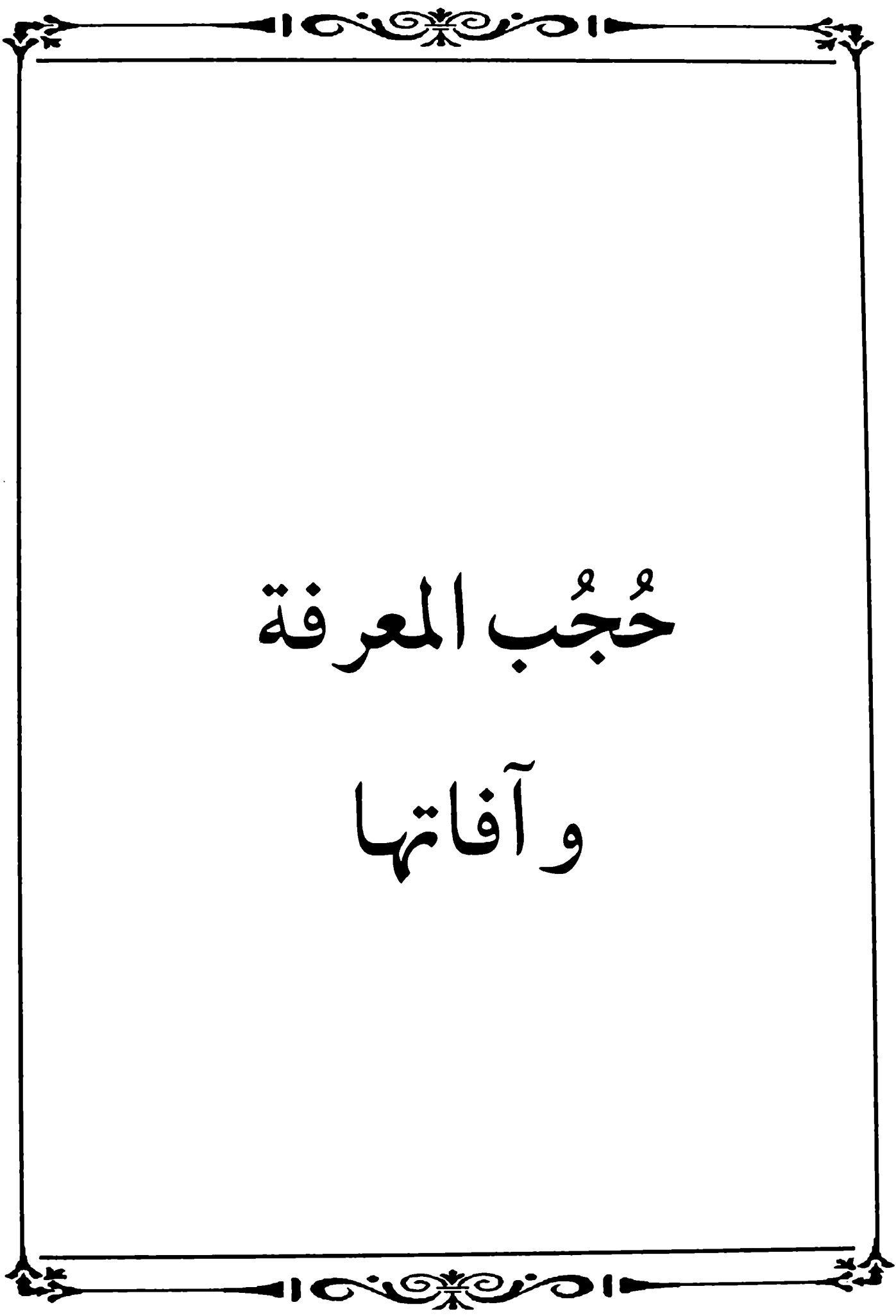
(١) تفسير الصراط المستقيم الجزء ١ الصفحة ٢٦٧ .

يقول : « عندما وصلت الى الحق ، فرأيت بيت الله يطوف حولي ، فانه مُصاب بوكع في رأسه ، وشخصاً كهذا يرى نفسه مستغنياً عن الطواف ، ويرى الطواف أدنى من شأنه ، بينما الرسول ﷺ بعظمته لم ير نفسه مستغنياً عن ذلك ، وقد حج حتى في آخر سنة من عمره الشريف ودى المناسك .

وآخر الحديث في الكشف والشهود هو هذا :

لا يمكن عدّ الكشف والشهود كمصدرٍ عامٍ للمعرفة مثل « العقل » و « الحس » و « التاريخ » بل انه مصدر خاص ، وله شروط ومواصفات صعبة (دقق) .





حُجُب المعرفة وآفاتها

حُجُب المعرفة وآفاتِها

تمهيد :

توقفنا حتى الآن - في طينا الطُّرُق العلم والمعرفة - في محطات واجتزناها .
لقد قبلنا وجود واقعيات خارج اطار الذهن ، وقبلنا كذلك امكانية إدراك
تلك الواقعيات الى حدٍ ما ، وقد عرفنا بدقة مصادر المعرفة الستة .

كما علمنا أن خمسةً من مصادر المعرفة أي « الحس » و « العقل » و
« الفطرة » و « التاريخ » و « الوحي » عامة ويستطيع الجميع الاستعانة بها للوصول
الى المعرفة المرادة ، إلا أن المصدر السادس وهو الشهود الباطني مصدر خاص
بفريق من المؤمنين وأولياء الله ، ولا يعم الجميع .

بقي محطتان ينبغي العبور منهما للوصول الى المراد ، الاولى « مواضع
طرق المعرفة » ، والاخرى « ممهديات المعرفة » ، والبحث الآن يصب في الموانع .
مما لا شك فيه : ان العين لوحدها لا تكفي لرؤية الأشياء والأشخاص ، بل
ينبغي أن لا يكون هناك حجاب يحول دون الرؤية ، فان كان هناك دخان أسود
أو غبار أو ضباب غليظ بيننا وبين الشيء المراد رؤيته فأننا لا نرى ما أمامنا
وحوالينا القريب منا ، فضلاً عن البعيد ، كذا الأمر بالنسبة للشمس فلا يمكن

رؤيتها إذا حالت الغيوم بينها وبيننا رغم نورها الساطع .

إذا لبس شخص نظارة سوداء ، فطبيعي أن لا يرى شيئاً ، وإذا لبس نظارة ملونة فانه سيرى الاشياء ملونة كذلك (حسب لون نظارته) ، وإذا كان عدستا نظارته غير مصقولتين جيداً فانه سيرى الاشياء معوجة ، وإذا كان شخص مبتلي بمرض اليرقان فانه سيرى الأشياء صفراء ، وإذا كان أحولاً فانه سيرى صوراً لا تتطابق مع الواقع .

وأمثال هذه الموانع بالضبط قد تحصل للعقل والفطرة ، وقد تحصل موانع في فهم التاريخ وحتى الوحي وكلمات المعصومين عليه السلام ، فقد يُساء فهمه لنفس الموانع والحجب التي تحصل للانسان في مصادر المعرفة الاخرى ، ومن هنا نفهم أهمية بحث موانع المعرفة ونذكر أهمية العلم بها للوصول الى المعرفة .
وبما أن القرآن منطلق بحثنا في التفسير الموضوعي ، فنسعى لمعرفة الموانع والحجب التي ذكرت فيه بالدرجة الاولى ، لأنه هو أساس بحثنا .
بَحْثُ الْقُرْآنِ مَوَانِعَ الْمَعْرِفَةِ بِنَحْوَيْنِ : الاول بحوث كلية و « منذرة » والثاني : بحوث جزئية و « تعليمية » ، ونذهب الآن الى البحوث الكلية .



حُجُبُ الْمَعْرِفَةِ :

نصفي خاشعين أولاً الى الآيات التالية :

١ - ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سَوَاءُ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا ﴾

(فاطر / ٨)

٢ - ﴿ وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(الانعام / ٤٣)

٣ - ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ
الْفِتْنَةِ ﴾

(آل عمران / ٧)

٤ - ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(المطففين / ١٤)

٥ - ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾

(الحج / ٥٣)

٦ - ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾

(الاسراء / ٤٦)

٧ - ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا
يُؤْمِنُونَ ﴾

(البقرة / ٨٨)

٨ - ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(الاعراف / ١٠٠)

٩ - ﴿ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

(التوبة / ٨٧)

١٠ - ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ
غِشَاوَةً ﴾

(البقرة / ٧)

١١ - ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ
عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾

(الجاثية / ٢٣)

١٢ - ﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

(محمد / ٢٤)

١٣ - ﴿ إِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

(الحج / ٤٦)

١٤ - ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

(الأعراف / ١٧٩)

شرح المفردات :

قبل كل شيء ينبغي الخوض في البحث عن المفردات الجميلة التي استعملت في الآيات السابقة التي أشارت الى حجب المعرفة وموانعها ، لأن كلاً منها تشير الى مرحلة من مراحل انحراف ذهن الانسان وحرمانه من المعرفة ، فتبدأ بالمراحل الأضعف ، وتنتهي بمراحل أشد وأقوى من الحرمان بحيث تسلب الانسان قدرته على التمييز ، بل تصوّر له الحقائق بالعكس فيرى الشيطان - من جرائمها - ملكاً بريئاً ، والقبح حسناً ، والباطل حقاً !

إنَّ « زيغ » تعني - كما يقول كثير من أئمة اللغة - الانحراف ، أو الانحراف

عن الحق والحقيقة ، ولهذا جاء في القرآن : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ ^(١) .

و « رَانَ » من مادة « رَيْن » وهو الصدأ الذي يصيب بعض الفلزات هذا ما قاله الراغب في مفرداته ، وقد قال بعض أهل اللغة : « إنه قشر أحمر يترسب من الهواء ويظهر على بعض المعادن مثل الجديد » . وهذا الصدأ علامة للتفسخ والتلف ، وزوال شفافية ولمعان الفلز .

وقد فسر البعض هذه المفردة بـ « غلبة أمر على أمرٍ آخر » أو « الوقوع فيما لا مخرج منه » .

وقد قيل للشراب « رَيْنَه » لانه يتغلب على العقل ^(٢) .

« الْوَقْر » هو الثقل في السمع بدرجة يستصحب السمع بها .

أما « الْوَقْر » فهو الثقل الذي يوضع على ظهر الانسان أو رأسه ، كما يقال

« وقر » للحمل الثقيل ، ولهذا قيل لصاحب العقل « ذي وقار » .

« الغشاوة » تطلق على كل شيء غطى شيئاً آخر ، ومن هذا الباب قيل

لlestارة غشاوة ، وقد أطلق « غاشية » على يوم القيامة من حيث ان الخوف

الناشيء منها يغطي جميع الناس ويخيم عليهم ، وقد اطلقت هذه المفردة على

الليل الأظلم كذلك لأنه كالستار يغطي الارض ، كما اطلقت على « الخيمة »

كذلك .

« أَكْنَة » جمع كِنان ، وفي الاصل تعني كل غطاء يُستر به شيء ، و « الْكِن »

يعني الوعاء الذي تحفظ به الأشياء ، وقد اطلقت هذه المفردة على البيت أو على

أي شيء يحفظ الانسان من الحرارة والبرودة ، وجعل الأكنة على القلوب يعني :

سلب قدرتها في التمييز .

(١) آل عمران : ٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ذيل الآية ١٤ من سورة المطففين والمنجد مادة (رين) .

« الغُلْف » جمع « أَغْلَفَ » ومن مادة « غِلَاف » وتعني غلاف السيف او غلاف أي شيء آخر ، و « قلوب غلف » تعني قلوباً لا تفهم ولا تعي شيئاً ، وكأنها مُغلّفة .

« قَسَتْ » من مادة « قَسَوَة » ، والقساوة تعني الصلابة والغلظة ، ويقال للدرهم الزائفة « قَسِي » ، والقلوب القاسية هي الصلبة والغليظة تجاه الحق والعدالة .

و « نَطَبِعَ » من مادة « طَبَعَ » ويعني الختم والنقش ، ومن هذا الباب تستعمل المفردة هذه في مجال المسكوكات الذهبية والفضية ، ويقال للخاتم الذي تُختم به الكتب والرسائل طابع ، وعندما تستعمل هذه المفردة في مجال العقل فتعني أنه مُغطّى ومختوم عليه فلا يفهم ولا يعي شيئاً ، وكأن أبوابه مغلقة ومختوم عليها ، أما مفردة « طَبَعَ » فتعني الصداً الذي يعلو السيف ، كما تطلق على المعاصي والذنوب التي تعلو القلب وتغطيه .

و « الخَتْم » يعني الانتهاء والفراغ من الشيء ، وبما أن الرسائل تختم عند الفراغ منها ، قيل لوسيلة الختم خاتم ، وفي الماضي كان كثير من الناس ينقشون أسمائهم على نصوص ما يتختمون به ، فيختمون بها الرسائل ، ولهذا أطلق على خاتم اليد خاتماً .

وكان وما زال العرف (اذا ارادوا أن يغلقوا بيتاً أو صندوقاً بحيث لا يفتحه أحد) يغلقون الباب أولاً بحبل أو قفل ، ثم يصبون مادة لصقة أو طين لزج على القفل أو الحبل ثم يختمون على تلك المادة ، بحيث اذا أراد شخص فتح الباب أو الصندوق اضطرَّ لأن يكسر الختم .

إن استعمال القرآن لهذه المفردة في مجال العقول ، إشارة الى انها عقول مقفلة ومختوم عليها ولا تعي شيئاً بدرجة لا يمكن طريق فيها نحو العلم والمعرفة .

جمع الآيات وتفسيرها :

النفوذ التدريجي لآفات المعرفة :

(الانحرافات والرين والأمراض والأكنة والأقفال) :

كما قلنا سابقاً : إن أهمية بحث « موانع المعرفة » تستدعي عرض

الموضوع في مرحلتين :

المرحلة الاولى : ونبحث فيها - اجمالاً - عن وجود الموانع والحجب

وكيفية تأثيرها على العقل ، وكيفية تلوث مصادر المعرفة بها تدريجياً ، الى درجة

تنتهي الى تعطيلها .

المرحلة الثانية : ونبحث فيها عن جزئيات وخصائص كل من هذا الموانع

والآفات وللقرآن بحث واسع وجذاب في هذا المجال .

ونذهب في البداية الى المرحلة الاولى ، ومما تجدر الإشارة إليه ، هو ان

القرآن تحدث عن موانع المعرفة والآفات ونفوذها التدريجي والغامض ، بشكلٍ

حيث عرّف سالكي طريق العلم ، والمعرفة بها تعريفاً كاملاً ، وأنذرهم كراراً بأن

لا يفتنوا عمرهم ساعين نحو السراب ظناً منهم أنه ماء ، وبعد سنوات من السعي

الحثيث ينتهون الى الباطل .



والآن نبحث معاً الآيات المذكورة :

الحديث في الآية الاولى والثانية يدور حول تزيين الاعمال ، فتارة يزينها

الشیطان للانسان (كما جاء ذلك في الآية الثانية) وتارة تكون ذهنيات الانسان

ونفسه أو عوامل اخرى هي التي تزين للانسان سوء أعماله (كما جاء ذلك في

الآية الاولى ، حيث ان الفعل فيها مبني للمجهول (فقالت : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾) فان الاول يتجه نحو الهاوية والثاني نحو الصراط المستقيم ، واذا ما صدر منه عمل سيء أسرع الى التوبة وجبران ما عمل .

وتضيف الآية الثانية : إن قلب الانسان يقسو في المرحلة الاولى ، ثم يتأهل لتقبل وسوسة الشيطان فتتمثل الأعمال السيئة حسنةً أمامه ، ومن هنا نرى بعض الناس غير نادمين على أعمالهم السيئة ، بل قد يفرحون ويتباهون بها ، ويصرون على منطقيتها وصحتها .

وقد حصل هذا الأمر لأخوة يوسف ، فعندما ألقوه في البئر وجاءوا أباهم بقميصه ملطخاً بدم كاذب ادعوا أكل الذئب له ، وانهم صادقون في كلامهم . فاجابهم أبوهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ (يوسف / ١٨) . أي ظننتم أنكم أحسنتم عملاً بهذه الجريمة ، وانكم ستحلون محل يوسف في قلبي ، وأن يوسف انتهى أمره الى الأبد ، غافلين عن أنكم تهيون بعملكم هذا مقدمات عزه وسلطانه ، وان مكانه سيبقى فارغاً في قلبي حتى أراه مرة أخرى .

ومما يستحق الإشارة إليه هو ان القرآن ينسب تزوين الأعمال تارة للشيطان وتارة لنفس الانسان ، وتارة يأتي التزوين في صيغة فعل مبني للمجهول وتارة ينسبه الى الله تعالى كما جاء ذلك في الآية (٤) من سورة النحل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ، وهذه ترجع الى أن مقدمات هذا الأمر تبدأ من نفس الانسان ، فيتمسك بها الشيطان ويفعل فعلته ، وبما أن الله سبب الأسباب وخالق العلل والمعلولات فتنسب إليه نتيجة الأعمال ، وتقتضي

حكيمته بأن يبتلي البعض بمصير كهذا وما أصعب حال الذي تتمثل السيئات أمامه حسنات !



وقد تحدثت الآية الثالثة عن المراحل الاولى لانحراف القلب ، وبعد تقسيمها للآيات الى محكمات (وهي ذات المفاهيم الواضحة) ومتشابهات (وهي ذات المعاني المعقدة) قالت : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدَ رَبِّنَا ﴾ ، فالراسخون في العلم يفسرون المتشابهات بالمحكمات ، واما الذين في قلوبهم زيغ فيأخذون بالمتشابهات ويفسرونها برأيهم ابتغاء الفتنة .

إنهم يتمسكون بما تشابه من القرآن لتبرير نواياهم غير الخالصة ، ولهذا نرى كثيراً من المنافقين وأصحاب البدع وأتباع المذاهب المنحرفة يستغلون صفاء قلوب المخلصين والمؤمنين بآيات الله بالكامل ، ويبررون بدعهم بالاستعانة بـ « التفسير بالرأي » والاستعانة بالآيات المتشابهة . وبتعبير آخر : بما أن قلوبهم وأفكارهم منحرفة فيرون آيات الله منحرفة ايضاً ، كالمرآة المعوجة تنعكس فيها لصور معوجة .



والآية الرابعة تشير الى الصدا والرين الذي يعلو القلوب ، فإنه كالغبار الذي يعلو القلوب بسبب الذنوب والمعاصي ، فيتراكم الغبار عليها حتى تتحجر ، ويغطي الصدا القلب كله ، حيث قالت الآية : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ

مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ فلا عجب في عدم تمكنهم من رؤية الحقيقة .

وتحدثت الآية الخامسة عن تفاقم الحالة السابقة وتبدلها الى مرض باطني ، فبعد إشارتها الى الالتقاءات والوساوس الشيطانية حتى للانبياء والمرسلين قالت : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ . نعم ، إن هذه القلوب التي لا تستلذ بطعم الحقيقة ، بسبب مرضها ، وحلاوة الحقيقة عندما كالمرارة ، مؤهلة لوسوسة الشياطين .

ومما يلفت النظر هنا أن جملة ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ . تكررت اثنا عشر مرة في القرآن ، مما يكشف الأهمية التي أولاها الله لهذه المسألة ، مع الالتفات الى أن أغلب هذه الآيات عنت المنافقين وصُرح بذلك في عدد منها^(١) .

إلا أن المرض جاء في بعض من هذه الآيات بمعنى « الشهوات والميول والهوى » ، كما هو الحال في الآية (٣٢) من سورة الاحزاب ، حيث يقول فيها تعالى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ .

وعلى أية حال ، فإن الاستفادة من الآيات هو أن الانسان كما يصاب جسمه بامراض ، كذلك روحه فانها قد تصاب بأمراض سببها « النفاق » تارة و« الاهواء والميول » تارة اخرى ، وتغير عند عروضها - ذائقة روح الانسان بالكامل ، كما نرى ذلك في أمراض الجسم فقد تُغير مزاجه بشكل تجعله يستلذ بالأغذية الشاذة والكريهة ولا يستلذ بالأكلات اللذيذة والمفيدة ، فان انساناً كهذا غير قادر على إدراك الحقائق ووعي الامور وفهمها .

ومن المؤسف أنهم كلما استمروا في طريقهم كلما تفاقم عندهم المرض ،

فاذا كانوا في مرحلة الشك . فسيتفاقم عندهم ويشتد ويصل تدريجياً الى مرحلة الانكار ومن الانكار الى مرحلة أخطر وهي الاستهزاء ومخالفة الحق ، يقول القرآن في هذا المجال : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (البقرة / ١٠) .

تحدثت الآية السادسة عن جعل الأكنة والحجب على القلوب ، وليس حجاباً واحداً بل حُجْب وأكنة وذلك للحيلولة دون فهمهم القرآن ، حيث جاء فيها : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ .

ذكر بعض المفسرين أن التعبير بالأكنة يدل على تعدد الكِنَان^(١) . ومما لاشك فيه أنه لم يجعل وقر في آذانهم الظاهرية بل الروحية كي لا يسمعون من الحق شيئاً ، كما لم تجعل الأكنة على القلوب التي هي وسيلة نضح الدم في الأوعية ، بل جعلت الأكنة على أرواحهم وعقولهم .

وقد وقع كثير من المفسرين - عند الاجابة على هذه المسألة - في إشكال ، فتارة قالوا : انها معجزة حيث كان الرسول ﷺ يختفي عن انظار اعدائه المعاندين ، فلا يكادون يسمعون شيئاً من كلامه ، وذلك كي لا يؤذوه ﷺ ، وتارة قالوا : إن الله يمنع لطفه عن اشخاص كهؤلاء فيتركهم لحالهم ، وهذا هو معنى جعل الأكنة على القلوب والوقر في الاذان .

إلا أن ظاهر هذه الآية (التي تماثل آيات اخرى من القرآن) شيء آخر ، وفي الحقيقة إن هذه استعمالات مجازية في حق المعاندين والمتعصبين

والمغرورين والغارقين في الاثم ، وبتعبير آخر : ان حرمانهم من إدراك الحقيقة نتيجة لصفائهم وأفعالهم القبيحة ، فقد جعل الله هذه الميزة في هذه الأعمال ، فهي كخاصية القتل بالنسبة للسم ، فلا يُلام خالق السم والنار إذا فتناول شخص سمّاً أو ألقى نفسه في النار فمات ، فانه في مورد كهذا ينبغي لوم القائم بالعمل فقط .



وقد نقلت الآية السابعة ما كان يقوله اليهود للرسول ﷺ أو الانبياء الآخرين ، حيث كانوا يقولون : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، نعم لعنهم الله لكفرهم ، وأبعدهم عن رحمته ، وإن اشخاصاً كاليهود كيف يمكنهم استذواق حلاوة الحقيقة .

قد يكون التعبير بـ « الغلاف » يختلف عن التعبير بـ « الأكنة » ، وذلك لأن الغلاف يستر المغلف ويغطيه من جميع الجهات ، بينما يغطي الستار جهة واحدة من المستور ، وبتعبير آخر : تارة تُعطل الموانع مصدراً واحداً من مصادر المعرفة كالفطرة لوحدها أو العقل لوحده ، وتارة أخرى تعطل جميع المصادر وتجعلها في غلاف يحول دون المعرفة .

نعم ، كلما تلوث الانسان بالذنوب والفساد أكثر ابتعد عقله وروحه عن المعرفة وحُرِم منها أكثر .



وتحدثت الآية الثامنة والتاسعة عن الطبع على القلوب الذي يحول دون

المعرفة ، وقد اعتبرت الآية الثامنة الطبع سبباً لعدم السمع ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ، واعتبرت الآية التاسعة الطبع سبباً لعدم الفقه والفهم ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ، والمراد في الموردين واحد ، فكما قلنا : إن المراد من عدم السمع هو عدم الإدراك والوعي والفهم .

وهذه المرحلة أشد من المراحل السابقة ، فالمرحلة الأولى هي جعل الاكنة على القلوب ، ثم الغلاف عليها ، وفي النهاية يطبع عليها للحيلولة دون نفوذ أي شيء فيها ، كما ذكرنا ذلك في بحث شرح المفردات .

طبعاً : إن ابتلائهم بهذا المصير ليس اعتباطياً ، بل لأسباب أشارت إليها لآية السابقة حيث قالت : ﴿ إِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُو الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

إذن إعراضهم عن الجهاد وتخلفهم عنه هو السبب في الطبع على القلوب .

وآية أخرى أشارت إلى سبب آخر من أسباب الطبع ، حيث قالت : ﴿ أُولَئِكَ يَهْدِي اللَّهُ لِنَارٍ لِيُذْهِبَ عَنْهَا غُلُوبَهُمْ كَمَا هَدَىٰ لَهُمُ اللَّهُ بِطُورٍ إِذْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي أنهم يذنبون رغم رؤيتهم وعلمهم بأحوال السابقين وابتلائهم بالعذاب الإلهي من جراء ذنوبهم ، فطبع على قلوبهم .

ومما يذكر هنا أن الطبع جاء في الآية الثامنة بصيغة المضارع « نطبع » وفي التاسعة بصيغة الماضي « طبع » وهذا تلميح إلى أنَّ الطبع نتيجة سوء أعمالهم وتصرفاتهم .

يقول بعض المفسرين : إن المراد من « الطبع » في مثل هذه الآيات هو

نفس السبك والنقش الذي يستخدم للدراهم والمسكوكات ، وهو نقش ثابت وباقٍ ، لا يتغير بسهولة^(١) ، فَإِنَّ نُقُشَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ وَالْإِثْمِ نُقُشَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يَمْحَى بِسَهْوَةٍ .



وتحدثت الآية العاشرة والحادية عشرة عن « الختم » وكما قلنا سابقاً في شرح المفردات : إن الختم يعني الانتهاء والفراغ من شيء ، وبما أن الرسائل تختم عند الفراغ منها استعملت هذه المفردة هناك ايضاً ، وختم الشيء قفله وشده بحيث لا يمكن لأحد فتحه ، والمراد من الختم على القلوب والأسماع والابصار في الآيات ، هو سلب قدرتها عن التمييز بين الحق والباطل ، والخير والشر وذلك بسبب أعمال أصحابها وتصرفاتهم ، ولهذا يذكر القرآن في الآية السابقة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة / ٦) .

المسلم به هو ان هذا الخطاب لا يعم الكافرين كلهم بل يخص المتعصبين والمعاندين منهم ، أي أولئك الذين غرقوا بذنوبهم الى درجة حيث أصبحت قلوبهم ظلماء ، والآل النبي أرسل مبشراً ومنذراً للكافرين والمنحرفين .

والجدير ذكره هنا هو أن الآيات تحدثت عن الختم على الابصار والسمع كما تحدثت عن الختم على القلوب ، وهذا تلميح منها الى أن السمع والبصر قد يتعطلان ، أي قد يتعطل الادراك الحسي كما يتعطل العقلي ، وكما تعلم ان أغلب العلوم البشرية تحصل بواسطة هذين الحسنيين ، وحتى حقانية الوحي ودعوة

الانبياء تكتشف بهما ، ومع تعطلهما فان طرق الهداية والنجاه ستغلق أمامهم ، وهذا من سوء اعمالهم بأنفسهم ، ولا يستلزم جبراً كما يدعيه بعض الظانين .
وقد جاء هذا التعبير في مجال الطبع كذلك ، حيث يقول تعالى في الآية (١٠٨) من سورة النحل : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ .

والآية التي سبقت الاخيرة أشارت الى أن هذا الامر ليس عاماً وشاملاً لجميع الكفار ، بل يختص بمن شُرح صدره لكفر ، حيث يقول في الآية (١٠٦) من نفس السورة : ﴿ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ .



وقد تحدثت الآية الثانية عشرة عن أقفال القلوب التي قد تكون أشد من الختم^(١) ، حيث قالت : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أي أن آيات القرآن تنفذ في القلوب ولو من نوافذ صغيرة ، وذلك لأن منطق القرآن هو البيان البديع ، والبلاغة في التعبير ، والعمق والدقة في التحليل ، وهو نور وضياء خاص ينفذ في قلب كل مؤهل ولو بأقلّ تأهيل ، ويستحوذ على القلوب ويهز الضمائر ، رغم هذا فانه لا ينفذ في قلوب هؤلاء ولا يهز ضمائرهم أبداً ، وذلك لانغلاق قلوبهم .

إن « أقفال » جمع « قفل » ومن مادة « قُفول » ويعني الرجوع ، وبما أن كلّ من أتى باباً مقفوله رجع استعملت هذه المفردة في هذا المجال .
إنّ التعبير بـ « الاقفال » قد يكون اشارة الى تعدد أقفال القلب بحيث اذا ما

(١) وقد أشار الفخر الرازي في تفسيره الى هذا الأمر .

فتح قفل بقيت اقفال اخرى ، وهذه في الحقيقة أسوء مرحلة وأشدّها من مراحل حرمان ادراك الحقائق .

ويلاحظ هنا عدم اضافة « قلوب » الى الاقفال بل جاءت بصيغة النكرة ، وكأن هذا إشارة الى أن هذه القلوب ليست لهم ، والأعجب من هذا هو اضافة « الأقفال » الى « القلوب » وكأن قلوبهم أهل للاقفال فقط لا لشيء آخر .

وفي الآية الثالثة عشرة تعبير يهز الضمائر حيث يقول تعالى : ﴿ إِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج / ٤٦) ، أي ان الحاسة الباصرة اذا فقدت فهذا ليس بعمى ، لإمكان أن يسد العقل اليقظ فراغها ، وانما الشقاء والبؤس والتعاسة في القلوب اذا عميت ، فعمى القلوب أكبر حاجب عن إدراك الحقيقة ، والانسان بنفسه يعمى قلبه ، ولقد أثبتت التجربة ان الانسان إذا ما جعل عصابة على عينيه أو مكث في ظلام لمدة طويلة ، فان سيفقد باصرته تدريجياً ، كذلك الأمر بالنسبة للذين يغمضون عيون قلوبهم عن الحقائق ، أو يمكثون مدة طويلة في ظلمات الجهل والغرور والأثم فان قلوبهم ستعمى ، وتكون غير قادرة على إدراك أي حقيقة .

يُشَكِّكُ البعض أنه لا يمكن أن يراد من القلب (الذي في الصدر ويضخ الدم الى جميع أعضاء البدن) العقل والروح .

إلا أنه بملاحظة استعمال « الصدر » بمعنى الذات والفطرة يتضح لنا أن المراد من ﴿ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ هو الادراك العقلي المودع في طبيعة الانسان .

إضافة إلى هذا ، فإن القلب أول عضو في بدن الانسان يتأثر بعواطف وأحاسيس وادراكات الانسان ، نلاحظ ان اتخاذ قرار مهم ، أو حصول حالة غضب شديدة ، أو الاحساس بالحب القوي تجاه شخص ما يُزيد من دقات القلب ، فإذا استعمل القلب الظاهري كناية عن العقل ، فلأجل العلاقة الوثيقة التي بينه وبين الروح^(١) .



وقد تحدثت الآية الرابعة عشرة والاخيرة عن آخر مرحلة لحرمان الانسان من المعرفة ، والتي يتعطل فيها لعقل والفطرة والعين والاذن عن العمل بالكامل ، فيهوى الانسان إلى مستوى الانعام بل أضلّ .

والآية تلميح إلى فريق من اهل النار وكانهم خلقوا لأجلها لا لشيء آخر :
﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ .

وعليه ، فانهم فقدوا « هويتهم الانسانية » ، وأغلقوا أبواب الرجوع على أنفسهم ، فهووا من قمم السعادة السماوية المعدة لهم إلى شقاء جهنم التي أعدت لأولئك الذين غلقوا جميع أبواب المعرفة على أنفسهم ، وهو مصير صنعتة نفوسهم وذنوبهم وعصيانهم .



(١) للمزيد من العلم راجع (التفسير الأمثل) الجزء ١ ذيل الآية ٧ من سورة البقرة و الجزء ١٤ صفحة ١٣١ .

النتيجة الأخيرة :

إن في القرآن الكريم نماذجاً كثيرة تشبه الآيات الاربعة عشرة التي ذكرناها في أول هذا الفصل ، وانتخبنا هذه الاربعة عشرة للمواصفات التي تتحلّى بها ، وقد انتهينا الى حقيقة واضحة وهي أنه قد تعرض آفات لمصادر المعرفة بالخصوص العقل والفطرة والحس ، وبعض تلك الآفات خفيفة طفيفة ، وبعضها شديدة ، وبعضها بدرجة من الشدة حيث تترك الانسان في ظلمات مطلقة تمنعه من استيعاب أوضح الحقائق الحسية .

وقد سعينا لمتابعة هذا الانحراف التدريجي لجميع مراحل مع الاستشهاد بآيات القرآن ، ولا ندعي أن الترتيب الطبيعي لهذا الانحراف هو نفس الترتيب الذي جاء في الآيات عيناً ، بل نقول : إن الآيات المذكورة قد بيّنت نفوذ الآفات في جميع .

وما أجمل تعبير القرآن في هذا المجال ، وما أدقه ؟ فتارة تحدث عن العوامل الخارجية مثل « تزوين الشيطان » وتارة تحدث عن انحراف القلب والفكر .

وتارة عن صدأ القلوب .

وتارة عن تحول هذا الانحراف الى مرض مزمن .

وتارة عن الأكنة المجعلولة على القلوب .

وتارة عن تغلّف القلوب بالكامل .

وتارة عن الطبع على القلوب والنقش عليها .

وتارة عن وضع القلوب في أوعية وختم تلك الأوعية .

وتارة عن تجاوز الأكنة القلوب لتشمل السمع والبصر .

وتارة عن تقفل القلوب .

وتارة عن العمى الكامل .

وأخيراً عن سلب الانسان هويته الانسانية وإسقاطه الى درجة الأنعام بل درجة أدنى منها .

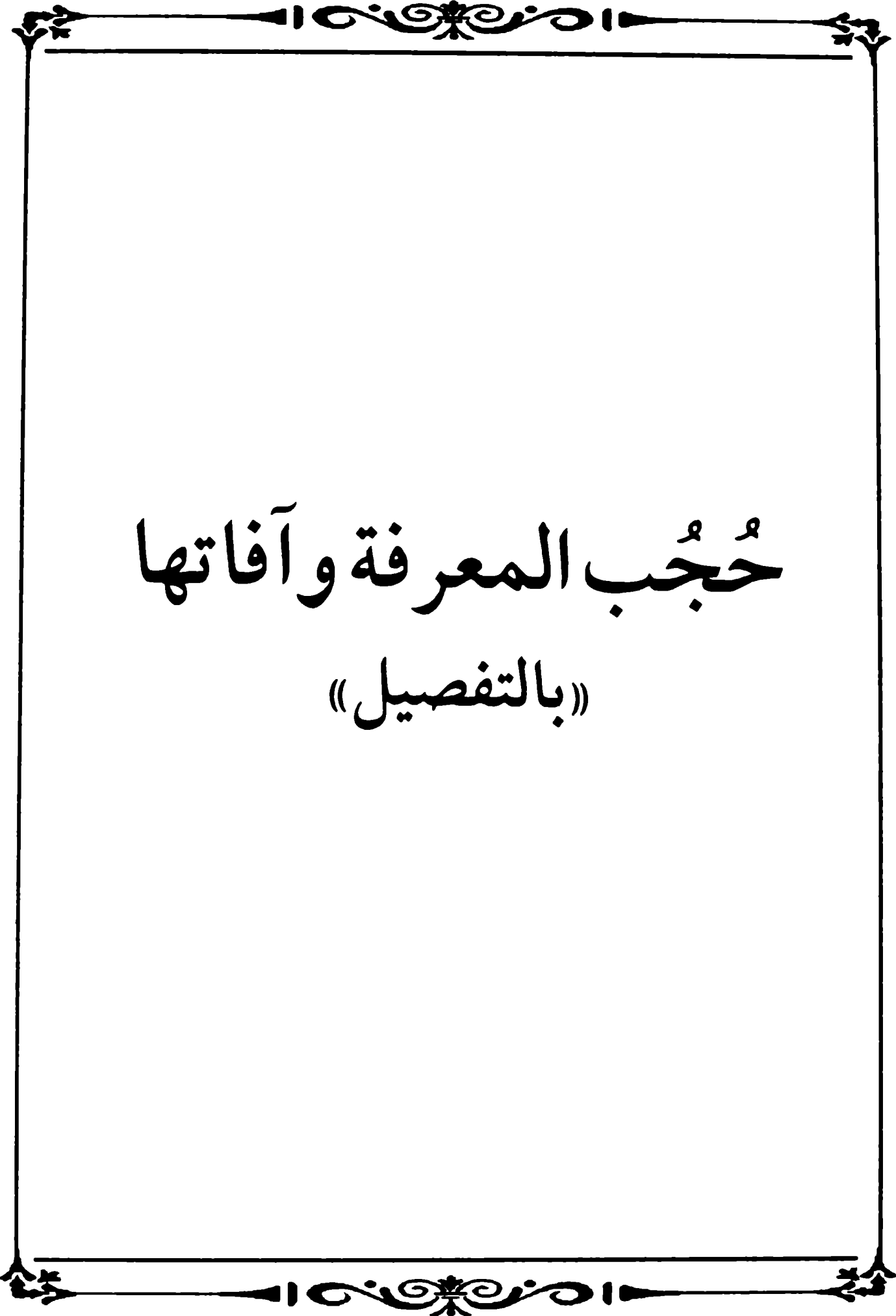
أما دواعي هذه المآسي والمصائب ؟ فهو ما نتناوله في بحثنا اللاحق ، لأن الهدف من بحثنا الماضي كان التعريف بالآفات والحجب وتوضيح أمرها بصورة اجمالية .

ثم نصل الى مرحلة علاج هذه الأمراض وكيفية رفع الأكنة ومسح الصدأ والرّين والوقاية من الوصول الى مرحلة لا خروج منها .

وننهي بحثنا هذا بحديث عن الامام الصادق عليه السلام :

« إِنَّ لَكَ قَلْباً وَمَسَامِعَ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَهْدِيَ عَبْدًا فَتَحَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ خَتَمَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ فَلَا يَصْلُحُ أَبَدًا وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ »^(١) .





حُجُبُ المعرفة وآفاتها

«بالتفصيل»

تمهيد :

كان الحديث في البحث السابق عن انسداد أبواب المعرفة وطرقها بالاجمال .

وحديثنا الآن عن « العلل والعوامل » لهذه الظاهرة المؤلمة التي يمكنها أن تؤدي بالانسان الى السقوط الى درجة الأنعام والبهائم .

حديثنا عن الامور التي تسبب ظهور الصدا على قلب الانسان ، وجعل الوقرف في الاذان ، والعمى في القلب ، واختلال توازن العقل ، واخيراً تسبب عدم رؤية الحق او رؤيته معكوساً !

تابع القرآن هذه المسألة المهمة في آيات عديدة وبيّن العلل الأساسية لهذه الظاهرة ، ويمكن تلخيص العلل في ثلاثة أقسام :

١ - الصفات والاخلاقيات التي يمكنها أن تكون حاجباً عن الرؤية الروحية .

٢ - الأعمال والسلوك التي تسود مرآة العقل .

٣ - العوامل الخارجية التي تؤثر على فكر الانسان وعقله وعواطفه وفطرته .

وسنبحث هذه العناوين الثلاثة كلاً على حده (وأؤكد هنا على أننا نطرح

العلل التي انعكست في القرآن الكريم بوضوح فحسب) .

القسم الاول :

الصفات التي تحول دون المعرفة

القسم الاول

الصفات التي تحول دون المعرفة

إن هذه الصفات التي ذكرت في القرآن بصراحة تارة وبالكناية تارة اخرى
عبارة عن :

١ - حجاب اتخاذ الهوى إلهاً :

قبل كل شيء نصغي خاشعين للآيات التالية :

١ - ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

(الجاثية / ٢٣)

٢ - ﴿ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ وَحَسِبُوا أَن لَّاتَكُونَ فَتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

(المائدة / ٧٠ - ٧١)

٣ - ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا

لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى
قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿

(محمد / ١٦)

شرح المفردات :

« الهوى » بمعنى رغبة النفس وميلها الى الشهوات ويقال انها مشتقة من
« الهوى » الذي يعني السقوط من الارتفاع ، وذلك لأن الهوى يسبب سقوط
الانسان في المصائب في الدنيا ، وابتلاءه بالعذاب في الآخرة ، ومن هنا قبل
لجهنم « هاوية » لأن قعرها منخفض للغاية .

وقد ذكر البعض معنيين لهذه المفردة : (الصعود والارتفاع) و (السقوط) ،
وذكر بعض آخر معنى واحداً لها وهو (الارتفاع والسقوط الى الأسفل) وهذا في
الحقيقة تركيب من المعنيين السابقين .

وقال البعض : إن الهوى يعني « السقوط » والهوى يعني « الصعود »^(١) .

جمع الآيات وتفسيرها:

إتباع الهوى يُعمي القلب :

تحدثت الآية الاولى عن اتخاذ الهوى إلهاً واتباعه ، والتضحية لأجله بكل
ما يملك ، وكل من كان كذلك فسوف يختم على قلبه وعلى سمعه ويجعل على

(١) راجع مفردات الراغب ، ومجمع البحرين ، وكتاب العين ، واقرّب الموارد ، والمنجد .

بصره غشاوة ، فلا يهتدي بعد ذلك ، فلنقرأ الآية : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ... ﴾ .

والآية الثانية تحدثت عن فريق من اليهود المعاندين حيث كلما جاءتهم رُسُلُ الله وأتوا بما يخالف أهواهم ، قاموا بتكذيب بعضهم وقتل البعض الآخر ، إن عنادهم هذا جعل حجاباً بينهم وبين الحقائق ، فيرون أنفسهم آمنين من عذاب الله ، تاب الله عليهم ، وشملتهم رحمته الواسعة في المرة الاولى ، لكن في المرة الثانية شملتهم نقمته ، وذلك لنقضهم عهدهم وطغيانهم ، فعموا وصُموا . وهذه من المردودات السلبية لاتباع الهوى ، حيث يهرقون دماء الانبياء ولا يدركون قبح عملهم .

إن التعبير بـ « يقتلون » يدل على أن ديدن هذا الفريق من اليهود هو قتل الأنبياء لما يأتون به من الشرائع المخالفة لأهوائهم .

والآية الثالثة تشير الى فريق من المنافقين الذين يستمعون للنبي ﷺ ، وبمجرد ابتعادهم عنه استهزوا به أمام المؤمنين .

يقول القرآن عن هذا الفريق من المنافقين : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ .

إن هذه الآيات الثلاث تبين بوضوح العلاقة بين اتباع الهوى وفقدان قدرة التمييز .

لَمْ لَا يَكُونُ اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ مَانِعًا عَنِ إِدْرَاكِ الْحَقِيقَةِ وَقَدْ اسْتَحُوذَ بِهِ عَلَىٰ

جميع جوانب الانسان ، فلا يرى شيئاً غيره ولا يفكر إلا به ؟ وقد سمعنا قول الرسول كثيراً حيث يقول فيه : « حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُغْمِي وَ يُصِمُّ »^(١) .

كما سمعت في هذا المجال حديثاً آخر نقل عن الرسول ﷺ وعن امير المؤمنين : « أما اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق »^(٢) .

إن هذه المسألة واضحة الى درجة أنها اصبحت مثلاً في كلام العرب : « صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلا حاجته »^(٣) .

إن الانسان الذي خسر قلبه وروحه في حب الجاه والمال والشهوة ، وعباً كل رأس مال وجوده في هذا المجال ، لا يرى شيئاً في الدنيا غير هذا الحب ، وقد جعل هذا الحب ستاراً ضخماً على عقله وفكره .

وما أجمل ما قاله علي عليه السلام في إحدى خطبه : مَنْ عَشَقَ شَيْئاً أَعَشَى بَصَرَهُ^(٤) .

وقد نقلت الرواية التالية في شأن نزول الآية (٢٣) من سورة الجاثية التي أشرنا إليها سابقاً :

إنَّ ابا جهل طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد ابن المغيرة (فقد كانت الكعبة محترمة في الجاهلية ايضاً ومحلاً للطواف) فتحدثا في شأن النبي ﷺ ، فقال ابو جهل والله إنني لأعلم انه صادق ، فقال له مَهْ ، ومالك على ذلك ؟ قال : يا ابا عبد شمس كنا نسميه في صباه الصادق الأمين ، فلما تم عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن ، والله إنني لأعلم انه صادق ، قال : فما يمنعك ان تصدقه

(١) روضة المتقين الجزء ١٣ الصفحة ٢١ .

(٢) البحار الجزء ٧ الصفحة ٧٥ ، ونهج البلاغة الخطبة ٤٢ .

(٣) نهج البلاغة الخطبة ١٠٩ .

(٤) تفسير المراغي الجزء ٥ الصفحة ١٥٧ .

وتؤمن به ؟ قال : تتحدث عني بنات قريش أنني اتبعت يتيم أبي طالب من أجل ، كسرة ، واللوات والعزى إن اتبعته أبدا . فنزلت « وختم على سمعه وقلبه »^(١) . وما أجمل ما قاله علي عليه السلام عن الهوى : « آفة العقل الهوى » ، كما قال في محل آخر : « الهوى آفة الأبواب »^(٢) .

٢ - حجاب حب الدنيا

يقول القرآن في هذا المجال :

﴿ ذَلِك بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ .

(النحل / ١٠٧ - ١٠٨)

جمع الآيات وتفسيرها :

إن الآية تشير إلى قوم أسلموا رغبة في الاسلام ، ثم ارتدوا عنه ، فلمحت الآية إلى أن ارتدادهم لم يكن لرؤيتهم في الاسلام ما يخالف الحق ، بل لأنهم استحبوا الدنيا على الآخرة ، ورجحوها عليها ، فودعوا الاسلام واتجهوا نحو

(١) تفسير المراغي الجزء ٢٥ الصفحة ١٥٧ .

(٢) غرر الحكم .

وادي الكفر تارة اخرى ، ولم ير الله فيهم الأهلية للهداية مرة اخرى ، وذلك لحبهم للحياة الدنيا ، فطبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأغلق عليهم أبواب المعرفة فأصبحوا من الغافلين .

إن حب الدنيا سواء كان في غطاء حب المال والثروة أو في غطاء حب الجاه والمقام ، أو في غطاء حب الشهوات المختلفة ، كالريح العاصف للذي يهب في باطن الانسان فيفقده توازن عقله بالكامل .

نعلم ان الميزان الدقيق يُجعل في محفظة تحول دون تأثير النسيم عليه ، وحتى الوزان ينبغي له حبس أنفاسه حتى الانتهاء من الوزن ، وذلك للحيلولة دون تأثير امواج الهواء الخارج من رثته على تعادل الميزان ، فما فائدة ميزان كهذا عند هبوب ريح عاصف ؟

إن حب الدنيا سواء كانت بشكلها القاروني أو الفرعوني أو السامري أو غير ذلك ، لا يسمح لفكر الانسان أن يحكم على الامور صحيحاً ، واذا صرح الله تعالى في الآية السابقة بانه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، فلذلك مردود حب الدنيا الطبيعي ، وبما أنهم يتجهون نحو السبب فيبتلون بالمسبب .

ويشاهد في الأحاديث الاسلامية تعابير جميلة في هذا المجال ، يقول الامام الباقر عليه السلام .

« مثلُ الحريص على الدنيا كمثُل دودة القز كلما ازدادت من القز على نفسها كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً » ^(١) .

كما نُقل حديث آخر عن امير المؤمنين عليه السلام يقول فيه : « الدنيا تفرّ وتضرّ وتمرّ » ^(٢) .

(١) البحار الجزء ٧٠ الصفحة ٢٣ الحديث ١٣ .

(٢) نهج البلاغة .

ويقول الامام نفسه في رسالة كتبها لأحد أصحابه ينصحه فيها ويقول :
« فرفض الدنيا فإنَّ حب الدنيا يُمر ، ويُصم ويُبكم ويُذلل الرِّقاب فتدرك ما بقي
من عمرك ولا تقل غداً أو بعد غدٍ فإنما هلك من كان قبلك باقامتهم على الأمانى
والتسويف »^(١) .

٣ - حجاب الكبر والغرور وسكرة القدرة !

١ - ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا
عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ ﴾ .

٢ - ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ
أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ
مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ .

(١) البحار الجزء ٧٠ الصفحة ٧٥ ، اصول الكافي الجزء ٢ باب ذم الدنيا والزهد فيها الحديث ٢٣ .

جمع الآيات وتفسيرها:

الجبارون المغرورون لا يدركون الحق !

تحدثت الآية الاولى عن « مؤمن آل فرعون » صاحب الضمير الحي الذي كان في بلاط فرعون يؤيد موسى بن عمران ويؤمن به سراً ، فصرحت الآية : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ آتَاهُمْ كِبَرٌ مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ ﴾ .

نعم ، إن عناد الحق والاصرار في ذلك العناد يجعل حجاباً على فكر الانسان ويسلبه حسن معرفته ، فيبلغ به الأمر الى أن يصبح قلبه كالوعاء المغلق لا يخرج محتواه الفاسد ولا ينفذ فيه المحتوى السليم والمفيد .

يقول البعض في الفرق بين « الجبار » و « المتكبر » ان « التكبر » يقابل « الخضوع للحق » و « الجبروت » يقابل « الشفقة والمحبة للخلق » ، فالظلمة المغرورون لا يخضعون للحق ولا يرحمون الخلق .



والآية الثانية نقلت أقوال فريق من المتكبرين المعاندين حول القرآن حيث كانوا يقولون : لِمَ لَمْ يَنْزِلِ الْقُرْآنُ أَعْجَمِيًّا كِي نَهْتَم بِهِ أَكْثَرُ وَكِي يَفْهَمُهُ غَيْرُ الْعَرَبِ ؟ (قد يكون مرادهم هو الحؤول دون فهم الناس له) .

فاجابهم القرآن : لو نَزَّلَ الْقُرْآنُ أَعْجَمِيًّا لَأَشْكَلْتُمْ إِشْكَالًا آخَرَ وَهُوَ « لَوْلَا فَصَلْتُ آيَاتِهِ » أي ان محتواه معقد ومبهم ولا نعي شيئاً منه ، ثم قلتم : عجيب أن يكون القرآن أعجمياً ونازلاً على عربي ؟ !

ثم أمر الله الرسول بأن يقول لأولئك المغرورين :

﴿ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ
وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾

وواضح ان الذي ينادي من مكان بعيد لا يسمع ولا يرى .
إذا أنكرت أعينهم نور شمس القرآن الساطعة فذلك لرمدها ، وإذا أنكرت
أذانهم نداء الحق المدوي فذلك للوقر الذي فيها .
حجاب الغرور في الأحاديث الاسلامية :

١ - جاء في حديث للامام الباقر عليه السلام : « ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر
إلا نقص من عقله ما دخله من ذلك قل ذلك أكثر » ^(١) .

٢ - وقد خاطب امير المؤمنين عليه السلام فريقاً من المنحرفين في كلماته القصار
قائلاً : « بينكم وبين الموعظة حجاب من العزة » ^(٢) .

عندما يتمحور حب الذات في نفس الانسان ، يسعى الانسان لأن يجمع
كل شيء في نفسه ، وعندما يصل الى مستوى « العجب » يرى نفسه أعلى وأرفع
من أي انسان آخر ، وعندما يصل الى مستوى « الانانية » يرى نفسه المقياس
الوحيد للقيم والجمال .

وهذه الحالات تجعل ستار عجب على عقله تحجب الحقيقة عنه ، فيرى
جميع القيم منحسرة في نفسه ، وينسى غيره .

ولهذا ، فان أول خطوة في مجال تهذيب النفس هو الترفع عن « الكبر
والغرور » ، ولا يتأهل الانسان للقرب من الله من دون ذلك .

٣ - وقد جاء في كلام لأمير المؤمنين عليه السلام : « سر آفات العقل الكبر » ^(٣) ، كما

(١) البحار الجزء ٧٥ الصفحة ١٨٦ باب وصايا الامام الباقر عليه السلام الحديث ٢٦ .

(٢) نهج البلاغة : الكلمات القصار رقم ٢٠٠٨٢ .

(٣) غرر الحكم .

جاء في كلام آخر له : « العجب آفة »^(١) .

٤ - حجاب الجهل والغفلة

١ - ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الروم / ٥٩)

٢ - ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(يس / ٦ و ٩ و ١٠)

جمع الآيات وتفسيرها:

أكدت الآية الأولى على أن الله ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل ، فتارة بآيات الآفاق والأنفس وتارة بالوعد والوعيد ، وتارة بالأمر والنهي ، وتارة بالبشرى والانذار ، وتارة بالسبل العاطفية والفطرية ، وتارة بالاستدلال ، ورغم هذا البيان ، فإن فريقاً من الجاهلين والغافلين يجحدون بآيات الله ويقولون : أنتم

مبطلون أي على باطل . ويضيف الله في الآية : هذا كله لأجل أن الله طبع على قلوبهم وذلك بجهلهم .

إن الآية - في الحقيقة - تشير إلى أسوأ أنواع الجهل وهو « الجهل المركب » الجهل الذي يحسبه صاحبه علماً ، ولا يصغي لمن أراد ايقاظه من غفلة الجهل هذه ، ولهذا فان شخصاً كهذا يضلّ جاهلاً جهلاً مركباً إلى أبد الدهر .
إذا كان الخطاب موجهاً لجاهلٍ « جاهلاً بسيطاً » أي لا يعلم و يعلم أنه لا يعلم ، ومستعد في نفس الوقت لقبول نداء الحق والهداية ، فان الأمر إتجاهه بسيط ، والحجاب المانع يطبع على القلب عندما يكون الجهل مركباً وممتزجاً بروح العناد وعدم التسليم لنداء الحق .

وقد نقل في بعض التفاسير شعر جميل لشاعر عربي يقول فيه :
قال حمار الحكيم يوماً لو تنصفوني لكنتُ أركب
لأنني جاهل بسيط وصاحبي جاهل مركب^(١)



وتشير الآية الثانية إلى فريق من الغافلين الذين صدر حكم العذاب بحقهم وذلك لجهلهم وعنادهم وأنهم ليسوا أهلاً للهداية .
ثم صوّر القرآن الحُجُب التي قد تحيط العقل تصويراً عجيباً حيث قال :
﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

(١) روح المعاني الجزء ٢١ الصفحة ٥٥ ذيل الآية ٥٩ من سورة الروم .

إِنَّ عبارة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ إشارة إلى الحجب التي تحول دون رؤية آيات الافاق والكون .

إن الأغلال التي جاءت في الآية قد تكون إشارة إلى الحجب التي تحول دون رؤية آيات الأنفس ، والأسوأ من هذا كله هو جعل الغشاوة على الابصار بحيث لا امكان للرؤية ، وهي ستار الغفلة والجهل والغرور .

وبديهي أن أشخاصاً كهؤلاء مع كل هذه الحجب ، سواء أُنذِرهم الرسول أم لم ينذرهم وسواء سمعوا آيات القرآن من شفاه محمد ﷺ الطاهرة أم لم يسمعوا ، فهُمْ لا يؤمنون ولا يهتدون ، إنهم رهائن لا لغلٍ واحدٍ ، بل لأغلالٍ عديدة (فالأغلال جاء بصيغة الجمع لا المفرد) . وقد فسر البعض السد (الذي يجعل امام الشخص) بالحجب التي تحرم الانسان من الهداية النظرية والاستدلال ، والسد (الذي يجعل من الخلف) بالحجب التي تمنع من الهداية الفطرية والرجوع إليها^(١) .



حجاب الجهل في الأحاديث الاسلامية :

١ - قال الامام امير المؤمنين عليه السلام عن الجهل : « الجاهل ميت بين الأحياء »^(٢) .

٢ - كما قال في محل آخر : « الحمق من ثمار الجهل »^(٣) .

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ٢٦ الصفحة ٤٥ ذيل الآيات المذكورة في بحثنا .

(٢) غرر الحكم الصفحة ٩٩ .

(٣) نفس المصدر الصفحة ٤١ .

واضح ، كما ان الميت فاقد الادراك والاحساس كذا الجاهل العنود ،
لانتوقع منه الفهم الحقيقي للامور .

٣- من خصائص الجاهلين بالجهل المركب أنهم يعدون العلماء الحقيقيين
ضالين ، ولهذا جاء في حديث الامام موسى بن جعفر عليه السلام : « تعجب الجاهل من
العاقل أكثر من تعجب العاقل من الجاهل » ^(١) .

٤- ننهي البحث بحديث للامام امير المؤمنين عليه السلام حيث يقول فيه : « إن
قلوب الجهال تستفزها الأطماع وترتهنها المني وتستعلقها الخدائع » ^(٢) .
ولا عجب أن تُحجب الحقائق عن قلب كهذا .

٥ - حجاب النفاق

١- ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ ﴾ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿

(البقرة / ٩ - ١٠)

٢- ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ * صُمُّ بُكْمٌ عُْمِي
فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿

(البقرة / ١٧ - ١٨)

(١) سفينة البحار الجزء ١ الصفحة ١٩٩ .

(٢) الكافي الجزء ١ الصفحة ٢٣ كتاب العقل والجهل الحديث ١٨ .

٣- ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاءٌ
دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(الانفال / ٤٩)

٤- ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

(الاحزاب / ١٢)



جمع الآيات وتفسيرها:

المنافقون عمي القلوب :

إنَّ في أوائل سورة البقرة ثلاث عشرة آية تحدثت عن النفاق والمنافقين ،
وقد صورتهم بدقة متناهية وبتعابير وافية ، والآية الاولى هي من ضمن الآيات
التي جاءت هناك .

يقول القرآن في هذه الآية : إن احد أخطاء المنافقين أنهم يخادعون الله
وكذا المؤمنين ، وفي الحقيقة لا يخادعون إلا أنفسهم وهم لا يشعرون
ولا يعلمون ، وذلك لأن النفاق قد غطى قلوبهم بستاره السميك ، ثم يضيف
القرآن : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ .

من الواضح ، إن المراد من المرض في الآية هو « مرض النفاق » الذي
يتغلب على قلوبهم ، فالانسان المريض لا يستطيع ان يفكر تفكير سليماً (لأن
العقل السليم في الجسم السليم) ، وكذلك حواسه الظاهرية ، ولهذا نرى بعض
المرضى تبدو ألد الاغذية عندهم كربة الطعم ، وبعض الأغذية

كراهية الطعم لذيدة .

وقد شبهت الآية الثانية المنافقين بالذي ضلّ متورطاً في ظلمات الليل ، ثم استوقد ناراً ليرى مما حوله ، فجاء ريح عاصف وأطفأ ما استوقده فبقي في الظلمات تارة أخرى ، فلا يبصر ولا يسمع ولا ينطق شيئاً ، ولا طريق له للرجوع . قد يكون المراد من النور الذي جاء في الآية هو نور الايمان الظاهري الذي يراه المنافق ويستضيء به ما حوله ويحفظ نفسه وماله تحت ظله . أو أن المراد منه هو نور الفطرة الذي جُبل عليه الانسان ، والمنافقون يستثمرون هذا النور في البداية ، ولا يمضي زمن طويل حتى تأتي زوبعة النفاق فتطفئه .

تحدثت الآية الثالثة والرابعة عن المنافقين مرضى القلوب ، وبقرينة الآيات السابقة ندرك أن المراد من « الذين في قلوبهم مرض » هو نفس المنافقين وان العطف عطف تفسيري^(١) ، إلا أن الآية الثالثة تحدثت عن موقفهم في معركة بدر ، والرابعة عن موقفهم في معركة الاحزاب ، والفرق هو انهم كانوا في « بدر »

(١) لقد جاء في تفسير الميزان الصفحة ١٦٤ و ٣٠٢ ، وكذلك تفسير الفخر الرازي الجزء ١٥ الصفحة ١٧٦ : إن المراد من الذين في قلوبهم مرض هو ضعيف الايمان وهم غير المنافقين . لكن لا يتناسب ضعف الايمان مع المرض في القلب ، إضافة الى أن الآيات الثلاثة عشرة التي جاءت في اوائل سورة البقرة استعملت هذا التعبير في حقهم . كما يبدو بُعد الرأي الذي يفسر المرض بالترديد والشك ، لان المرض نوع من الانحراف ، بينما الشك نوع من فقدان .

في صفوف المشركين لان المشركين يوم ذاك كانوا القوة الراجحة ، وفي معركة الاحزاب كانوا مع المسلمين .

كانوا يقولون : « اغترَّ هؤلاء المسلمون بدينهم ، وقد خطوا هذه الخطوة الخطيرة (الجهاد) رغم قلة العدة والعدد ظناً منهم بالنصر ، أو بالشهادة التي مصيرها الموت » !

بالطبع ، إنهم غير قادرين - بسبب المرض للذي في قلوبهم - على الادراك الصحيح لعوامل النصر الحقيقية أي الايمان والثبات والفتوة التي هي وليدة الايمان فما كانوا يدركون أن من يتوكل على الله القادر فهو حسبه وهو ناصره ، والشاهد على هذا الحديث هو ما حصل في صدر الاسلام ، حيث ان بعض المسلمين رفض الهجرة الى المدينة ، والعجيب في الأمر أن قريشاً عندما تحركوا نحو بدر لقتال المسلمين ، اصطف هؤلاء المسلمون (المنافقون) في صفوفهم ، وكانوا يحدثون أنفسهم أنهم سيلتحقون بجيش محمد اذا كان جيشه ذا عدد كبير ، وسيبقون مع جيش قريش اذا ما كان عدد المسلمين قليلاً^(١) .

وهل للنفاق مفهوم غير هذا الذي تجسد في هذه المجموعة ؟ وإذا لم يكونوا منافقين ، فمن هم المنافقون ؟

وقد حصل هذا الأمر بالذات في معركة الأحزاب فان شخصيات كثيرة من المنافقين كانت قد حشرت نفسها مع المسلمين ، وعندما شاهدوا كثرة الاحزاب قالوا بصراحة : ما وعدنا الرسول إلا كذباً وباطلاً .

وهذا هو حجاب النفاق الذي لا يسمح لهم من إدراك الحقائق ، رغم أنهم شاهدوا بأم أعينهم أن النصر ليس بكثرة العدد ، بل بالايمان والثبات الناشيء عنه .

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ١٥ الصفحة ١٧٦ ذيل الآية ٤٩ من سورة الانفال .

سؤال :

يطرح سؤال هنا وهو : كيف يكون النفاق حجاباً يحجب عن الحقائق ؟

الجواب :

يمكننا الاجابة على هذا السؤال بالالتفات الى ملاحظة في هذا المجال وهي : إن روح النفاق تستلزم أن يتحرك الانسان مع كل التيارات وأن يكون مع جميع الفرق ، وأن يتخذ صبغة المحيط الذي يعيش فيه ، فيفقد في النهاية اصالته واستقلاله الفكري، إن طريقة تفكير انسان كهذا تكون متطابقة دائماً مع طريقة تفكير الفريق الذي يكون معهم ، فلا عجب أن يكون حكمه غير صحيح . وقد جاء في بعض التفاسير : إن التعبير بـ « في قلوبهم مرض » يصدق في موارد كهذه الموارد ، من حيث ان غاية القلب (العقل) الخاص هو معرفة الله وعبوديته ، وكل صفة منعت وحجبت عن غاية القلب هذه ، قيل لها مرض (لانها تحجب الهدف وتمنعه من الظهور)^(١) .

ولهذا جاء في سورة المنافقين الآية ٧ : ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ . كما قد جاء في حديث الامام الباقر عليه السلام : « إن القلوب أربعة : قلب فيه نفاق وايمان وقلب منكوس وقلب مطبوع وقلب أزهر أجرد » فقلت ما الأزهر ؟ قال : « فيه كهيئة الشراج ، فأما المطبوع فقلب المنافق ، وأما الأزهر فقلب المؤمن إن

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ٢ الصفحة ٦٤ ذيل الآية ١٠ من سورة البقرة .

أعطاه شكر وان ابتلاه صَبِرَ ، وأما المنكوس فقلب المشرك «^(١)» .

وننهي حديثنا هذا بكلام للامام امير المؤمنين عليه السلام :

« والنفاق على أربع دعائم على الهوى والهوىنا والحفيضة والطمع »^(٢) .

ونعلم أن كلاً من هذه الامور الأربع تشكل حجاباً سميكاً أمام نظر العقل .

٦ - حجاب التعصب والعناد

١ - ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ
يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

(الانعام / ٢٥)

٢ - ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى
أُدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾

(الاسراء / ٤٥ - ٤٦)

٣ - ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا

(١) اصول الكافي الجزء ٢ الصفحة ٤٤٢ باب « في ظلمة قلب المنافق » حديث ١ .

(٢) اصول الكافي الجزء ٢ الصفحة ٣٩٣ باب « صفة المنافق والنفاق » .

مُذِيرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ
بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿

(الروم / ٥٢ - ٥٣)

٤ - ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ
بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ
قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿

(الروم / ٥٨ - ٥٩)

٥ - ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ
وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿

(فصلت / ٥)

تجمع الآيات وتفسيرها :

الموتى المتحركون :

حضر عند رسول الله ﷺ ابو سفيان والوليد ابن المغيرة والنضر بن
الحارث وابو جهل وافراد آخرون واستمعوا الى حديث الرسول ﷺ فقالوا
للنضر ما يقول محمد ؟ (وكان النضر تاجراً يسافر الى ايران وله اطلاع واسع
بالاساطير والقصص التاريخية الايرانية) فقال : لا ادري ما يقول لكنني اراه يحرك
شفتيه ويتكلم باساطير الاولين كالذي كنت احدثكم به عن اخبار القرون الاولى
وقال ابو سفيان اني لا ارى بعض ما يقول حقا .

فقال ابو جهل : كلا . فانزل الله تعالى : (ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم اكنه ان يفقهوه)^(١) .

وقال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية انهم لما أصرّوا على الكفر وعاندوا وصمموا عليه فصار عدولهم عن الايمان والحالة هذه كالكنان المانع عن الايمان^(٢) .

ولهذا نزلت هذه الآية وقالت بصراحة : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ... ﴾ .
وقد قال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية :
﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ : إن عناد هؤلاء الكفرة و اصرارهم في معاداة الحق ، يجعل ستاراً على قلوبهم تحول دون ايمانها^(٣) .



وقد تحدثت الآية الثانية عن الحجاب الذي كان يُجعل بين الرسول ﷺ وبين فريق من المنافقين عندما كان يتلو القرآن الكريم .
وقد فسر البعض هذا الحجاب بستر حقيقي كان يجعله الله بين الرسول ﷺ وبينهم بحيث لا يرونه ، إلا أنه مع الالتفات الى الآيات التي لحقت هذه الآية من نفس السورة ، يتضح لنا أن الحجاب لم يكن سوى « حجاب التعصب والعناد والغرور والجهل » الذي كتم حقائق القرآن عن عقولهم وادراكهم .

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ١٢ الصفحة ١٨٦ .

(٢) تفسير الفخر الرازي الجزء ١٢ الصفحة ١٨٧ .

(٣) نفس المصدر السابق الصفحة ١٨٧ .

والشاهد على ذلك هو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ فالمستفاد من هذا التعبير هو أنهم كانوا يصغون في البداية إلى حديث الرسول ﷺ ثم يولون مدبرين لعدم سماح العناد لهم لادراك القرآن ، وادراك حديث التوحيد .

ونشاهد في نفس السورة تعابير أخرى تحكي روح العناد المتجسمة فيهم ، ومع هذا ، فهل يمكنهم إدراك حقيقة ما ؟



وخاطبت الآية الثالثة الرسول ﷺ قائلة له : إنك لا تسمع الموتى ولا الصم عندما يولون مدبرين ، كما أنك لا تستطيع هداية العمي وانقاذه من الهلاك ، فما يسمع كلامك إلا الذين آمنوا بآيات الله وسلموا للحق (أي الذين تلهف قلوبهم تلهف للحق ، فان قلوباً كهذه كالأرض المعدّ للزرع ، تسطع عليها الشمس ، وتقطر السماء عليها قطرات الحياة ، فتتمو فيها البذور بسرعة ، أما القلوب التي عطّلتها حُجب التعصب والجهل فانها محرومة من هذه الحائق)^(١) .



والآية الرابعة تحدثت عن أولئك الكفار الذين وقفوا أمام الرسول ﷺ عناداً ، وخالفوا كل ما جاء به ، فكانوا يرمون الرسول والقرآن بالباطل تارة ، وتارة

(١) وقد جا في سورة النمل الآية ١١ مضمون يشبه مضمون هذه الآية .

اخرى يقولون : إن ما جاء به الرسول سحر وأساطير الاولين ولا مجال للحق فيه : فتحدث في هذه عن هؤلاء وقال : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . لأنهم لا يعلمون شيئاً عن هذا الكتاب السماوي الذي هو مصدر للحقائق .

كما ان الآية توضح العلاقة بين « الجهل » و « العناد » .

وعكست الآية الخامسة النموذج الكامل من العناد ، فما قيل الى الآن كان خطاباً بين الله ورسوله ، أما هنا فهم يعترفون بأنفسهم بأن على قلوبهم أكنة ، وفي آذانهم وقراً ، وبينهم وبين رسول الله ﷺ حجاب لا يسمح لهم إدراك ما يقول والتسليم له ، فاعمل على شاكلتك ونحن عاملون على شاكلتنا .

إن هذه التعابير تبين بوضوح ما هو العامل الاساسي لهذه الحجب وما هو السبب الرئيسي للوقر الذي يجعل في الاذن ؟ إنها عبارات تمطر تعصباً وعناداً وتبين سبب شقائهم وتعاستهم .

كما ان « التعصب » مشتقة من مادة « عصب » وهو في البدن خلايا تسبب اتصال العضلات احداها بالآخرى أو بالعظام ، كما هو وسيلة لنقل الایعاز الى المخ ، وبما أن لها بنياناً قوياً ومحكماً استعملت هذه المفردة بمعنى الشدة والاستحكام ، ويوم عصيب يعني يوم شديد وصعب ، ولهذا يطلق « التعصب » على حالة الارتباط الشديد بشيء ، كما أن « العُصبة » تعني جماعة من الرجال (المقتدرين) الذين لا يقلون عن عشرة ، وأما « عَصْبَة » فتعني أقارب الرجل من

جهة الأب^(١) .

إن « اللجاجة » هو التمادي في العناد ، وملازمة أمر ما وعدم الانصراف عنه ، و « اللجة » تعني حركة أمواج البحر ، أو التباس ظلمات الليل ، و « البحر اللجي » هو البحر الواسع والمتلاطم ، والتلجلج في الكلام هو التردد فيه ، أو اختلاط الاصوات^(٢) .



النتيجة :

إن التعصب واللجاجة والعناد تلازم أحدها الآخر ، لأن الارتباط الشديد بشيء يدعو الانسان الى الالحاح والعناد والدفاع عنه بلا حدود .
بالطبع قد يستعمل التعصب بمعنى الارتباط بالحق ، إلا ان الاستعمال الغالب له هو الارتباط بالباطل .

إن منشأ التعصب واللجاجة والعناد - بجميع أشكالها - هو الجهل والقصور في الافكار ، لأن صاحب التعصب واللجاجة يظن انه اذا تخلى عن عقيدته ورأيه فهذا يعني تخليه عن كل شيء ، أو أن هذا إهانة لشخصيته .
وقد يكون منشأه هو التكبر والغرور اللذين يمنعه من الخضوع أمام الحق والتسليم له ، وقد يكون منشأه عوامل أخرى .

إن التعصب واللجاجة يجعلان ستاراً على العقل لا يسمح للانسان أن يرى الحقائق ، فإننا نرى أشخاصاً غير مستعدين للتخلي عن عقائدهم بأي شكل كان رغم اقامة الأدلة القطعية على بطلانها ، وإن أشخاصاً كهؤلاء لو أقمنا لهم ألف

(١) كتاب العين ، والمفردات ، ومجمع البيان ، ولسان العرب .

(٢) كتاب العين ، والمفردات ، ومجمع البحرين ، ولسان العرب .

دليل ودليل على أن للدجاج رجلان ، قالوا : كلا ، بل رجل واحدة ! وأخذناهم بأيدينا تحت نور الشمس الساطعة وقلنا لهم : إنه نهار . قالوا : لا بل ليل !
لقد عكست الآيات التي ذكرت في بداية البحث هذه الحقيقة بوضوح ، واعتبرت هؤلاء صُماً وعمياً وأمواتاً ، ومطبوع على قلوبهم ، أو ان قلوبهم في مغلقة فلا يفقهون شيئاً .

وقد جاء في الروايات الاسلامية مضامين تستند الى نفس المضمون الذي جاء في الآيات المذكورة ، وفيها توبيخ للجوجين والمعاندين .
منها قول امير المؤمنين عليه السلام : « اللجوج لا رأي له » ^(١) .
ومنها قوله كذلك : « اللّاجُ يُفسد الرأي » ^(٢) .
وكذا قوله : « ليس للجوج تدبير » ^(٣) .
وقال الامام عليه السلام نفسه في خطبة القاصعة :

« فالله الله في كِبَرِ الحَمِيَةِ وفخر الجاهلية فإنّه ملاقح الشنان ، ومنافخ الشيطان ، التي خدع بها الامم الماضية والقرون الخالية حتى أعنقوا في حنادس جهالته ومهاوي ضلالته » ^(٤) .

نهي حديثنا بكلام آخر لنفس الامام العظيم ، في جواب له على رسائل أهالي مدن مختلفة حول حوادث صغيرة : « مَنْ لَجَّ وتمادى فهو الراكس الذي رَانَ اللهُ على قلبه وصارت دائرة السوء على رأسه » ^(٥) .

(١) غرر الحكم .

(٢) غرر الحكم .

(٣) غرر الحكم .

(٤) نهج البلاغة الخطبة ١٩٢ . .

(٥) المصدر السابق الرسالة ٥٨ .

بالطبع - وكما قلنا سابقاً - إن الاصرار والالاحاح في الحق ليس تعصباً ، وإذا أطلقنا عليه تعصباً فهو « تعصب ممدوح » ، ولهذا جاء في حديث للامام علي بن الحسين عليه السلام عندما سُئِلَ عن مفهوم التعصب : « العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين ، وليس من العصبية أن يُحب الرجل قومه ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم » ^(١) .



٧ - حجاب التقليد الأعمى

نصفي خاشعين أولاً للآيات التالية :

١ - ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾

(الشعراء / ١٣٦ - ١٣٨)

٢ - ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَائُنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَائُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

(المائدة / ١٠٤)

٣ - ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَائُنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ

مَا لَا تَغْلَمُونَ ﴿

(الأعراف / ٢٨)

٤ - ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

(لقمان / ٢١)

٥ - ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾

(الزخرف / ٢٣)



شرح المفردات :

رغم أنه لم ترد مفردة « التقليد » عيناً في الآيات السابقة بل جاءت مفردة الاقتداء أو الاهتداء أو اتباع ما كان عليه الآباء والاسلاف وامثال هذه المفردات ، إلا أنه من المستحسن ايضاح مفهوم هذه المفردة جيداً .

إن هذه المفردة مشتقة من مادة « قَلَدَ » ، وتعني في الاصل - كما ورد عن الرغب في المفردات - قتل الحبل ، وقيل للقلادة « قلادة » من حيث ان حبلاً كانت تُقتل وتعلق في العنق ، « والقلائد » جمع قلادة ، استعملها القرآن وأراد بها الانعام التي تُعد للاضحية في مناسك الحج ، فانها تُقَلَّد لتمييز عن غيرها من الأنعام (الآية الثانية من سورة المائدة) ، كما أن اطلاق التقليد على اتباع الآخرين ، من حيث أن المقلد يجعل كلام المقلد كالقلادة في عنقه ، أو من حيث أنه يلقي المسؤولية على عاتق المقلد .

أما « مقاليد » - وكما يقول كثير من اللغويين - فجمع « مقلد » أو « مقلد » ،
 إلا أن الزمخشري ادعى في كشافه : عدم وجود مفرد لهذه الكلمة .
 وأما « مقلد » و « اقليد » ، فبمعنى المفتاح ، وقد نقل ابن منظور في لسان
 العرب : إن أصل هذه المفردة هو كلمة « كليلد » الفارسية والتي تعني مفتاح
 كذلك ، واستعملت في العربية بنفس المعنى ، وتستعمل « مقاليد » بمعنى
 الخزائن أيضاً ، وذلك من حيث أنها تقفل ولا طريق لها إلا بالمفتاح .
 إذن ، لا علاقة بين مفردة « مقاليد » مع مادة « التقليد » و « القلادة »^(١) .
 إلا أنه يحتمل رجوع كلا المفردتين إلى مادة واحدة من حيث أن كثيراً من
 الناس يجعلون المفاتيح في فتائل ويقلدون بها أعناقهم^(٢) .

شرح الآيات وتفسيرها :

قومٌ أهلكهم تقليدهم :

إن الآية الأولى أشارت إلى حديث قوم « عاد » مع رسولهم العطوف
 « هود » ، فعندما دعاهم إلى التوحيد وترك الظلم والاجحاف والترف أجابوه :
 ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ... ﴾ وبهذا كشفوا عن تحجرهم
 وصلابتهم تجاه كلام النبي المنطقي ، وذلك لعدم سماح حجاب التقليد لهم
 بقبول الواقعيات .

(١) مفردات الراغب ، ومجمع البحرين ، ولسان العرب ، والبرهان القاطع ، وكتب أخرى .

(٢) وقد اعتبر البعض « اقليد » مفردة يمنية أو رومية (مجمع البحرين ولسان العرب - مادة قلد -) .

وقد كشفت الآية الثانية عن مواقف مشركي العرب عندما كانوا يُدعون الى ما أنزل الله ، وإلى ترك عبادة الأصنام ، وترك البدع في تحريم كثير من الامور الحلال ، وكان جوابهم آنذاك : ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَائُنَا ﴾ فيظنون أنّ وهذا يغنيهم عن القرآن هادياً !!

إلا ان القرآن أراد ايقاظهم من غفلتهم هذه وأراد تمزيق حجاب التقليد عندهم فأجابهم : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَائُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ وهل يجوز تقليد الجاهل الضال : ؟ !



والآية الثالثة أشارت الى مشركي العرب أيضاً (أو فريق من ذوي الصفات الشيطانية) فانهم اذا ما سُئِلوا عن سبب اتيانهم الفاحشة والعمل القبيح ؟ أجابوا : ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَائُنَا ﴾ ولا يكتفون بهذا بل قد يضيفون : ﴿ وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ .

فينفي القرآن هذه التهمة الكبيرة ويقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

يعتقد كثير من المفسرين أن المراد من « الفحشاء » في الآية الكريمة هو طوافهم رجالاً ونساءً عراة في عصر الجاهلية ، حيث كانوا يعتقدون : ان الملابس التي ارتكب بها ذنباً ليست أهلاً لأن يُطاف بها حول بيت الله الحرام . وعلى هذا المنوال ، كان ينتقل عملهم القبيح هذا من نسل الى نسل بالتقليد الاعمى ، وما كان التقليد يسمح لهم لأن يدركوا قبح هذا الفعل .



إن رابع وخامس آية أشارتا الى موقف وكلام فريقا من المشركين في عهد الرسول ﷺ أو العهود التي سبقت عهده تجاه دعوة النبي ﷺ أو الانبياء السالفين ، حيث كانوا يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

وهكذا توارثت الأجيال بعد الأجيال الكفر وعبادة الأصنام والآثام والعادات والسنن القبيحة ، وقد نسجت روح التقليد حجاباً سميكاً على عقولهم لايسمح لهم لقبول أي حقيقة ، فيقول القرآن عن هؤلاء تارة : ﴿ أُولَٰئِكَ كَانَٰ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

(المائدة / ١٠٤) .

ويقول تارة اخرى : ﴿ أُولَٰئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

(لقمان / ٢١) .

واخرى : ﴿ قَالَ أُولَٰئِكَ جِثَّتْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاؤُكُمْ ﴾ .

(الزخرف / ٢٤) .



إيضاحات :

١ - أنواع التقليد المختلفة :

إن تقليد الآخرين ، سواء كان تقليداً لحي أو ميت ، أو تقليداً لشخص أو فريق لا يخرج عن صورٍ أربع :

١ - تقليد الجاهل للعالم : أي تقليد الجاهل بشيء لمن له تخصص أو خبرة بفنٍ أو علم ، مثل مراجعة المريض للطبيب الخبير بعلم الطب .

٢ - تقليد العالم للعالم : أي مراجعة أهل العلم أحدهم للآخر واتباع كلٍّ منهم للآخر .

٣ - تقليد العالم للجاهل : أي يترك الانسان علمه وخبرته ، ويتبع الجاهل ويقلده عشوائياً .

٤ - تقليد الجاهل للجاهل : بأن يتخذ قوم جُهاًل عادات ومعتقدات لأنفسهم بلا مبرر ، ويقوم قوم آخر باتباع أولئك القوم وتقليدهم فيها ، وهذا هو أكبر عامل لانتقال المعتقدات الفاسدة والتقاليد الخاطئة من قوم الى آخر ، وهذا النوع من التقليد استهدفته أكثر الآيات التي ذمت التقليد .

واضح أن القسم الاول من التقليد هو القسم المنطقي الوحيد ، وقد اعتمدت حياة الناس على ذوي الاختصاصات وعلى هذا النوع من التقليد المنطقي ، لأن الانسان حتى لو كان نابغة زمانه لا يمكنه التخصص في جميع الاختصاصات والفروع العلمية ، خصوصاً ، وأن العلم - في هذا العصر - أصبحت له فروع وتشعبات لا تُعد ولا تُحصى ، ومن المحال أن يتخصص انسان في فروع علمٍ أو فنٍ واحدٍ ، فضلاً عن جميع العلوم والفنون .

وعلى هذا ، فكل انسان يمكنه أن يكون مجتهداً في فرع من فروع العلوم ، أما في الفروع الاخرى التي لم يجتهد فيها ، فلا طريق له إلا الرجوع الى المتخصصين فيها .

إن المعمار يراجع الطبيب اذا مرض ، والطبيب يراجع المعمار اذا أراد بناء عمارة ، أي أن كلاهما « مجتهد » في تخصصه و « مقلد » في التخصص الآخر ، وهذا (رجوع الجاهل الى العالم وغير المجتهد الى المجتهد وغير المتخصص

الى المتخصص (أصل عقلائي كان ولا يزال متعارفاً ودارجاً بين الناس ، بل إن آيات الحياة تسير على عتلات هذ النوع من التقليد ، بالطبع إن هناك شروطاً ينبغي توفرها في المجتهد الذي يُرجع إليه ، سنتعرض لها بعد ذلك .
وهذا التقليد هو الذي أشار إليه الله في القرآن الكريم وعنونه بـ ﴿ الأُسوة الحَسَنَة ﴾ .

(الاحزاب / ٢١) .

كما جاء في سورة الانعام الآية ٩٠ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ .

ورغم أنَّ الخطاب موجه للرسول ﷺ ، لكن لا يبعد ان يكون المراد الامة أجمع .

أما الاقسام الثلاثة الباقية من التقليد فكلها باطلة ولا أساس منطقي لها ، فتقليد (العالم للجاهل) و (الجاهل للجاهل) حالهما واضح ، وأما تقليد (العالم للعالم) فإن كان من باب مراجعة أحدهما الآخر للتشاور وتكميل المعلومات ، فلا يُعدُّ هذا تقليداً بل هو نوع من « التحقيق » .

إن التقليد هو غض الطرف عن التخصص الذي يمتلكه الانسان واتباع شخص آخر اتباعاً عشوائياً ، فالمسلم أن التقليد لشخص قادرٍ على التحقيق أمر مذموم ونادر ، ولهذا ورد (حرمة التقليد للمجتهد) في الفقه الاسلامي .

ويستضح مما قلنا فلسفة تقليد غير الفقهاء في المسائل الفقهية للمجتهدين ، ومثل هذا دارج في جميع الفروع العلمية ، وبما أن الفقه الاسلامي واسع الى درجة حيث لا يمكن للناس جميعاً أن يجتهدوا ، فجميع أبوابه والتحقيق فيها تعيّن على فريق منهم الاجتهاد بالفقه ، وعلى الناس اتباعهم ، إلا أن الأمر يختلف عنه في اصول الدين ، فيتعين التحقيق والاجتهاد فيها على كل

مسلم ، وذلك لامكانيتهما ، فلا يجوز التقليد فيها .



٢ - شروط التقليد الممدوح :

عادة ما يقال في تعريف « التقليد » انه عبارة عن قبول كلام الآخرين بلا دليل وتارة يوسعون المفهوم ويعتبرون الاتباع العملي تقليداً من دون الالتزام بحديث أو كلام للآخرين ، وتارة يعدون التأثيرات اللاإرادية (التي تتركها أعمال وسلوك وصفات الآخرين عند الانسان) قسماً من التقليد .

بالطبع إن القسم الاخير من التقليد (الذي يتحقق بشكل غير ارادي) خارج عن موضوع بحثنا ، أما القسم الثاني والثالث ، فيمكن ان يكونا ممدوحين اذا ما توفر شرطان في « المقلد » - أو مرجع التقليد - وهما : الخبرة والصدق ، أي كونه من أهل العلم أولاً ، وينقل ما يوحى إليه علمه بصدقٍ ثانياً . واذا ما انتفى هذان الشرطان دخل التقليد في القسم المذموم .

ومن جهة اخرى ، ينبغي ان يكون موضوع التقليد من مواضيع الاختصاصات كي يباح التقليد فيه ، أما اذا كان من المسائل العامة التي يتمكن للناس كافة في الخوض والتحقيق فيها (مثل اصول الاعتقادات وبعض المسائل الاخلاقية والاجتماعية غير ذات الجانب الاختصاصي) فانه يتعين على كل انسان التحقيق فيها والوصول إليها بنفسه .

ومن جهة ثالثة ، فان المقلد ينبغي أن لا يكون قادراً على الاستنباط ، فاذا ما قدر على ذلك في مسألة ما ، مُنِع من التقليد فيها .

ومن هنا تتضح حدود التقليد الممدوح والتقليد المذموم من الجهات الثلاث (أي شروط المرجع وشروط المقلّد ، وشروط الموضوع المقلّد فيه) .

ننهي كلامنا هذا بحديث عن الامام الصادق عليه السلام :

قال رجل للصادق عليه السلام : اذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب الا بما يسمعون من علمائهم فكيف ذمهم بتقليدهم والقبول من علمائهم ؟ وهل عوام اليهود الا كعوامنا يقلّدون علماءهم . فقال عليه السلام : بين عوامنا وعوام اليهود فرق من جهة وتسوية من جهة اما من حيث الاستواء فان الله ذم عوامنا بتقليدهم علماءهم كما ذمّ عوامهم ، واما من حيث افترقوا فان عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح واكل الحرام والرشا وتغيير الاحكام واضطروا بقلوبهم الى أن من فعل ذلك فهو فاسق لا يجوز ان يصدّق على الله ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله فلذلك ذمهم . وكذلك عوامنا اذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر والعصبية الشديدة والتكالب على الدنيا وحرامها فمن قلّد مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الذي ذمهم الله بالتقليد لفسقة علمائهم فأما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه حافظا لدينه مخالفا على هواه مطيعاً لامر مولاه فللعوام أن يقلّدوه^(١) .



٣ - عوامل التقليد الأعمى :

التقليد الأعمى أو بتعبير آخر : (تقليد الجاهل للجاهل) والأسوء منه (تقليد العالم للجاهل) ، دليل على الارتباط الفكري ، وله عوامل عديدة ،

نتعرض لبعضها بالاجمال هنا :

١ - عدم النضج الفكري : إن أشخاصاً قد ينضجون ويبلغون جسمىاً ، إلا أن فكرهم لا يستقل ولا يبلغ الى آخر العمر ، ولهذا يضلون من أتباع هذا وذاك ، ولا يفكرون يوماً في مسألة ما ولا يحللونها باستقلال .

إن أنظار هؤلاء تترصد الآخرين دائماً ، فيرددون ما يتفوه به الآخرون ، وكأنهم خُلِقوا بلا إرادة ، ولهذا قد يغيروا اتجاههم بالكامل اذا ما تغيرت بيئتهم أو تغير محيطهم .

إن طريق مكافحة هذا النوع من التقليد الأعمى هو رفع المستوى الثقافي للمجتمع والسعي لازدهار الأفكار والقابليات .

٢ - التأثير بشخصية : وهي أن يتأثر الإنسان بشخصية ما ويجعلها أسوة له بحيث لا يرى نفسه أهلاً لأبداء الرأي أمام صاحبها ، فيتبعه بكل معنى الكلمة ويسير خلفه وإن لم تكن تلك الشخصية أهلاً للاتباع والتقليد .

٣ - التعلق الشديد بالأسلاف : والتعلق هذا قد يصنع منهم أناساً مقدسين وإن لم يكونوا أهلاً لذلك ، فتتبعهم الأجيال اللاحقة عشوائياً . ومع ان الأجيال اللاحقة التي ترث علوم السالفين وتضيف اليها علوماً أخرى تكون أكثر وعياً بطبيعة الحال ، لكنها مع ذلك تبثلي بالتقليد العشوائي .

٤ - التحزب أو التعصب الطائفي : إن تعصباً كهذا يدفع بفريق من الناس لاتباع حزب أو طائفة والسير خلفهما والتمسك بترديد ما يتبناه ذلك الحزب او تلك الطائفة ، بحيث لا يسمح الإنسان لنفسه التفكير باستقلال والعمل خارج اطار الحزب أو الطائفة .

إن هذه العوامل الأربعة وعوامل أخرى سبب لانتقال كثير من الخرافات

والأوهام والعقائد الباطلة والتقليد والعادات الخاطئة والسنن الجاهلية والأعمال
القبیحة من قوم الى قوم آخرين ومن نسل الى نسل آخر .
وبتعبير آخر ، فان الميول الخاطئة تجعل حجاباً على فكر الانسان تحول
دون معرفته للحق .

٨ - حجاب حب الرفاه

في البدء نصغي خاشعين الى الآيات التالية :

١ - ﴿ وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ
اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ *
رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ ﴾

(التوبة / ٨٦ - ٨٧)

٢ - ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ
يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(التوبة / ٩٣)

جمع الآيت وتفسيرها:

اعفنا من الجهاد :

أشارت الآية الاولى الى اولئك الذين لم يستعدوا لتنفيذ الأوامر الالهية في مجال الجهاد ، فبالرغم من اقتدارهم الجسمي والمالي للحضور في سوح القتال لكنهم انضموا الى صفوف القاعدين وغير القادرين على الجهاد ، وقد ألحوا على الرسول ﷺ بأن يذرهم ويجعلهم مع القاعدين والخوانف .

و « القاعدين » جمع « قاعد » وهم المعذورون عن الجهاد .

و « الخوانف » جمع « خالفة » ومن مادة (خَلَف) ومعناها يقابل الأمام ، ولهذا يقال « خالفة » للنساء اللاتي تبقى ماكنة في البيت عند خروج رجالهن ، ولايبعد أن يكون مفهوم هذه المفردة أعم من النساء ، بحيث يشمل جميع العاجزين عن الجهاد والمعذورين عن الالتحاق بساحات القتال من النساء والأطفال والشيوخ والمرضى .

يقول الراغب في مفرداته : إن « خالفة » عمود يجعل في نهاية الخيمة وتطلق - كناية - على النساء الماكثات في البيت ، ويقول البعض : إن « خالف » من تخلف كثيراً^(١) .

وتستعمل هذه المفردة - أحياناً - بمعنى « كرهه الرائحة » من باب أن الرائحة الكريهة تستخلف الرائحة الجيدة اذا ما ذهبت .

وقال البعض : إنها بمعنى الانحطاط والميل الى الامور الدنيئة لأن هذا

المِثْل يدلّ على التخلّف^(١)، إلّا أن المعنى الأول أنسب من بقيّة المعاني .
وعلى أي حال ، فإن محبي الرفاه وطلبة العافية غير مستعدين للايثار
والتضحية عند الازمات والكوارث الاجتماعية ، وهم مستعدون لأن يُجعلوا في
صفوف الأطفال والمرضى دون أن يلتحقوا بصفوف المجاهدين ، ويقول القرآن
فيهم ، في نهاية الآية نفسها : ﴿ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

نعم ، إن حب الراحة والرفاه كالحجاب الذي يمنع من الرؤية الفكرية
الصحيحة ، فهو لاء لا يدركون أن السعادة ليست بالأكل والشرب ، بل قد تكون
في الحضور في ميادين الجهاد ، وفي التخضب بالدماء ، وبلقاء الله ، إلّا أن الذي
لا يفهم هذه الامور يستهزأ بها .



وتشير الآية الثانية الى المعذورين عن الجهاد مثل الضعفاء والمرضى
والذين لا يملكون الوسيلة للقيام بهذا الأمر ، بينما تشاق اليه قلوبهم ، وتصب
دموعهم لعدم اقتدارهم على الانفاق ، يقول الله فيهم : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى
الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُّوا بِأَن يَكُونُوا
مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ .

ثم يضيف : ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وذلك لأن الميل
الى الراحة جعل حجاباً سميكاً على قلوبهم فلا يكادون يفقهون شيئاً ، إن كلتا

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ١٦ الصفحة ١٦٣ .

اليتين توضح حقيقة واحدة وهي العلاقة بين « التخلف عن الجهاد لأجل الراحة والصحة » و « عدم إدراك الحقائق » .

٩ - حجاب الأمانى

١ - ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّضْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾

(الحديد / ١٤)

جمع الآيات وتفسيرها:

الآمال الطويلة :

إن « الأمانى » جمع « أمنية » وتطلق على الحالة النفسية التي تعرض للانسان من جراء تمنيه لشيء ما^(١) ، والجدير بالذكر ان الاماني المعقولة والمنطقية ليست نقصاً ، بل هي عامل لتقدم البشر وبناء مستقبل أفضل له من الحاضر ، انما النقص في الآمال البعيدة وغير المنطقية ، ولهذا يفسرون الاماني

(١) مفردات الراغب ، وينبغي الالتفات الى أن الأمانى جمع أمنية ، أما مئى فجمع منية .

في موارد كهذه بالمعنى الثاني ، حيث تجعلُ الانسان في غفلة وتسدل حجاباً من الظلمة على قلبه .

ويقول ابن الاثير : إن التمني يعني تشهّي حصول الامر وكذلك يطلق على ما يخطر على النفس بالنسبة للمستقبل ، كما ان « مُنية » و « الأُمْنِيَّة » وردتا بمعنى واحد^(١) . إلا ان بعضاً فسّر « الامنية » بالكذب ، ذلك لان الكاذب يُقدّر أمراً في قلبه ثم يحدث به^(٢) .

يقول الراغب : لما كان الكذب تصوّر مالا حقيقة له صار التمني كالمبدأ للكذب فصَحَّ ان يُعبّر عن الكذب بالتمني .

وادعى البعض : ان معنى هذه المفردة في الاصل هو التقدير والفرض والتصوير^(٣) ، وقد قيل للاماني أماني لأن الانسان يقدرها ويصورها في ذهنه . وعلى أي حال ، فان المؤمنين عندما يجتازون المحشر نحو الجنة بسرعة في ظل الايمان يصرخ المنافقون والمنافقات : انظرونا نقتبس من نوركم . فيجيبهم المؤمنون : ﴿ ارجعوا ورائكم (الدنيا) فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بُبَابٌ مُطِينٌ فِيهِ الرِّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ﴾ . (الحديد / ١٣) .

وعندها يصرخ المنافقون : ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ في الدنيا في مجتمع واحد وقد كنا في بعض الطريق معكم ؟ فما الذي حصل حيث انفصلتم عنا واتجهتم نحو رحمة الله وتركتمونا في العذاب ؟

(١) لسان العرب .

(٢) المنجد مادة مني .

(٣) مجمع البحرين للطريحي .

فيجيبهم المؤمنون « بلى » كنا معكم في مجتمع واحد ، في الزقاق وفي السوق ، وفي السفر والحضر ، وكنا جاراً لكم ، بل عشنا في بيت واحد ، ولكنكم أخطأتم خمسة أخطاء فاحشة ، الأول أنكم سلكتم طريق الكفر والنفاق ففتنتم أنفسكم ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

وثانياً ، أنكم (تربصتم) وترصدتم فشل المسلمين ، وموت الرسول ﷺ ، وتحججتم في كل عمل خير .

وثالثاً ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ وترددتم خاصة في مسألة المعاد ، وحقانية الاسلام .
ورابعاً ﴿ وَغَرَّتْكُمْ الْأُمَانِي ﴾ التي نسجت حاجباً ضخماً على عقولكم وأفكاركم ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ .

وخامساً ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ أي غرکم الشيطان بعفو الله ووعدكم بالآيئالكم عذابه .

نعم ، إن هذه العوامل معاً أوجدت المنظر الذي صورہ القرآن لنا ، وهي التي سببت خلق سورٍ عازل بين المؤمنين والمنافقين .

إن شاهد حديثنا هو الجملة الرابعة ، حيث جاء فيها ﴿ وَغَرَّتْكُمْ الْأُمَانِي ﴾ ، فان الأمانى قد تصل الى درجة بحيث تشغل فكر الانسان بالكامل ، فيغفل عن كل شيء ، ويظل في عالم الوهم والظن ، فتعمى عيناه ، ويثقل سمعه ، ويفقد وعيه (إذا كان واعياً) ، ويضل في الظلمات التي وضعها بنفسه تائهاً .

إن سعة الأمانى قد تصل الى درجة يرسم صاحبها خططاً لنفسه لا يمكن تطبيقها حتى لو كان نوحاً في العمر ، وقد يقوم بمقدمات امنية ، الكل يعلم بعدم امكانها حتى لو كان قد بدأ بها منذ قرون ، وهذا هو حجاب الامانى الذي يحول

دون المعرفة .

وقد نقل بعض المفسرين خمسة أقوال في تفسير الأمانى إضافة الى الآمال البعيدة ، والأقوال هي :

(تمنى فشل المؤمنين وضعتهم ، وإغواء الشيطان ، والدنيا ، وتوقع استغفار الرسول للمنافقين ، وتذكر الحسنات ونسيان السيئات)^(١) ، وقد فسرهما البعض بـ « الأباطيل » .



إيضاحات :

حجاب الأمانى في الروايات الاسلامية :

إنّ مسألة (الآمال الطويلة والأوهام البعيدة عن الواقع ، وانها تجعل حجاباً على عقل الانسان و شعوره) لم يشر اليها في القرآن الكريم فحسب ، بل لها شواهد كثيرة في الروايات الاسلامية والتواريخ ايضاً ، ففي حديث مشهور للامام علي عليه السلام يقول فيه : « إن أخوف ما أخاف عليكم إثنان ، إتباع الهوى و طول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة »^(٢) . ويقول في كلماته القصار : « الأمانى تُعمي أعين البصائر »^(٣) .

ونقرأ في حديث آخر لنفس الامام عليه السلام : « جماع الشرفي الاغترار بالمُهمل

(١) تفسير القرطبي الجزء ٦ الصفحة ٦٤١٧ .

(٢) نهج البلاغة الخطبة ٤٢ .

(٣) الكلمات القصار ، الجملة ٢٧٥ .

والاتكال على الأمل»^(١).

كما نقل عن نفس الامام في هذا المجال أنه قال : « غرور الأمل يفسد العلم »^(٢).

والخلاصة ان من يريد الاطلاع على جمال الحقيقة كما هي ويصل الى ينبوع المعرفة الصافي ، ينبغي له أن لا يغطي عقله بحجاب الأمانى السميكة ، وأن لا يضل في متاهات طريقها .

ونختتم هذا البحث بحديث آخر للامام امير المؤمنين عليه السلام حيث يقول فيه :
« واعلموا أن الأمل يُسهي العقل ويُنسي الذكرَ فأكذبوا الأمل فأنه غرورٌ وصاحبه مغرور »^(٣).

(١) غرر الحكم (حرف ج رقم ٥٥) .

(٢) غرر الحكم .

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٨٦ .

القسم الثاني :

الاعمال التي تحجب
عن المعرفة

القسم الثاني

الأعمال التي تحجب عن المعرفة

١٠ - حجب الذنوب

نصفي خاشعين معاً للآيات التالية :

١ - ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّتَ الدِّينِ * وَمَا يُكْذَبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(المطففين / ١١ - ١٤)

٢ - ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴾

(محمد / ٢٢ - ٢٣)

٣ - ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾
(الأعراف / ١٠٠)

٤- ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أسَاؤُوا السُّوْأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾

(الروم / ١٠)

جمع الآيات وتفسيرها :

الذنب يُعمي الانسان ويصمه :

أشارت الآية الاولى الى اولئك الذين أنكروا القيامة بالكامل ، وأضافت : ان القيامة لا ينكرها إلا المعتدون والآثمون ، فانهم لا يخضعون أمام الحق ولا يسلمون إليه أنفسهم أبداً ، ولهذا إذا تليت عليهم آيات الله قالوا : أساطير الأولين .

وَيَصْرَحُ القرآن : ان الأمر ليس كما يتوهم هؤلاء ، وقولهم هذا سببه الصدا الذي أحاط قلوبهم وحال دون أن يعقلوا شيئاً .

لقد استخدمت مفردة « رَيْن » في هذه الآية الكريمة ، وقد قلنا سابقاً : ان لها معاني ثلاثة (على ما يدعيه أئمة اللغة) الاول : الصدا الذي يعلو الأشياء القيّمة ، الثاني : الصدا الذي يعلو الفلزات وهو علامة تأكل وفساد ذلك الفلز ، الثالث : كل شيء غلب على شيء آخر ، ولهذا تستعمل هذه المفردة في مجال غلبة الشراب المسكر على العقل وغلبة الموت على الأحياء ، وغلبة النوم على العيون^(١) .

والطبع يمكن جمع هذه المعاني الثلاث في مفهوم واحد وهو الصدا الذي

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ٣١ الصفحة ٩٤ ، وروح المعاني الجزء ٣ الصفحة ٧٢ .

يستحوذ على الأشياء ويعلوها ، ثم اطلقت هذه المفردة على غلبة كل شيء على شيء آخر .

ونستشف من هذه الآية أن الاثم يعكر صفاء القلب بحيث يمنع انعكاس الحقائق في هذه المرآة الالهية ، وإلا فإن آيات الله خصوصاً في مسألة المبدأ والمعاد واضحة ولا تقبل للانكار .

ولهذا فقد قال بعض المفسرين : يظهر من هذه الآية أولاً : ان الأعمال القبيحة تُوجد نقوشاً وصوراً في نفس الانسان ، وثانياً : ان هذه الصور والنقوش تحول دون إدراك الحق . وثالثاً : إن روح الانسان - وحسب طبيعتها الأولية - صافية وشفافة ، وتدرك الحقائق كما هي ، وتميز بين الحق والباطل وبين التقوى والفجور ، كما جاء ذلك في الآيات (٧ و ٨) من سورة الشمس ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾^(١) .

وقد حلل مفسرون آخرون المسألة بشكل ملخص آخر .

عندما يكرر الانسان عملاً ما فان ملكة نفسانية لذلك العمل ستحصل عنده تدريجياً ، كالقراءة والكتابة ، ففي البداية يشق عليه الأمر ، وبعد الممارسة يتمكن منهما بدرجة لا يحتاج فيهما الى فكر ودراسة .

وكذلك الأمر بالنسبة للذنوب ، فبالإصرار عليها وارتكابها مرات عديدة تحصل هذه الملكة عند الانسان ، ونعلم أنه لا حقيقة للذنوب غير إشغال القلب بغير الله ، والتوجه لغير الله ظلمة ، وعندما تتراكم الظلمات على القلب تسلبه صفاته وشفافيته ، وإن لهذه الظلمات درجات ومراحل ، المرحلة الاولى هي مرحلة « الرّين » أو الصدأ ، والمرحلة الثانية هي مرحلة « الطبع » والمرحلة الثالثة

هي مرحلة « الأقفال » وهي أشد المراحل .

والآية الثانية ناظرة الى المنافقين الذين يدعون الايمان ، فاذا ما نزلت آية في الجهاد تمارضوا وتذرّعوا بذريعة من هو على وشك الموت ، فيخاطبهم القرآن قائلاً : إن استمراركم في مخالفتكم هذه وإعراضكم عن العمل بكتاب الله ، سيؤدي بكم الى أن تفسدوا في الارض ، وأن تقطعوا أرحامكم ، ولا يأمن شركم حتى أرحامكم ، ثم يضيف : « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ (بذنوبهم) فَأَصْمَتَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ » فما كادوا يسمعون الحق ولا يروونه .

وقد كشفت هذه الآيات عن ان النفاق حجاب للقب والروح من جهة ، ومن جهة اخرى عن علاقة الذنوب خصوصاً (الفساد في الارض) و (قطع الرحم) و (الظلم والجور) بادراك الانسان وتمييزه بين الحق والباطل .

فسر البعض عبارة « إن توليتم » بالإعراض ، وفسرها بعض آخر بالولاية والحكومة ، أي أنّ مقاليد الامور إذا أصبحت بأيديكم فستفسدون وتريقون الدماء وتقطعون الارحام^(١) ، ولهذا جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام : ان الآية نزلت في بني امية^(٢) ، وهذا تلميح الى أنهم عند استلام زمام الامور والحكومة الاسلامية سوف لا يرحمون صغيراً ولا كبيراً ، ولم يسلم من ظلمهم أحد حتى أقاربهم وذووهم .

وسواء كان معنى « التولي » هنا هو الإعراض عن الجهاد أو استلام مقاليد

(١) ورد كلا التفسيرين في تفسير روح المعاني ومجمع البيان والميزان في ذيل الآيات المذكورة في البحث .

(٢) تفسير نور الثقلين الجزء ٥ الصفحة ٤٠ الجزء ٥٩ .

الامور في الحكومة والفساد في الأرض ، فان ذلك لا يضر ببحثنا ، لأن الآية على أي حال تبين ان الذنوب حجاب للقلوب .

وقد أشارت الآية الثالثة الى اولئك الذين ورثوا الاسلاف من دون أن يعتبروا بمصيرهم الذي ابتلوا به ، فخاطبتهم : ﴿ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .

عطف العقاب على الذنوب مع الطبع على القلوب والآذان ، تلميح الى العلاقة بين هذين الاثنين .

ويقول البعض : إن الله إذا شاء عذبهم بأحد العذابين : إمّا إهلاكهم بسبب ذنوبهم ، وإمّا إبقاءهم أحياء مع سلب قدرة تمييز الحق عن الباطل منهم ، وهذا عذاب أتعس من عذاب الهلاك الالهي .

إلا أنه بالالتفات الى مجيء « أصبناهم » بصيغة الماضي و « نطبع على قلوبهم » بصيغة المضارع ، نفهم أن الجملة الثانية مستقلة وليست عطفاً على ما قبلها ، فيكون معنى الآية هكذا : (سواء عجلنا بعذابهم أم لم نعجل فنحن نطبع على قلوب هؤلاء ونلقي حُجْباً عليها)^(١) .

أشارت رابع وآخر آية الى عاقبة الذين يرتكبون الأعمال السيئة فقالت : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسَاءُوا السَّوْءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ لَمْ لَا يكون مصيرهم

(١) جاء هذا كاحتمال في تفسير الفخر الرازي ، في ذيل نفس الآية ، إلا ان صاحب تفسير الميزان عدّ الجملة الثانية معطوفة على « أصبناهم » التي تفيد الاستقبال ، لكن الظاهر أن التفسير الاول أنسب .

هذا والذنب كالمرض الذي ينقض على روح الانسان فيتآكل الايمان من جرائه ؟ ولم لا يكون هكذا وهو كالحجاب الذي يغطي القلب ويعميه ؟ والأسوأ أنه لا يكفر فحسب ، بل يفتخر بكفره ، وقد شهد التاريخ الكثير من هؤلاء .
 وخلاصة الحديث ، إن القرآن يعدُّ الذنوب والمعاصي من موانع المعرفة ، وهذه حقيقة ملموسة ومجربة عند كثير من الناس ، فبمجرد صدور ذنب أو معصية منهم يشعرون بظلمات خاصة في قلوبهم ، وإذا ما مالوا الى الطهارة والتقوى يشعرون بأنوار ترتاح لها قلوبهم .



إيضاحات :

إن الذنب حجاب في الروايات الاسلامية :

لقد انعكست هذه الحقيقة في الروايات الاسلامية بشكل واسع نذكر هنا

نماذج منها :

١ - جاء في حديث للرسول ﷺ يقول فيه :

« إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فاذا هو نزع واستغفر

الله وتاب صَقُلَ قلبه فان عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه ، وهو الرّان (الرين)

الذي ذكر الله في كتابه « كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون »^(١) .

٢ - ونقرأ في حديث الامام الصادق عليه السلام أنه قال فيه :

« كان أبي يقول ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة ان القلب ليواقع

(١) تفسير القرطبي الجزء ١٠ الصفحة ٧٠٥٠ ، روح المعاني الجزء ٣ الصفحة ٧٣ ، وتفسير الفخر

الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله»^(١).

بديهي ان المراد من (أعلاه أسفله) تغير قدرة الانسان على التمييز - بسبب الانس بالذنوب - بحيث يرى الحسن قبحاً والقبح حسناً ، وهي أخطر مرحلة .

٣ - وقد جاء في حديث آخر للامام الصادق عليه السلام أيضاً يقول فيه :

« إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء فان تاب انمحت ، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يُفلح بعدها أبداً »^(٢).

واضح ، ان الشرط الاول للفلاح هو إدراك الحقائق ، فالذي تعطل قلبه (عقله) عن العمل كيف يمكنه الوصول الى السعادة والفلاح ؟ !

وقد جاء نفس المضمون في رواية اخرى عن الامام الباقر عليه السلام في تفسير الآية ﴿ كَلَّا بَلْ رَأَوْا عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، وتم التعبير فيه بالنقطة السوداء والنقطة البيضاء حيث تتغلب السوداء نتيجة تراكم الذنوب على البيضاء النورانية وتغطيها^(٣).

٤ - وفي حديث آخر للرسول صلى الله عليه وآله يقول فيه :

(كَثْرَةُ الذُّنُوبِ مُفْسِدَةٌ لِلْقَلْبِ)^(٤).

٥ - وقد نقل في كتاب الخصال حديث عن الرسول جاء فيه :

« أربع خصال يُمتن القلب : الذنب على الذنب ... »^(٥).

(١) اصول الكافي الجزء ٢ باب الذنوب الحديث ١٣ .

(٢) اصول الكافي الجزء ٢ باب الذنوب الحديث ١٣ .

(٣) نفس المصدر الحديث ٢٠ ، وقد نقل نفس المضمون في مجمع البحرين في مادة « ارين » أيضاً .

(٤) الدر المنثور الجزء ٦ الصفحة ٣٢٦ .

(٥) الخصال الجزء ١ الصفحة ٢٥٢ الحديث ٦٥ ، وقد جاء مضمون يشبه هذا في الدر المنثور الجزء ٦

الصفحة ٣٢٦ .

ولهذا ، فإننا أمرنا - لمحو آثار الذنوب - قراءة ودراسة أحاديث الائمة إضافة الى التوبة ، كما نقل ذلك في نور الثقلين عن الرسول الاكرم ﷺ :

«تذاكروا وتلاقوا وتحدثوا فان الحديث جلاء للقلوب وإن القلوب لترين كما يرين السيف ، وجلاءه الحديث»^(١) .

٦ - وقد أشار أمير المؤمنين لهذه الحقيقة في خطبة له مخاطباً بها بعض عمي القلوب :

« قد خرقت الشهوات عقله وأماتت الدنيا قلبه وولعت عليها نفسه فهو عبد لها»^(٢) .

٧ - وقد نقل الامام الصادق عليه السلام عن الرسول ﷺ أنه قال :

« إذا ظهر العلم واحترز العمل وائتلفت الألسن واختلفت القلوب وتقاطعت الأرحام هنالك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم»^(٣) .

٨ - وقد صرح بهذا الأمر بالنسبة لبعض الذنوب كما جاء ذلك في حديث لأمر المؤمنين عليه السلام مخاطباً به أولئك الذين تركوا الجهاد :

« ألبسه الله ثوب الذل ... وضرب على قلبه بالأسهاب وأدبل الحق منه بتضييع الجهاد»^(٤) .



(١) نور الثقلين الجزء ٥ الصفحة ٥٣١ الحديث ٢٣ .

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٠٣ .

(٣) نور الثقلين الجزء ٥ الصفحة ٤١ الحديث ٦٣ .

(٤) نهج البلاغة الخطبة ٢٧ .

١١ - حجاب الكفر والأعراض

في البداية نصغي خاشعين الى الآيات التالية :

١ - ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾

(الاعراف / ١٠١)

٢ - ﴿ فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(النساء / ١٥٥)

٣ - ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾

(الكهف / ٥٧)

٤ - ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾

(فصلت / ٤٤)

جمع الآيات وتفسيرها:

لِمَ يَحْجُبُ الذَّنْبُ الْقُلُوبَ عَنِ الْفَقْهِ ؟

إِنَّ الْآيَةَ الْأُولَى بعد إشارتها الى تاريخ وقصص خمسة أقوام من الأقوام السالفة وهم (قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب) حيث نزل عليهم العذاب الالهي لتكذيبهم آيات الله ، قالت : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ ... ﴾ .
 إن جملة ﴿ وَكَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ لا تشير الى اي كافر كان ، وذلك لأن كثيراً من المؤمنين كانوا في صفوف الكفار والتحقوا بصفوف المؤمنين بعد سماعهم لدعوة الأنبياء ، فالمراد - إذن - ذلك الفريق من الكافرين الذين ألحوا وأصروا على كفرهم ، فان كفرهم هذا يحول دون معرفتهم ورؤيتهم للحق .

والشاهد على هذا الكلام هو قوله : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي ان تعصبهم بلغ درجة لا تسمح لهم بتغيير طريقتهم والرجوع عن الباطل الى الحق ، وقد ذكرت خمسة وجوه في تفسير هذه الجملة في تفسير الميزان والفخر الرازي^(١) ، إلا أن أظهرها هو ما تقدم اعلاه .

والآية الثانية بعدما أشارت الى سلوك فريق من اليهود وعدائهم للأنبياء قالت : ﴿ فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ ... ﴾ .
 يقول القرآن : إنهم لا يفقهون شيئاً وذلك لكفرهم فطبع الله على قلوبهم من جراء ذلك .

بديهي ان المراد من الكفر هنا هو الكفر المتزامن مع العناد ، والكفر المتزامن مع العداء للأنبياء ، والكفر المتزامن مع نقض المواثيق باستمرار

(١) الميزان الجزء ٨ الصفحة ٢١٥ ، تفسير الفخر الرازي الجزء ١٤ الصفحة ١٨٦ .

والاستهزاء بآيات الله ، ومسلم أن كفوراً كهذا يجعل حجاباً على عقل الانسان لايسمح لصاحبه أن يدرك الحقائق ، وهذا شيء صنعته أيديهم ولاجبر في البين .

ويظهر ان مرادهم من « قلوبهم غلف » هو الاستهزاء بآيات الله وبشخصية موسى بن عمران ، لا أنهم يعتقدون أن قلوبهم خُلِقَتْ مغلَّفةً لا تفهم الحقائق (كما جاء ذلك في بعض التفاسير) ^(١) ، إلاَّ أنَّ الله أخذ كلامهم بالجد وأجابهم : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وهناك احتمال آخر وهو ان مرادهم من الجملة هو أن قلوب كلٍّ منهم كالوعاء المليء بالعلم والغمد الذي فيه السيف فلا تحتاج لعلوم الآخرين ^(٢) ، إلاَّ أن هذا الاحتمال بعيد جداً .

وعلى هذا ، فهناك ثلاثة احتمالات في تفسير الآية والأول أنسب من الآخرين ، وقد نقل في بعض التفاسير حديث ذا مغزى عميق عن الرسول ﷺ يقول فيه : « الطابع مُعَلَّقٌ بقائمة العرش فاذا انتهكت الحرمة وعُمِلَ بالمعاصي واجترأ على الله تعالى بَعَثَ اللهُ تعالى الطابع فطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئاً » ^(٣) .

والجدير ذكره ان « طابع » اسم فاعل للطبع و « طابع » اسم آلة الطبع ، ويظهر في الحديث ان الكلمة الاولى بالفتح والثانية بالكسر . وهذا الحديث يؤكد بوضوح الحقيقة التالية : أنَّ لا جبر هنا ، وإنَّ حجب

(١) الميزان الجزء ٥ الصفحة ٣٨ ، و القرطبي الجزء ٣ الصفحة ٢٠٠٤ .

(٢) لقد جاء هذا الاحتمال في التفاسير التالية : الفخر الرازي الجزء ١١ الصفحة ٨٧ ، والقرطبي الجزء ٣ الصفحة ٢٠٠٤ ، وروح المعاني الجزء ٦ الصفحة ٨ .

(٣) روح المعاني الجزء ٦ الصفحة ٨ .

القلوب نتيجة لأعمال الانسان نفسه .

وطرحت الآية الثالثة سؤالاً تقريرياً حيث قالت : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ... ﴾ .

إن وجه اعتبار القرآن هؤلاء أظلم الناس واضح لأنهم ظلموا أنفسهم كما ظلموا الآخرين وكما ظلموا الله ودينه ، وعليه فالآية لا تدل على عدم الجبر فحسب ، بل تدل على الاختيار .

وما يلفت النظر هنا هو ان الفخر الرازي بالرغم من كونه من القائلين بالجبر ، لكنه عندما يصل الى هذه الآية يقول : إن آخر الآية دليل لمؤيدي الجبر ، بينما صدرها دليل لمؤيدي الاختيار ! ثم يضيف : قلما نجد آية في القرآن تؤيد أحد الفريقين ، واذا ما وجدنا آية مؤيدة لفريق وجدنا قبالتها اية تؤيد الفريق المقابل ، والتجربة شاهد على ما نقول ، وهذا امتحان صعب من الله للعباد ، وذلك لكي يتميز الراسخون في العلم عن المقلدين^(١) ! ياله من اعتراف عجيب ؟ !

ونضيف الى ما قاله الفخر الرازي : ان كلاً من آيات القرآن لا يمكن دراستها وملاحظتها لوحدها من دون ملاحظة ودراسة الآيات الاخرى فضلاً عن صدر وذيل الآية الواحدة ، كما نقول : إن الآية بصدرها وذيلها دليل على مسألة

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ٢١ الصفحة ١٤٢ ، والعجيب ان الالوسي في روح المعاني عندما نقل عبارة الفخر الرازي ادعى ان الفخر الرازي قال : إن هذه الآية من أدلة القائلين بالجبر والآية التي قبلها من أدلة القائلين بالاختيار . وقد نقل صاحب الميزان العبارة من روح المعاني ، بينما مراد الفخر الرازي صدر وذيل الآية نفسها (تأمل جيداً) .

الاختيار لا شيء آخر ، وذلك لأن صدرها يقول : إن الاعراض عن آيات الله واقتراف الذنوب من أفعال الانسان وهو فاعلها باختياره ، بينما ذيل الآية يقول : إن الله يعاقب المُصرِّين على السير في هذا الطريق ، وعقابهم هو جعل الأكنة على قلوبهم .

وبتعبير آخر : إن الله جعل لهذه الذنوب آثاراً ومردودات ، وتلك هي تعكُّر صفاء القلب ، وسلب قدرة التمييز عن الانسان ، وأي جبر في هذا الحديث ؟ ! مثله كمثل الخبير الذي يعلم بأن السم قاتل ، وبالرغم من ذلك يتناوله . فهل هذا . التأثير القهري للسم جبر ؟ !



وقد أشارت الآية الاخيرة الى المعاندين والمتحججين الذين يسألون - أحياناً - هذا السؤال : لِمَ لَمْ ينزل القرآن أعجمياً كي نعيه أهمية أكبر ولكي لا ينحصر في العرب ؟

(قد يكون غرضهم الأساسي من هذا هو عدم فهم الناس عامة له والاقبال عليه إذا ما كان أعجمياً) .

فأجابهم القرآن في صدر الآية : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أي لأشكلتم اشكالا آخر وهو : ان القرآن مبهم وغامض ، ثم يضيف القرآن : ﴿ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أي هل يصحّ لنبي عربي أن يحمل قرآناً أعجمياً ؟ وهذا اشكالهم الآخر اذا ما نزل بلسان أعجمي .

ثم أمر الله الرسول ﷺ بأن يجيبهم هكذا : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى وَأُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ .

وقد بينت الآية بوضوح ان التحجج والعناد والإصرار على الكفر يجعل حجاباً على القلوب يمنعها عن الادراك والفهم^(١).



١٢ - حجاب الاعتداء والعدوان

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُتَعَدِّينَ ﴾

(يونس / ٧٤)



جمع الآيات وتفسيرها:

بينت الآية السابقة لهذه الآية من سورة يونس قصة نوح ، حيث كان يدعو قومه لله ويسعى لهدايتهم وانذارهم من عذاب الله ، إلا أنهم كذبوه فاغرقهم الله بطوفانه وأهلكهم ، وأنقذ المؤمنين منهم بالسفينة فورثوا الأرض .
ثم يضيف الله في الآية : إنا أرسلنا - بعد نوح - رسلاً كلاً الى قومه مع معاجز

(١) فسر البعض عبارة « وهو عليهم عمى » بأن القرآن سبب لعمى هذا الفريق ، بينما قال ابن منظور في لسان العرب والراغب في المفردات : إن جملة (عمى عليه) تعني اشتبه عليه حتى صار كالأعمى (تأمل جيداً) .

وأدلة واضحة ومنطقية ورسائل يشهد محتواها على أحقيتهم ، إلا أنهم لم يخضعوا للحق واستمروا في تكذيبهم .

ويقول الله في ذيل الآية : ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ، وهذه إشارة الى ان الاعتداء والعدوان على الرسل يترك حجاباً في القلب يحول دون معرفة القلب لآيات الله وتمييزه بين الحق والباطل .

إن الطبع على القلوب كما يمكنه أن يكون عقاباً إلهياً للمعتدين ، يمكن أن يكون أثراً من آثار الاستمرار في الاعتداء ، والمراد من الاعتداء هنا هو الاعتداء على الساحة الإلهية والمعصية واقتراف الذنوب ومعاداة الرسل .

إن جملة : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ إشارة الى أن بعض الرسل جاءوا إلى أقوامهم فكذبوهم ، ثم أرسل الله إليهم رسلاً آخرين مع أدلة واضحة فما آمنوا كذلك ، وذلك لأن عنادهم نسج حاجباً سميكاً على عقولهم فأصبحوا لا يفهمون شيئاً ولا يعقلون .

ويقول البعض : إن المراد من المكذبين في الآية قوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان ، والمراد من القوم الذين لم يؤمنوا الأقوام التي جاءت بعد قوم نوح وقد سلكوا مسلك قوم نوح في الاعتداء على الرسل وتكذيبهم^(١) .

ويبدو هذا التفسير بعيداً لأن لازمه اختلاف مرجع الضميرين في (كذبوا) و (ليؤمنوا) ، ولهذا فالأفضل هو التفسير الأول .

ويحتمل ان يكون المراد هو : الاقوام التي جاءت بعد نوح والتي قد نُقِلت لها حقائق عن دعوة الانبياء السالفين فكذبوا تلك الحقائق ، ثم جاءتهم رسل فكذبوهم كذلك ، وعلى هذا فالتكذيب الاول يتعلق بما نُقِلَ وحُكي لهم ،

والتكذيب الثاني يتعلق بالامور التي شاهدوها من الانبياء بأمر أعينهم^(١) ويبدو ان هذا التفسير مناسب ، ولا يبعد الجمع بين التفسيرين .



١٣ - حجاب الرؤية السطحية وترك التدبر

١ - ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾

(الاسراء / ١١)

٢ - ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

(محمد / ٢٤)



جمع الآيات وتفسيرها :

اقفال القلوب الثقيلة :

في الآية الاولى يذكر الله احد اسباب الكفر وعدم الايمان بالله وهو عدم دراسة الامور ، ويقول : انهم وبسبب اضطرابهم وتسرعهم يتجهون احيانا نحو الشر بشكل وكأنهم يتجهون نحو الخير والسعادة ، ويتجهون نحو الهاوية بشكل وكأنهم يتجهون نحو مكان آمن ويتجهون نحو الذل العار وكما لو كانوا يتجهون

نحو طريق الفخر والعز .

اي ان تفكيرهم السطحي وتركهم التدبر يجعل حجاباً على العقول يحول دون ادراكهم الصحيح ، فيرون - لاجل ذلك - الشر خيراً والشقاء سعادة ، والضلال صراطاً مستقيماً .

وقد جاء في تفسير الميزان : ان المراد بكون الانسان عجولاً هو : انه لا يأخذ بالانابة اذا اراد شيئاً حتى يتروى ويتفكر في جهات صلاحه وفساده حتى يتبين له وجه الخير فيما يريد من الأمر فيطلبه ويسعى اليه ، بل يستعمل هواه في طلبه بمجرد تعلقه به فربما كان شراً فتضرر به ، لكن جنس الانسان عجول لا يفرق بين الخير والشر بسبب عجلته ، بل يطلب كل ما لاح له ويسأل كل ما بدا له فتعلق به هواه من غير تمييز بين الخير والشر^(١) .

اما المراد من « يَدْعُ » هنا ؟ فيقول البعض : انه الطلب سواء كان في صورة دعاء او طلب من الله او كان بصورة طلب عملي اي ، السعي لتحصيل الشيء وبذل الجهود لِئَلَيْهِ^(٢) .

الا ان المستفاد من بعض التفاسير ان المراد هو الدعاء اللفظي والطلب من الله ، ولهذا قيل في شأن نزول الآية : انها نزلت في حق الـ (نضر بن الحارث) من مشركي العرب المعروفين حين قال : ﴿ اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ ، فاستجاب الله هذا الدعاء واهلكه^(٣) .

وقد ذكر المرحوم الطبرسي كلا التفسيرين في مجمع البيان ويظهر ان

(١) الميزان الجزء ١٣ الصفحة ٤٩ (ملخص) .

(٢) نفس المصدر السابق الصفحة ٥٠ ، وبما ان الباء في « بالخير وبالشر » باء صلة فيكون معنى الجملة هكذا : « يدعو الشر كدعاءه الخير » .

(٣) تفسير القرطبي الجزء ٦ الصفحة ٣٨٤١ ، والفخر الرازي الجزء ٢٠ الصفحة ١٦٢ .

معنى الآية يسع كلا التفسيرين .

وقد جاء في حديث للامام الصادق عليه السلام في تفسيره لهذه الآية قال فيه :
(وَاعْرِفْ طَرِيقَ نَجَاتِكَ وَهَلَاكِكَ ، كَيْلَا تَدْعُوا اللَّهَ بِشَيْءٍ عَسَى فِيهِ هَلَاكُكَ وَأَنْتَ تَظُنُّ أَنَّ فِيهِ نَجَاتُكَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ ^(١)) .

وقد جاء في حديث آخر ان آدم نصح اولاده وقال لهم : (كُلُّ عَمَلٍ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا فَفَعَلُوا لَهُ سَاعَةً فَإِنِّي لَوْ وَقَفْتُ سَاعَةً لَمْ يَكُنْ أَصَابِنِي مَا أَصَابَنِي) ^(٢) .

ومن هذا الباب اطلق العرب عبارة « ام الندامات » اسماً للعجلة كما قيل :
ان العجلة من الشيطان الا في ستة موارد : اداء الصلاة في وقتها ، دفن الميت ،
تزويج البنت الباكر عند بلوغها ، اداء الدين عند حلول وقته ، اطعام الضيف
عندما يحل ، والتوبة عند اقتراف الذنب .

اما المراد من «الانسان» في عبارة « وكان الانسان عجولاً » وامثالها في
القرآن الكريم والتي تعبر عن نقاط الضعف المظيرة في طبيعة الانسان ، فهو
الانسان الذي لم يتخلق باخلاق الله ولم يتربَّ على اساس التربية الرسالية
والدينية - كما ذكرنا في التفسير الامثل - ، لا الانسان المهذب .



وتحدثت الآية الثانية عن فريق من المنافقين المعاندين حيث أُشير إليهم

(١) نور الثقلين الجزء ٣ الصفحة ١٤١ .

(٢) روح البيان الجزء ٥ الصفحة ١٣٧ .

في الآيات السابقة بصفة عمي القلوب ، واذا تسلموا زمام الحكم ما رحموا صغيراً ولا كبيراً ، واعتبرهم الله الملعونين والمطرودين من رحمته ، وقال فيهم هنا : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ لا قفل واحد بل أقفال ، فكيف يمكنهم إدراك الحقائق ؟

هناك بحث بين المفسرين في ان « أم » متصلة أو منفصلة^(١) ، فاذا كانت متصلة يكون المعنى هكذا : أفلا يتدبرون القرآن أو أن هناك أقفالاً على قلوبهم ؟ وأما اذا كانت منفصلة فالمعنى هكذا : أفلا يتدبرون القرآن ؟ كلا ، بل إن أقفالاً على قلوبهم .

وعلى كلا المعنيين فالآية دليل على وجود تضاد بين « التدبر » و « الحجاب على القلوب » ، ويمكن القول : ان الآية تشير الى حجاب ترك التدبر .

وقد جاء في تفسير (في ظلال القرآن) :

تدبر القرآن طبقاً لهذه الآية يزيل الغشاوة ، ويفتح النوافذ ، ويسكب نور المعرفة على القلوب ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير ويجدد الروح ويجعلها أكثر صفاءً وإشراقاً^(٢) .

وقد جاء بعض المفسرين بدليلين لذكر القلوب نكرة في الآية ، الاول : انها ذكرت نكرة لبيان حال قلوبهم المروّع ، وانها قلوب مجهولة مليئة بالقساوة والظلمات .

الثاني : إن المراد هو بعض القلوب لا كلها ، لأن بعضهم لم يصلوا الى تلك

(١) ينقل الألوسي في روح المعاني عن سيبويه انها متصلة ، بينما ينقل عن ابو حيان وفريق آخر انها منفصلة (الجزء ٢٦ الصفحة ٦٧) .

(٢) في ظلال القرآن الجزء ٧ الصفحة ٤٦٢ .

الدرجة من الظلمات بحيث تقفل قلوبهم وتتوقف عن إدراك الحقائق .
 وذكر الاقفال بصيغة الجمع إشارة الى الحجب المختلفة التي تجعل على قلوبهم مثل حجاب النفاق والعناد والغرور وحب النفس وغيرها .
 كما ينبغي الإشارة الى هذه النقطة وهي : إن بين « ترك التدبر » و « حجاب القلب » تأثيراً متبادلاً ، فكل منهما يمكنه ان يكون علة للآخر في مرحلة ومعلولاً له في مرحلة اخرى ، فتارة ترك التدبر ينشأ عن ظلمات القلب ، وتارة اخرى ظلمات القلب تنشأ عن ترك التدبر .

ونتهي حديثنا هذا برواية عن الامام الباقر عليه السلام جاء فيها :
 عن الباقر عليه السلام قال : قرأ القرآن ثلاثة : رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة واستدرّ به الملوك واستطال به على الناس ، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده واقامه اقامة القدح فلاكثر الله هؤلاء من حملة القرآن ، ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه فأسهر به ليله واطمأ به نهاره وقام به في ساجده وتجاوى به عن فراشه وبأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء وبأولئك يدل الله عز وجل من الاعداء وبأولئك ينزل الله عز وجل الغيث من السماء فوالله لهؤلاء في قرأ القرآن اعز من الكبريت الاحمر ^(١) .



١٤ - حجاب الارتداد

في البداية نصفي خاشعين للآية التالية :

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿

(المنافقون / ٢ - ٣)

جمع الآيات وتفسيرها:

إن هذه الآية ناظرة الى المنافقين ، وبالرغم ان النفاق حجاب مستقل بحد ذاته إلا ان القرآن هنا يذكر موضوعاً آخر في هذا المجال حيث يقول : ﴿ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

يعتقد بعض المفسرين : ان الاشخاص المعنيين في الآية هم فريق آمنوا ظاهراً وضلوا كفاراً باطناً .

إلا ان ظاهر الآية يكشف عن أنهم في البداية آمنوا حقاً ، ثم كفروا بعد ايمانهم ، وكان كفرهم هذا متزامناً مع النفاق ، لأن التعبير بـ « ثم » يدل على أن كفرهم حصل بعد الايمان لا انه كان متزامناً مع الايمان ليكون احدهما ظاهراً والاخر خفياً . وعلى هذا فالآية تتحدث عن حجاب الارتداد .

ولا عجب في أن يطبع الله على قلب من آمن و ذاق طعم الايمان وحلاوته ، وشاهد أنوار الرسالة ، ثم كفر كفراً تزامناً مع النفاق .

إذا التبس الحق على شخص منذ البداية فعذره يمكن ان يكون وجيهاً ، اما

إذا ارتد عن الايمان بعدما عرف الحق وآمن به ، فهذا غالباً ما يكشف عن حالة العناد عند هذا الشخص ، والله يسلب نعمة المعرفة عن اشخاص كهذا ويطبع على قلوبهم .

بالطبع لا دليل لنا على أن كل المنافقين كانوا غير مؤمنين منذ البداية ، بل إنَّ فريقاً منهم آمنوا في البداية حقاً ثم ارتدوا كما جاء ذلك في سورة التوبة الآية (٧٤) : ﴿ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ ، وهذا النفاق المتزامن مع العناد هو الذي يجعل حجاباً على القلوب .

ونؤكد تارة اخرى ان هذا الحديث لا يدل على الجبر اطلاقاً ، لأن مقدمات هذا الحرمان أوجدها المنافقون بأنفسهم .



١٥ - حجاب الكذب والافتراء

في البداية نصغي خاشعين للآيات التالية :

١ - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْثُوا نَصِيْباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

(آل عمران / ٢٣ - ٢٤)

٢ - ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَأَبْصَارُهُمْ

وَلَا أَفْتِدْتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿

(الاحقاف / ٢٦)

جمع الآيات وتفسيرها: خُذاع الكذب :

يقول بعض المفسرين في شأن نزول الآية الاولى :

ان رجلاً وامرأة من اليهود زنياً ، وكانا ذوي شرف ، وكان في كتابهم الرجم ، فكرهوا رجمهما لشرفهما ، فرجعوا في امرهما الى النبي ﷺ رجاء ان يكون عنده رخصة في ترك الرجم فحكم الرسول ﷺ بالرجم فأنكروا ذلك فقال عليه الصلاة والسلام : بيني وبينكم التوراة فان فيها الرجم فمن أعلمكم ؟

قالوا : عبد الله بن صوريا الفدكي ، فأتوا به واحضروا التوراة ، فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها ، فقال ابن سلام الذي كان على ملة اليهود واسلم .
قد جاوز موضعها يا رسول الله ، فرفع كفه عنها فوجدوا آية الرجم ، فأمر النبي ﷺ برجمهما فرجما ، فغضبت اليهود لعنهم الله لذلك غضباً شديداً فأنزل الله تعالى هذه الآية (١) .

يقول القرآن في هذا المجال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ .
ثم يضيف : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ٧ الصفحة ٢٣٢ .

وَعَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١﴾ .

« يفترون » من مادة « الافتراء » ومن أصل « فري » الذي يعني القطع وشق الجلد بهدف الاصلاح ، إلا أنه قد تستعمل في صيغة « الافراء » فتعني القطع بهدف الافساد ، و « الافتراء » معناه واسع ، أي القطع سواء كان بهدف الاصلاح أو الافساد ، بالرغم من استعماله في أغلب الأحيان في مجال الافساد والتخريب ، كما استعملت هذه المفردة في مجال الكذب والشرك والظلم^(١) .

أما « عَرَّهم » فمن مادة « غرور » ومشتقة من « غر » بمعنى ظاهر الشيء ، ولهذا قيل للأثر الظاهر في جبين الحصان « غرة » ، كما تستخدم في القماش اذا طوي بشكل حيث تظهر عليه آثار الطوي ، كما تستعمل هذه المفردة بمعنى الخداع ، وكأن الطرف المخدوع يطوى كالقماش^(٢) .

أما « عَرَّور » فيعني الشخص أو الشيء الذي يخدع الانسان ، كما تطلق على الشيطان الخادع^(٣) .

وقد قيل في كيفية أن الكذب والافتراء يخدعان الانسان ويحجبانه عنه المعرفة وما ذكر صاحب الميزان :

« ان الانسان يجري في اعماله وافعاله على ما تحصل عنده من الاحوال او الملكات النفسانية والصور التي زينتها ونمقتها له نفسه دون الذي حصل له العلم به ، كما ان المدمن على استعمال المواد المخدرة ونحوها يستعملها وهو يعلم انها مضرّة غير لائقة بشأنه وذلك لان حالته وملكته النفسانية زينت له هذه الامور واضفت عليها نوعاً من الجاذبية بحيث لم تدع له مجالاً للتفكر والاجتناب .

(١) مفردات الراغب مادة (فري) .

(٢) مفردات الراغب مادة (غرور) .

(٣) لسان العرب مادة (غرور) .

وبعبارة أخرى انهم كرروا الكذب ولم يزالوا يكررونه ويلقنونه أنفسهم حتى اذعنوا به أي اطمأنوا وركنوا اليه بالتلقين الذي يؤثر أثر العلم كما بينه علماء النفس فصارت الفرية الباطلة بالتكرار والتلقين تغرهم في دينهم وتمنعهم عن التسليم لله والخضوع للحق الذي أنزله في كتابه»^(١).

إن هذا مجرب ، فتارة يتفوه الانسان بحديث كذب ويعلم أنه كذب وافتراء ، وعلى ضوء إعادة الحديث يقع في شك منه ، ثم يعيده مرات أخرى فيصدق به ، حتى يبلغ درجة الاعتقاد بالرغم من عدم واقعيته ، فيصير حجاباً أمام رؤيته العقلية السليمة .

وعلى هذا فلا مجال للقول بان الكذابين هم فريق من اليهود وان المخدوعين يمثلون فريقاً آخر .



وقد أشارت الآية الثانية الى قوم عاد ، وهم قوم ذو قدرة ، كانوا يعيشون في الاحقاف (جنوب أو شمال الجزيرة العربية) ، وابتلوا بالريح العاصف إثر تكذيبهم لرسولهم « هود » وإثر ظلمهم وفسادهم في الارض .
فالأية تقول : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَحَاقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

إن الآية تؤكد أن تكذيبهم المتوالي لآيات الله سبب سلب إدراكهم ومعرفتهم ، فابصارهم ترى وأذانهم تسمع وأفكارهم تعقل ظاهراً ، إلا أن الستار

(١) تفسير الميزان الجزء ٣ الصفحة ١٢٥ .

الحاجب حال دون استعانتهم بوسائل المعرفة هذه فابتلوا بعذاب الله .

« يجحدون » من مادة « جحد » ويعني في الأصل نفي شيء تيقن الانسان من وجوده أو اثبات شيء يؤمن الانسان بعدمه ، وبتعبير آخر : الجحد يعني انكار الواقعيات عمداً وعن معرفة^(١) .

إن التجربة أثبتت ان الانسان اذا ما استمر في انكار الواقعيات ، فستصبح القطعيات عنده - تدريجياً - شكاً ، واذا استمر الانكار أكثر فان قدرته على التمييز تتبدل بحيث يرى الحق باطلاً والباطل حقاً .

وهناك مناشيء وعلل لهذا العمل (أي انكار الواقعيات مع العلم والمعرفة) ، فتارة ينشأ عن العناد ، وتارة اخرى عن التعصب ، وتارة عن الكبر والغرور ، و تارة يقدم الانسان عليه حفاظاً على مصالحه المادية التي تتعرض للخطر إذا ما كشف عن الحقائق ، وتارة لأجل شهوات اخرى ، وعلى أي حال فان لهذا العمل مردوداً سلبياً ، وهو حدوث حجاب على العقل والفطرة فتتقلب قدرة التمييز عند الانسان رأساً على عقب .



١٦ - حجاب الظن السميك

إن اتباع الظنون الباطلة يغير العقل تدريجياً ويحرفه عن جادة المعارف الأصلية ، ويجعل حجاباً أمام عينيه واذنيه .

(١) مفردات الراغب مادة (جحد) ، كما يقول الجوهري : إن الجحد هو الانكار مع العلم . كما ذكر ذلك صاحب مجمع البحرين في مادة (جحد) .

في البداية نصفي معاً خاشعين للآية التالية :

﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

(المائدة / ٧١)

جمع الآيات وتفسيرها:

إن هذه الآية ناظرة الى فريق من اليهود الذين عاهدوا الله على أن يتبعوا دعوات الأنبياء ويخضعوا لها ، إلا أنهم كلما جاءهم رسول يأمرهم بما يخالف أهواءهم النفسية نهضوا ضده أو قتلوه .

ثم تضيف الآية : إنهم حسبوا أن لا تكون فتنة ولا عذاب ، وهذا ظن باطل نشأ عن حب الدنيا والكبر والغرور ، ظن باطل تدعو اليه الشياطين والاهواء النفسية ، وهذا الظن هو الذي ألقى بحجابه على أفئدتهم وأبصارهم وسمعهم فحال دون أن يعقلوا شيئاً ، فلم تعد ابصارهم تدرك الآثار المتبقية من المصير المؤلم للأقوام السالفة ولم تعد آذانهم تمتلك قدرة سماع قدرة سماع ما يُنقل عنهم ، وبهذا فقدوا هاتين الوسيلتين المهمتين للمعرفة - السمع والبصر - من الناحية العملية وظنوا أنهم في امان من عذاب الله . وقد حصل لهم هذا الظن من خلال السير في الأرض ودراسة التاريخ والأقوام السالفة ، فما سمعوا عن تلك الاقوام بآذانهم ، ولا شاهدوا بأعينهم ، بل ان ابصارهم وآذانهم وأفئدتهم عاطلة عن العمل فحسبوا أن لا عذاب لهم .

إلا أنه بعد انقضاء وطر من الزمن أدركوا خطأهم والتزموا طريق التوبة ، وقد

وسعتهم رحمة الله فقبل توبتهم .

ومرة اخرى خدعتهم ظنونهم الباطلة فظنوا انهم شعب الله المختار في أرضه (بل أبناء الله) ، فأسدلت ستائر العمى والصم والجهل عليهم وطردوا من رحمة الله تارة اخرى .

إن هذه الآية تبين بوضوح ان الظنون الباطلة وخاصة ظن الأمان من عذاب الله يجعل غشاوة على الابصار والسمع ويعطلهما عن العمل .

وعلى هذا ، فالمراد من « فعموا وصموا » هو أن أعينهم ما بصرت آيات الله والآثار الباقية من الاقوام السالفة ، وان آذانهم ما صغت لمواعظ الرسل .
وبديهي ان اتباع الظن الباطل لمرة أو مرات لا يترك هذا المردود السلبي في الانسان ، بل الاستمرار عليه هو السبب في ذلك .

وهناك أقوال في سبب عطف الجملة الثانية على الاولى بـ « ثم » التي تدل على الفاصل الزمني .

فقال البعض : إن استعمالها للإشارة الى مصيرين مختلفين لليهود ، أحدهما عندما هاجمهم أهل بابل ، والثاني عندما هاجمهم الايرانيون والروميون وأسقطوا حكومتهم^(١) ، وقد جاء شرح ذلك في التفسير الأمثل في بداية سورة بني اسرائيل .

وقال البعض : إن الجملة الاولى اشارة الى عهد زكريا ويحيى وعيسى حيث خالفهم اليهود آنذاك ، والعبارة الثانية اشارة الى عهد الرسول ﷺ حيث أنكروا نبوته ورسالته^(٢) .

(١) المنار الجزء ٦ الصفحة ٤٨١ .

(٢) وقد ذكر هذا التفسير كاحتمال في تفسير الفخر الرازي الجزء ١٢ الصفحة ٥١ ، وكذا في روح المعاني الجزء ٦ الصفحة ١٨٤ .

وقال البعض : إن العبارة الاولى تبين ان الله لعنهم وطردهم من رحمته وأعماهم وأصمهم لأجل ظنهم الباطل من أنهم شعب الله المختار ، وقد شملتهم رحمة الله بعد ذلك فتاب عليهم ورفع عن قلوبهم ذلك الظن الباطل ، فأبصرهم وأسمعهم تارة اخرى كي يلتفتوا الى حقيقة وهي : عدم وجود فرق بينهم وبين غيرهم إلا بالتقوى .

إلا أن حالة الوعي واليقظة هذه لم تستمر عندهم ، وتورط بعضهم بنفس الحسبان الخاطيء القائم على اساس التفرقة العرقية تارة اخرى ، فأعماهم وأصمهم الله ثانياً^(١) .

والجمع بين هذه التفاسير ليس بعيداً ، ونتيجتها جميعاً واحدة وهي : إن الظن الباطل (كظن اليهود انهم شعب الله المختار) يمنع الانسان تدريجياً عن الادراك والفهم ويحرفه عن جادة الصواب ، واذا كان هذا الظن في بدايته فيقظة العقل محتملة ، ورجوعه عن هذا الحسبان ممكن ، اما اذا تفاقت الظنون وتأصلت في ذاته فيصبح الرجوع عنها أمراً غير ممكن .



القسم الثالث :

الحجب الخارجية

الحُجُب الخارجية

١٧ - حجاب القادة الضالين والفسدة

تمهيد :

إن الحجب الخارجية هي الحجب التي تكمن وراء أعمال الانسان وصفاته وتؤثر على العقل والادراك وملكة التمييز وتحول دون معرفة الحقائق ، وهي عديدة وتشكل مساحة واسعة ، وقد أشار اليها القرآن بأساليب متعددة وجميلة .

١ - ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَظَلُّونَا

السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿

(الاحزاب / ٦٧ - ٦٨)

٢ - ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ

بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا

مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ

صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿

(سبا / ٣١ - ٣٢)

٣- ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿

(الاعراف / ٣٨)

جمع الآيات وتفسيرها:

شجار اصحاب النار :

إن الآية الاولى تبين حال فريق من الكفار عندما يرون نتيجة أعمالهم عند الله ، فيقولون : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾ ، فما كنا نبتلى بهذا المصير لولا هم ، ثم يقولون : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ (عذاباً لكفرهم وعذاباً لأنهم أضلونا) ﴿ وَالْعَنُوهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ .

فهم لا يريدون سوى تبرير أعمالهم بكلامهم هذا ، صحيح ان رؤسائهم دوراً في انحرافهم ، لكن هذا الأمر لا يسلب عنهم المسؤولية تجاه أعمالهم .
وصحيح أن وسوسة القادة الفسدة والزعماء الضالين والمضلين جعلت حجاباً على عقولهم وأفكارهم فحال دون تفكيرهم الصحيح ، إلا أن مقدمات هذا الأمر هم هيأوها بأنفسهم لأنهم سلموا أنفسهم عشوائياً الى هؤلاء من دون احراز أهليتهم للقيادة .

وهناك خلاف بين المفسرين في الفرق بين ساداتنا وكبرائنا ، أو بالأحرى

هل هناك فرق بينهما أم لا ؟

يعتقد البعض ان « سادتنا » إشارة الى ملوك وسلاطين المدن والدول ، و« كبرائنا » اشارة الى الرؤساء المحليين ، حيث عُدت طاعة السادة مكان طاعة الله ، وطاعة الكبراء مكان طاعة الرسول ، فقدرة وصلاحيه الفريق الأول أكثر من الفريق الثاني ولهذا قُدِّم .

ويعتقد البعض ان السادة اشارة الى الملوك واصحاب القدرة ، والكبراء اشارة الى كبار السن ، ولهذا يتبعهم بعض الناس .

ويعتقد آخرون ان كليهما بمعنى واحد وانهما قد وردا للتأكيد^(١) .

ويبدو أن المعنى الأخير أنسب من جميع المعاني السابقة .

وتجدر الاشارة الى أن « سادة » جمع « سيد » والسيد يعني رئيس السواد (اي الجمع الغفير من الناس ، وقد أُطلق عليه سواداً من باب انه يبدو أسود اللون من بعيد) ثم اطلقت هذه المفردة على كل رجلٍ كبير .



وقد تحدثت الآية الثانية عن الكفار الظالمين الذين اذا ما رأوا نتيجة أعمالهم في الآخرة سعى كلٌّ منهم لإلقاء ذنبه على الآخر ، فيقول حينها المستضعفون (أي المغفلون) للمستكبرين (أي الظلمة وأصحاب السلطة الذين أضلوا الآخرين بأفكارهم الشيطانية) : لولا وساوسكم المغرية والشيطانية لَكُنَّا في صفوف المؤمنين ، لقد غسلتم أدمغتنا ، وأتبعناكم جهلاً ، وجعلتمونا آلة

(١) راجع تفسير روح المعاني الجزء ٢٢ الصفحة ٨٧ والميزان الجزء ١٦ الصفحة ٣٦٩ والفخر الرازي الجزء ٢٥ الصفحة ٢٣٢ .

بأيديكم لتحقيق مآربكم الشيطانية ، وقد فهمنا الآن أننا كنا على خطأ.
 بالطبع لم يخرس المستكبرون عندها ، بل يجيبون : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ
 عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ الرسل بالبينات والحجج الكافية ؟ إنكم مخطئون
 ونحن غير مسؤولين عن ضلالتكم ، ﴿ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ ومذنبين لأنكم تركتم
 ما دعتكم إليه الرسل واتبعتم الأقاويل الباطلة بالرغم من إرادتكم واختياركم .



وقد أشارت الآية الثالثة الى شجار « القادة » و « الأتباع » الضالين في
 جهنم ، فكلما دخلت امة لعنت الاخرى واعتبرتها هي المسؤولة عن شقاءها
 وعذابها في الآخرة ، ويقول الأتباع يومذاك : ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا
 ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴾ عذاباً لأنهم ضالون وعذاباً لأنهم أضلونا وأغرونا .
 فيجيبهم الله : ﴿ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

إن مضاعفة العذاب لقادة الباطل أمر متوقع وليس عجباً ، إلا أن مضاعفة
 العذاب لأتباعهم أمر قد يبدو غريباً للوهلة الاولى ، لكننا إذا دققنا في الأمر نجد
 ضرورة مضاعفة العذاب لهم ، عذاب : لأجل أنهم ضالون ، وعذاب : لأجل
 اعانتهم أئمة الكفر والذود عنهم والقتال دونهم ، كما جاء ذلك في حديث للامام
 الصادق عليه السلام عندما جاءه أحد صحابته معلناً توبته عما قدمه لبني أمية من
 خدمات ، يقول فيه :

(لَوْلَا أَنَّ بَنِي أُمَيَّةَ وَجَدُوا مَنْ يَكْتُبُ لَهُمْ وَيُجِبِي لَهُمُ الْفِيءَ وَيُقَاتِلُ عَنْهُمْ

وَيَشْهَدُ جَمَاعَتَهُمْ لَمَّا سَلَبُونَا حَقَّنَا^(١) .

إيضاحات :

١ - « المستضعفون » و « المستكبرون » في القرآن المجيد :

تحدث القرآن المجيد مرات عديدة عن المستكبرين « والمستضعفين » وهو موضوع مهم وجدير بالانتباه ويمكن ان يشكل احد المباحث المستقلة في التفسير الموضوعي ، الا انه ينبغي هنا الاشارة اليه بصورة عابرة مع بيان الآيات التي وردت في هذا البحث .

يقول الراغب في مفرداته : ان الكبر والتكبر والاستكبار لها معانٍ متقاربة ، ثم يضيف : ان للاستكبار معنيين احدهما : أن يتحرّى الانسان ويطلب ان يصير كبيراً وذلك متى كان على ما يجب وفي المكان الذي يجب وفي الوقت الذي يجب والثاني ان يتشبهه فيظهر من نفسه ما ليس له وهذا هو المذموم وعلى هذا ماورد في في القرآن . وهو ما قال تعالى :

﴿ أَتَبَىٰ وَاسْتَكَبَرَ ﴾ (البقرة / ٣٤) .

ثم يضيف الراغب : قابل المستكبرين بالضعفاء تنبيهاً الى ان استكبارهم كان بما لهم من القوة من البدن والمال^(٢) .

ان الاستضعاف يقابل الاستكبار وهو يعني طلب الضعف وقلة الحيلة ، لكن بما ان هذه المادة غالباً ما تستعمل في القرآن بصفة (فعل مبني للمجهول) او (اسم مفعول) ، فتعني الضعف الذي فرض عليهم من قبل المستكبرين .

(١) البحار الجزء ٧٢ (٧٥) الصفحة ٣٧٥ ، وسفينة البحار الجزء ٢ الصفحة ١٠٧ مادة « ظلمة » .

(٢) مفردات الراغب مادة (كبر) .

وقد استعملت في القرآن بصيغة الفعل المبني للمعلوم كما جاء ذلك في
فرعون الذي استضعف بني اسرائيل :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾

(القصص / ٤)

كما ينبغي ذكر هذه النقطة وهي : ان القرآن استعمل مفردة (مُسْتَضَعَف)
بمعنيين : الاول المظلومون في الارض ، وهم المشمولون بالطفاء الله . كما جاء
ذلك بالنسبة الى مستضعفي بني اسرائيل حيث قال الله فيهم :

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾

(القصص / ٥)

والمعنى الثاني وهو المستعمل غالباً في القرآن المجيد : الضعفاء فكراً
بسبب جهلهم وتقليدهم الاعمى وتعصبهم ، فيتبعون الظلمة والقادة الضالين
عشوائياً . وهؤلاء هم الذين اشارت الآيات المذكورة في اول البحث الى
شجارهم مع المستكبرين في يوم القيامة وصرحت انهم يستحقون العذاب
المضاعف كالمستكبرين : عذاباً لأجل انهم ضالون وعذاباً لأجل انهم ساهموا
في تثبيت اسس حكومة الجبارين .

٢ - دور القادة في الروايات الاسلامية :

لقد جاء في حديث للامام أمير المؤمنين عليه السلام : « الناس بامرائهم أشبه منهم

بآبائهم»^(١).

إن هذا الشبه يمكن أن يكون من حيث ان فريقاً من الناس يتبعون الامراء ويقتدون بهم جهلاً وغفلة ويجعلون قلوبهم ودينهم رهناً لاشارات هؤلاء الامراء وابعازاتهم ، ولهذا اشتهر الحديث « الناس على دين ملوكهم » .

إن هؤلاء الامراء في رأي بعض الناس أبطال وقدوات نموذجية وأسوات حسنة وأرفع شأناً من أن يُنتقدوا ، وقد يقلّد البعض أنفسهم مناصب مقدسة فيغروا ببعض الجهلة والعوام ، ويجعلوا حجاباً أمام أفكارهم وعقولهم .

ومن المتعارف ان هناك فريقاً يعتبر « القدرة » دليلاً على « الحقانية » ، ويعتبر المنتصر هو المحق فرداً كان او جماعة ، وهذا الاسلوب من التفكير جعلهم فريسة للكثير من الاخطاء والانحرافات في حساباتهم الاجتماعية .

إن الملوك والقادة الجبارين أينما دخلوا أفسدوا ، وذلك لاستغلال الضعف والعجز الفكري لدى بعض الناس ، كما جاء ذلك في القرآن على لسان ملكة سبأ : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (النمل / ٣٤) .

وبالرغم من ان هذا الحديث تفوه به ملك ظالم ، إلا ان ذكره في القرآن من دون أي نقدٍ من جهة ، وصدوره من شخصية ظالمة وخبيرة بما عليه الظلمة من أمثالها من جهة أخرى دليل على واقعية هذا الحديث الشبيه بالاعتراف .

ولهذا أرادت ملكة سبأ أن تختبر سليمان هل هو ملك أو نبي حقاً ؟ فأرسلت اليه هدايا كي تعرف ردّ فعله تجاهها ، وذلك لانها تعرف ان أفكار الملوك وقلوبهم رهن الهدايا والذهب والفضة والشأن والمقام ، بينما الأنبياء

(١) البحار الجزء ٧٥ الصفحة ٤٦ ، كتاب الروضة كلمات علي عليه السلام الحديث ٥٧ .

لا يهتمهم شيء سوى صلاح الأمم .

١٨ - حجاب الأصدقاء الضالين

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ
الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ
أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ
خَذُولًا ﴾

(الفرقان / ٢٧ - ٢٩)

جمع الآيات وتفسيرها:

إن هذه الآيات تشرح إحدى لقطات يوم القيامة ، وهي لحظات تأسف
الظالمين وتأثرهم من أعمالهم الى درجة حيث يعضون على أيديهم .
إن « يعض » من مادة « عض » ومعناها واضح ، والتعبير بـ (يعض) في
العربية وكذا في الفارسية كناية عن شدة التأسف والانزعاج ، وقد شوهد أن كثيراً
من الناس إذا ما واجهوا مصيبة عظيمة ناشئة عن سوء عملهم عضوا على أيديهم
أو أصابعهم أو أظهر أكفهم ، وكأنهم يريدون عقاب أيديهم لأجل قيامها بهذا
العمل .

إلا أن المصيبة إذا لم تكن شديدة جداً اكتفوا بعض أناملهم كما قال القرآن

حاكياً حال الكفار في سورة آل عمران الآية (١١٩) : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ ، أو اكتفوا بعض ظهر إحدى اليدين ، أما اذا كانت المصيبة شديدة جداً فتارة يعضّون أيديهم اليسرى واخرى أيديهم اليمنى ، والذي جاء في الآية الكريمة هو « يَدَيْهِ » وهذا يكشف عن ان المصيبة عظيمة للغاية يوم القيامة ، وغالباً ما يقترن العض بالتفوه بجمل وأقاويل مفهومها التوبيخ للنفس ، ويتحد حينها الكلام مع السلوك في ابراز التعصب .

ويقولون عندها : ﴿ لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ إلا ان هذا الخليل ما سمح لهم باليقظة .

وعلى هذا ، فهم يعدّون الخليل الضال هو السبب الاساسي لشقاءهم ، حيث جعل حجاباً أمام أفكارهم وعقولهم حال دون رؤيتهم لجمال الحق . وهنا أقوال في المراد من « فلان » :

احتمل البعض انه الشيطان ، حيث ينتخبه الانسان - أحياناً خليلاً ، وذلك بقرينة قوله في ذيل الآية : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ .

ويقول البعض : إن المراد منه هو نفس الشخص الذي نزلت في شأنه الآية ، أي « عقبة » وهو أحد الكفار المعروفين ، أسلمَ وارتد عن الاسلام وتخلّى عن الرسول لأجل خليله « أبي » ، وقتل في معركة بدر ، بينما قُتل أبي في معركة أحد^(١) .

لكن الظاهر أن مفهوم الآية - كما يقول البعض - كلّي شامل لجميع الأصدقاء الضالين والموسوسين ، وإنّ شأن النزول لا يُخصّص الآية ابداً ،

(١) تفسير مجمع البيان (ذيل نفس الآية) ويقول البعض : إن « أبي » الانسان الوحيد الذي قتله الرسول بيده طيلة عمره الشريف (تفسير روح البيان الجزء ٦ الصفحة ٢٠٥) .

خصوصاً وان لمفردة « الشيطان » معنى واسعاً يشمل شياطين الجن والانس ،
 كما ان ذكر كلمة « فلان » وبصيغة النكرة قرينة واضحة على اطلاق المفهوم^(١) .
 وقد قيل في تفسير « شركاء المشركين » الذين ذكروا في الآية (١٣٧) من
 سورة الانعام : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ
 لِيُزِدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ ، انهم المتولون لمعابد الأصنام ، حيث كانوا
 يغوون الناس ويغرونهم لتضحية أولادهم للأصنام ، وبهذا التبس عليهم الحق ،
 وألقي حجاب على عقولهم وأفكارهم .
 وعلى هذا التفسير ، فإن الآية تُعدُّ شاهداً واضحاً على بحثنا أي ان
 الأصدقاء المضلين يشكلون حجاباً للعقل يمنعه عن المعرفة .



إيضاحات :

دور الأصدقاء في طريقة التفكير :

يشاهد في الروايات الاسلامية تعابير كثيرة في هذا المجال ، تكشف عن
 ان الاصدقاء المنحرفين والمستشارين الضالين يمكنهم سرقة فكر الانسان
 وتغيير موازين عقله وإغلاق طريق الحق عليه ، ونذكر هنا نماذج من تلك
 الروايات :

١ - نصح الامام علي عليه السلام ابنه الحسن يوماً قائلاً له :

« يا بُني إياك ومصادقة الأحمق فانه يريد أن ينفعك فيضرك ... وإياك

(١) تفسير في ظلال القرآن الجزء ٦ الصفحة ١٥٦ .

ومصادقة الكذاب فانه كالسراب يُقَرَّبُ عليك البعيد ويُبْعَدُ عليك القريب»^(١).

٢ - وقد جاء في عهد الامام علي عليه السلام لمالك الاشر حول المستشارين :

« ولا تُدْخِلْنِي فِي مَشُورَتِكَ بِخِيَلَا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ وَيَعِدُّكَ الْفَقْرَ

وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ وَلَا حَرِيصًا يَزِينُ لَكَ الشَّرَّ بِالْجَوْرِ »^(٢).

ويستفاد من التعبير الاخير ان المستشارين المنحرفين يمكنهم التأثير في

فكر الانسان ويحولون دون الادراك والمعرفة .

٣ - وقد جاء في حديث آخر لنفس الامام :

« مَجَالِسَةُ الْأَشْرَارِ تُورَثُ سُوءَ الظَّنِّ بِالْأَخْيَارِ »^(٣).

٤ - وقد جاء في حديث للرسول الأكرم ﷺ :

« الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ وَقَرِينِهِ »^(٤).

وبهذا يتضح تأثير الصديق الصالح أو غير الصالح على كيفية المعرفة

واسلوب التفكير .



١٩ - حجاب الاعلام والمحيط

في البداية نصغي خاشعين للآيات التالية :

١ - ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ فَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ...

(١) نهج البلاغة (الكلمات القصار) الجملة ٣٨ .

(٢) نهج البلاغة الرسالة ٥٣ .

(٣) سفينة البحار الجزء ١ الصفحة ١٦٨ .

(٤) اصول الكافي الجزء ٢ الصفحة ٣٧٥ « باب مجالسة أهل المعاصي » الحديث ٣ .

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى
فَنَسِيَ ﴿

(طه / ٨٥ - ٨٨)

٢ - ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿

(القصص / ٧٩)

٣ - ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ
عَظِيمٍ ﴿

(الاعراف / ١١٦)

٤ - ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى
الَّذِينَ آمَنُوا وَجِهَ النَّهَارِ وَاکْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿

(آل عمران / ٧٢)

٥ - ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا
أُلْقِيَ عَلَيْهِ أُسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ *
فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿

(الزخرف / ٥٢ - ٥٤)

جمع الآيات وتفسيرها:

الأعلام المسموم :

إن الآية الاولى أشارت الى قصة السامري طالب الشأن والمقام ، الذي

استغل غيبة موسى ﷺ اثناء ذهابه الى طور سيناء (للقاء ربه) لمدة اربعين يوماً ، فجمع ذهب وحلي بني اسرائيل وصنع منها صنماً في صورة عجل ! ويظهر انه وضعه باتجاه الريح بحيث يُخرج صوتاً يشبه رُغاء البقرة عند هبوب الرياح ، وقد عبر القرآن عن هذا الصوت بـ « خوار » أي صوت البقرة البطيء .

إنه انتهز الفرصة بأسلوب خاص ، حيث قام بعمله هذا بعد مضي خمس وثلاثين يوماً من غيبة موسى ، أي عندما أخذت أنوار التبليغ التوحيدي تتضاءل في قلوب بني اسرائيل ، حيث كان المفروض أن يرجع موسى من طور سيناء بعد ثلاثين يوماً ، إلا ان الله أخر ميعاده لامتحان بني اسرائيل فاتهم أربعين يوماً .

يقول القرآن في هذا المجال : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ فَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ .

وعلى أي حال فان انحراف بني اسرائيل (الذين ينقل ان عددهم بلغ الستمائة ألف) عن طريق التوحيد الخالص الى الشرك والكفر وعبادة الأصنام ليس بالأمر الهين ، إن الآيات التي جاءت في هذا المجال في سورة « طه » وغيرها من السور وكذا التواريخ والتفاسير تكشف عن أن السامري كان يستعين بأسلوب خاص من الاعلام والتبليغ لسرقة أفكار الناس وغسل أدمغتهم ، بحيث جعل حجاباً على عقولهم ، فظنوا (بسبب ذلك الحجاب) ان هذا العجل هو إله موسى ؟ !

والعجيب هنا أن الأمر بلغ ببني اسرائيل الى حَدٍّ حيث ردّدوا ما قاله السامري : « هذا إله موسى » ، والتعبير بـ « قالوا » شاهدٌ على هذا .

والتعبير الأخير دليل واضح على تأثير إعلام السامري الشديد ، إنه كان يستثمر إعلامه في الجهات التالية :

- ١ - انتهاز فرصة غيبة موسى .
- ٢ - تمديد غيبته الى أربعين يوماً .
- ٣ - الاستعانة بالذهب والحلي التي كانت ثمينة بالنسبة لبني اسرائيل .
- ٤ - استثمار الأرضية المساعدة والمنحرفة مثل طلبهم من موسى جعل صنم إلهاً عندما نجوا من الفرق في النيل ، ومرو يقوم يعبدون الأصنام : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ (الاعراف / ١٣٨) .
- ٥ - مكانته الاجتماعية عند بني اسرائيل واعتمادهم عليه الى حدٍ حيث كانوا يولون له قدسية خاصة ويعدونه ريب جبرئيل^(١) !
- ٦ - حب ضعفاء الفكر لأله محسوس ، وعدم التفاتهم الى أن الله بعيد عن التجسيم والصفات الجسمانية ، حيث بلغ بهم الأمر أن طلبوا من موسى رؤية الله جهرة كما عكس القرآن ذلك في الآية الخامسة والخمسين من سورة البقرة .
- إن هذه الامور واموراً اخرى سببت انحراف بني اسرائيل عن جادة التوحيد بالكامل ، واغوائهم بتبليغ السامري واعلامه وفي النهاية عبادتهم للأصنام .
- ولهذا ، عندما رجع موسى وعلم بهم ، وبين القبح الشديد لعملهم هذا ، استيقظوا من غفوتهم وصرخوا قائلين : ندمنا ! ندمنا ! واستعدوا لأجل قبول توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً كفارة لذنبهم العظيم (البقرة / ٥٤) .
- وعلى أي حال ، فان الآية دليل واضح على حجاب الاعلام المضلل .



(١) تفسير أبو الفتوح الرازي الجزء ٧ الصفحة ٤٨٢ ، وتفسير روح البيان الجزء ٥ الصفحة ٤١٤ ، ودائرة المعارف - دهخدا - مادة « ساري » ، (بالفارسية) .

وتحدثت الآية الثانية عن « قارون » الغني والمعروف في بني اسرائيل الذي قام يوماً باستعراض ثروته أمام بني اسرائيل .

لقد نُقِلَ في التواريخ قصص كثيرة في هذا المجال ، فكتب بعض في هذا المجال : ظهر قارون مع فريق يُعدّ بأربعة آلاف رجل وامرأة من الخدم والحشم والجاريات ، فالرجال على خيول أصيلة ، بألبسة حمراء ، والجاريات على بغال بيض سروجها من ذهب ، والجميع مزينون بالحلي والحلي والذهب والمجوهرات^(١) .

وقد قدر البعض عدد أفراد قارون بسبعين ألف ، وإذا لم نعتبر هذه الأرقام واقعية ، فان تعبير القرآن : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ يكشف عن عظمة تلك اللقطة ، وقد يكون عمله هذا لأجل جعل شوكة في عين موسى عليه السلام ، أو تثبيتاً لقدرته في بني اسرائيل ، أو انه جنون عرض القدرة والثروة الذي يُبتلى به كثير من المتمولين والاغنياء ، وعلى أي حال ، فان تلك اللقطات والاعلام المتزامن معها كان بدرجة من العظمة سلبت عقول الكثير من بني اسرائيل وَأَلْقَتْ بَسْتَارَ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ حَتَّى جَعَلْتَهُمْ يَتَمَنُّونَ اقْتِنَاءَ ثَرَوَتِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَيَعْدُونَهُ سَعِيداً وَ « ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ » .

وبعد ما جاء ذلك اليوم الذي خسف الله الارض بقارون وثروته بسبب جرائمه وأعماله المشينة ، وعلم الجميع بما حَلَّ بِهِ استيقظوا من غفلتهم وأبدوا سرورهم من حيث أنهم لم يكونوا قاروناً .

إن تأثير الاعلام لا ينحصر في ذلك الزمان فحسب ، بل في كل عصر - وهذا أمر لا يُنكر ، وان كثيراً من جبابرة الماضي والحاضر يستعينون

(١) راجع تفسير الرازي والقرطبي وروح المعاني ذيل الآيات في سورة القصص .

باستعراضات كاستعراض قارون لأجل تخدير أفكار الناس ، وتسخيفها ، وسحر أعينهم ، وقد جَنَوْا ثمار مثل هذه الاستعراضات ولا يزالون ، وإنَّ العلماء والمفكرين الراسخين هم فقط القادرون على رفع هذه الحجب عن أفكارهم وأفكار غيرهم ، وعلى مشاهدة وجوه الجبابة على حقيقتها .



وقد بينت الآية الثالثة جانباً من جوانب مقارعة موسى ضد السحرة ، الذين دعاهم فرعون من جميع أرجاء مصر واغراهم بالكثير من الوعود ، والذين يقدر عددهم بعشرات الآلاف من السحرة طبقاً لبعض الروايات ، وبخمس عشرة ساحراً طبقاً لبعض آخر (يحتمل ان يكون هذا العدد متعلقاً بنفس السحرة وأعوانهم وعمالهم ، كما ينبغي الالتفات الى ان السحر كان دارجاً في ذلك العصر بكثرة) .

وقد اجتمع لأجل ذلك جمعٌ غفير من الناس عند الضحى في يوم كان عندهم عيداً (كما عبّر عنه القرآن «يوم الزينة» و «ضحى» في الآية (٥٩) من سورة طه . وقد كشفت القرائن عن ان فرعون كان واثقاً من انتصار السحرة على موسى ﷺ ، وذلك لانه كان قد سخر جميع وسائل الاعلام لخدمة هذه القضية . تقول الآية : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَابُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾ .

وينبغي هنا معرفة مفردتي « الاسترهاب » و « السحر » جيداً لفهم الآية . جاء « السحر » - لغة - بمعنيين ، الاول هو الخدعة ، والثاني هو الشيء الذي غمضت عوامله وكانت غير مرئية ، وقد أرجع البعض كلا المعنيين . الى

معنى واحد وقالوا : إن حقيقة السحر هي قلب الشيء من حقيقته الى شكل آخر^(١).

كما قلنا في المجلد الاول من التفسير الأمثل عند تفسير الآية (١٠٢) من سورة البقرة : ان السحر غالباً ما يعتمد على الخواص الكيماوية والفيزيائية للمواد التي لم يعرفها الناس إلا ان السحرة يعرفونها جيداً وقد اعتمدوا عليها كلياً ، كما انه جاء في التفاسير حول قصة مقارعة موسى ﷺ للسحرة ، اذ يحتمل ان ما جاء به السحرة هو مجموعة من العصي والحبال الجلدية الجوفاء والمليئة بمادة الزئبق الفَرَّار ، وبما ان الحركة و التمدد الشديد من خواصه عند ارتفاع درجة حرارته ، فعندما ألقوا هذه العصي والحبال بدأت بالحركة والقفز والتقلص والانبساط بفعل حرارة الشمس أو الحرارة المنبعثة من المكان الذي يحتمل وجود مصدر حرارتي تحته^(٢).

وقد يستعين السحرة في عروضهم - أحياناً - بالشعوذة وخفة اليد ، فيرى الناس أشياء لا واقع لها ، وقد شاهد كثير من الناس نماذج من هذه العروض ، وقد ينشرون مواد كيميائية خاصة عن طريق العطور وتبخير اعشاب معينة بحيث تؤثر على الحاسة الباصرة وأسماع بل وحتى على اعصاب الحضور لتمثيل صور غير واقعية أمامهم .

كما يحتمل انهم يستعينون بالتنويم المغناطيسي والتلقين بحيث تتمثل صور غير واقعية امام الناس .

بالطبع هناك قسم آخر من السحر يحتمل استعانة السحرة به وهو تسخير

(١) راجع قاموس اللغة ، ومفردات الراغب ، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم ، وتاج العروس .

(٢) راجع روح المعاني الجزء ٩ الصفحة ٢٢ ، والفخر الرازي ١٤ الصفحة ٢٠٣ ، وروح البيان الجزء ٣ الصفحة ٢١٣ ، والمنار الجزء ٩ الصفحة ٦٦ ، وتفسير اخرى .

الجن أو بعض الأرواح (وهذه خمسة طرق رئيسية للسحر) .

وقد يطلق السحر على معنى أوسع من المعاني السابقة ، فيقال لمن حسن بيانه « له بيان ساحر » كما جاء في الحديث : إن الفتنة سحر ، لأنها تفرق بين الاحبة ، إلا أن الذي جاء في الآية هو « سحرُوا أعين الناس » وهو التلاعب بباصرة الحضور بحيث يجعلهم يرون اموراً لا واقع لها ، فيرون حية تسعى وإن لم يكن هناك حية أبداً . والشاهد على هذا الحديث هو الآية (٦٦) من سورة طه حيث جاء فيها : ﴿ فَإِذَا جَبَّالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (مع انها لا تسعى ولا تتحرك لكن الزئبق - احتمالاً - هو الذي جعلها تبدو هكذا) .
واما « استرهبوا » فمن مادة « رَهَب » وهو الخوف المتزامن مع التحفظ والاضطراب (كما يقول الراغب في مفرداته) وقد فسر كثير من المفسرين الاسترهاب بالإرهاب أي ايجاد الخوف والاضطراب ، والتعبير هذا يكشف بوضوح عن استعانتهم بوسائل الاعلام والتلقين اضافة الى السحر (وغالباً ما يستعين السحرة بهذين الأمرين ، بل القسم الأعظم من موفقيتهم يرجع اليهما وإلى حسن القيام بهما) .

وقد نقل ان مساحة المحل الذي عُدَّ لهذا الامر كان ميلاً في ميل^(١) ، كما نقل أيضاً انهم أعدوا جبلاً من الحبال والعصي التي تبدو وكأنها أفاعي تسعى^(٢) .
ثم خاطب السحرة الناس بأقاويل مثل : أيها الناس ابتعدوا عن الساحة لكي لاتمسكم الأفاعي بضرر لأنها خطيرة ومخيفة ! وامثال هذه التعبيرات التي أُشير اليها في بعض التفاسير^(٣) ، وقد تأثر بهم الناس كثيراً لأنهم سحرُوا أعينهم

(١) روح المعاني الجزء ٩ الصفحة ٢٢ .

(٢) المنار ، وقد نقل هذا الحديث عن مفسر باسم ابن اسحاق الجزء ٩ الصفحة ٦٦ .

(٣) الفخر الرازي الجزء ١٤ الصفحة ٢٠٣ .

وقلوبهم ، وبهذا ألقوا بحجبهم على حواس الناس وعلى عقولهم للحيلولة دون إدراك الحقائق والواقعات .

لقد كشفت الآية الرابعة عن إحدى المؤامرات الاعلامية التي حاكها اليهود ضد الاسلام ، والتي كان هدفها تضعيف عقيدة المسلمين بالاسلام ، وقصتها : ان فريقاً منهم أسلموا وآمنوا ظاهراً في النهار وارتدوا عن الاسلام في الليل ، وعندما سئلوا عن سبب رجوعهم عن الاسلام قالوا : إنا لاحظنا صفات محمد ﷺ من قريب فوجدناها لا تتطابق مع كتبنا الدينية وأحاديث علمائنا فرجعنا عنه .

إن هذه الحملة الاعلامية سببت في ارتداد قوم من المسلمين عن الاسلام ، إذ قالوا : إذا ارتدَّ عن الاسلام أهل الكتاب الذين هم أفهم منا ويعرفون القراءة والكتابة ، فلا بدَّ وأن الدين باطل ولا أسس قوية له ، وبهذا استطاعوا أن يشوشوا على أفكار البسطاء من الناس ويلقوا بحجاب فتنهم على عقولهم .

إن مفردة « طائفة » في عبارة « وقالت طائفة » من مادة « طواف » وتعني فريقاً من الناس بشكل حلقة ، وكأنهم يطوفون حول موضوع ما ، والمراد منها على ما يقول بعض المفسرين : هو الاثنا عشر يهودياً من يهود خيبر أو المدينة أو نجران ، حيث تألموا كثيراً عند تغير القبلة من بيت المقدس الى الكعبة ، فحاكوا هذه المؤامرة^(١) .

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ٨ الصفحة ٨٥ ، وروح المعاني الجزء ٣ الصفحة ١٧٦ ، وتفسير القرطبي الجزء ٢ الصفحة ١٣٥٤ .

إن التعبير بـ « وجه النهار » إشارة إلى بداية النهار لان الوجه أول شيء يواجهه الانسان ، وهو أشرف عضو ، بالطبع إن الآية حكمت المسألة كاقترح اقترحه البعض وما تكلمت عن تنفيذ هذا الاقتراح ، إلا أن القرائن أثبتت أنهم نفذوا مؤامرتهم بعدما حاكوها ، وإلا فيُستبعد ان يذكره القرآن باهتمام بالغ ، والآيات اللاحقة تحكي عن هذه الأهمية .

لكننا نعلم على أي حال ، انّ خطتهم الاعلامية هذه لم تترك أثراً ملحوظاً في قلوب المؤمنين الطاهرين .



إن الآية الخامسة والاخيرة بينت كذلك جانباً من جوانب مقارعة موسى عليه السلام لفرعون ، فعندما اتجهت الانظار الى موسى وكادت القلوب أن تهتدي والأفكار أن تُصحح ، قام فرعون بحملة اعلامية شديدة سعيّاً منه لحرف الناس عن اتجاههم نحو دين موسى ، وقد انعكس في هذه الآية جانب من جوانب الاعلام الفرعوني المضلل .

اعتمد اعلامه في البداية على ذكر شرفه العائلي ونسبه ، وقال : « أنا خير من هذا المهين مشيراً الى موسى » (أي أعلى من هذا الذي ينتسب الى طبقة الرعاة من بني اسرائيل) .

كما انه « لا يكاد يبين » أي أنا أوضح منه كلاماً .

وفضلاً عن ذلك « فلولوا القي عليه اسورة من ذهب » أي لِمَ لم يكن له سوار من ذهب الذي كان يُعد علامة وبيان لشخصية صاحبه .

ثم انه اذا كان صادقاً لِمَ لم يأت بملائكة معه كي تكون شهوداً على

صدق كلامه ؟

وبهذه الحجج الاربعة ادعى بطلان نبوة موسى عليه السلام .

يقول القرآن في هذا المجال : ﴿ اسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ .

إن « استخف » من مادة « خفيف » والمراد منه هنا هو ان فرعون سعى لأن يستخف عقول قومه ، جاء في تفسير مجمع البيان : ان فرعون استخف عقول قومه فأطاعوه فيما دعاهم إليه لأنه احتج عليهم بما ليس بدليل وهو قوله : أليس لي ملك مصر .. الخ ^(١) (واستخفاف الطفلة للجماهير ألله لا غرابة فيه ؛ فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة ، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ولا يعودون يبحثون عنها ؛ ويلقون في روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة . ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك ، ويلين قيادتهم ، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين) ^(٢) . والجدير بالذكر ان القرآن يقول في نهاية الآية : انهم أطاعوه واستسلموا لأعلامه ، وذلك لأنهم مذنبون وفاسقون ، وهو يشير بذلك الى أن المؤمن الهادف والواعي لا يكون عرضة لظاهرة غسل الأدمغة ، بل الفسق والذنوب هي التي تهيب الأرضية لتقبل إعلام باطل كهذا .

وبتعبير آخر : فان « النفس الامارة » من الداخل ، و « الوسواس الشيطانية » من الخارج يتعاضدان فيكتمان المعرفة عن الانسان .

(١) تفسير مجمع البيان المجلد ٩ ، الصفحة ٥١ .

(٢) في ظلال القرآن المجلد ٧ ، الصفحة ٣٤٠ .

ايضاحات :

الجوانب المتعددة للأعلام المضلل :

إن هذه القضية في عصرنا الحاضر أوضح من أن تبحث أو تُناقش ، كما انها لم تخف على الناس في العهود الغابرة.

إن الجبابرة الذين أرادوا فرض حكومتهم على الناس ، توسلوا بوسائل إعلامية مختلفة لغسل أدمغة الناس ، بدءاً بالمكاتيب القديمة وانتهاءً بالمحارب والمنابر ، وأخذاً برواة القصص والأساطير في المقاهي ، وانتهاءً بالكتب العلمية .

والخلاصة : إنهم استعانوا بجميع الوسائل المظلة للوصول الى مآربهم ، من تحريف التاريخ ، وأشعار الشعراء ، وثناء المداحين ، ومراكز التقديس والاحترام عند الناس ، واختلاق الاساطير والكرامات والقيم غير الواقعية ، وغيرها من الوسائل ، فانهم يستطيعون بوسائل الاعلام هذه ان يصوروا الشيطان ملكاً أو انساناً محترماً ، وذلك كله للوصول الى مآربهم .

وقد جاء في بعض التواريخ الاسلامية المعروفة أن طاعة اهل الشام لمعاوية بلغت درجة عجيبة ، وننقل هنا عبارة المسعودي في هذا المجال :
« لقد بلغ من أمرهم في إطاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الأربعاء »^(١) .

والقصة التالية قصة معروفة (وَلَوْ لَمْ تَكُن مَرْوِيَّةً فِي كِتَابِ التَّارِيخِ لَكَانَ قَبُولُهَا صَعْبًا) ، حيث ان رجلاً من أهل الكوفة قدم دمشق راكباً جملأ في وقت

(١) مروج الذهب الجزء ٢ الصفحة ٧٢ طبعة مصر ١٣٤٦ .

كان أهل الشام يرجعون من صفين ، فرآه رجل دمشقي فقال له : إن هذه الناقة لي وأنت أخذتها مني في صفين ، فتنازعا فاشتكى الشامي عند معاوية (وكأنها اتخذت صبغة سياسية) وجاء بخمسين شاهداً على أن هذه الناقة له ، فقضى له معاوية على أساس الشهود .

فصرخ الكوفي قائلاً لمعاوية : إن هذا جمل وليس ناقة (انشئ الجمل) ، وطلب منه أن يلاحظها بنفسه ، فأدرك معاوية صدق الكوفي فيما يقوله ، لكن رغم ذلك قال له : إنه حكم صدر وانقضى ، وبعدما تفرق الناس أرسل معاوية رجلاً إلى الكوفي ، فأتاه وأعطاه ضعف قيمة جملة ، وقال له : « ابلغ علياً أنني أقابله بمائة ألف ما فيهم من يُفرق بين الناقة والجمل »^(١) .

وخلاصة القول : إن في التاريخ شواهد ونماذج كثيرة تكشف عن كيفية إغواء الطغاة والساسة لأمم عظيمة وغسل أدمغتهم بحيث ضلوا خياراً في متاهات الدروب ، وابتلوا بمصائب كثيرة ، وعند استتباب الاوضاع ورجوعها إلى حالتها الطبيعية ، وعند سقوط الجبار المضل ، وارتفاع حجب الاعلام ، يستيقظ بعض الناس وينتبهوا لماضيهم فيتأسفوا ويندموا كثيراً .

وفي العصر الحاضر اكتسب الاعلام قدرة عظيمة بدرجة أن في بعض الدول المتقدمة - اصطلاحاً - تأخذ وسائل الاعلام بأيدي الشخصيات العلمية والمفكرين الواعين نسبياً إلى صناديق الاقتراع ليصوتوا للشخصيات التي تدعو إليها وسائل الاعلام تلك ، وقد يتصور انهم احرار على الاطلاق ، بينما لا خيار لهم من جراء وسائل الاعلام تلك .

إن اتساع وسائل الاعلام المسموعة والمرئية واستعانتها بفنون علم النفس

(١) مروج الذهب الجزء ٢ الصفحة ٧٢ ، الامام علي صوت العدالة الانسانية الجزء ٤ الصفحة ٩٥٦ .

يزيد في تأثير الاعلام على النفوس بدرجة يحار فيها الخارجون عن دائرة الاعلام والتمكّنون من متابعة الامور من دون رأي مسبق فيها .

إن هذا الأمر لم ينحصر في الامور السياسية فحسب ، بل في الامور الاقتصادية كذلك ، فان وسائل الاعلام يمكنها بحملة إعلامية أن تسوق المجتمع نحو استهلاك سلعة قد تكون اعتباطية أو مضرّة أحياناً ، وبهذا يفرض على المجتمع اقتصاداً سقيم .

إن الاستعانة بعناوين وقيم كاذبة مثل الاستعانة بعنوان « موديل » أحد أوسع وأعقد الطرق للوصول الى هذه الأهداف غير المشروعة .

كما انه يستعان بالاعلام الثقافي الغامض لفرض المذاهب الفكرية المختلفة على الشعوب ، فتارة يفرض مذهب باطل وعارٍ عن الاسس المنطقية ، وكأنه مذهب فلسفي منطقي انساني .

وعلى أي حال ، فمما لا شك فيه انه ينبغي رفع هذه الحجب عن المجتمع وتصحيح اتجاه المعرفة فيه ، كما ينبغي عدم ترك وسائل الاعلام أن تفكر وتقرر بدلاً عن المجتمع ، بل يحدد عملها في توعية الناس ، وتهيئة الأرضية لهم لاتخاذ القرارات الصحيحة .

ينبغي ان لا يكون هدف وسائل الاعلام الجماعية هو وضع الحجب على عقول الناس والتعتيم عليهم ، بل ينبغي ان يكون الهدف هو رفع حجب التعصب والجهل والغفلة والتقليد العشوائي عن العقول ، وهذا هو البرنامج الراقى لوسائل الاعلام في مجتمع رشيد ونموذجي ، والمؤسف في عصرنا الحاضر هو قلة مثل هذه المجتمعات .

إن النقص في وسائل الاعلام هو انها بيد الساسة ، والأسوء من ذلك انها بيد العمالقة الاقتصاديين الذين يوجهون الناس أين ما شاءوا .

٢٠ - حجاب وساوس الشياطين

في البداية نصغي خاشعين للآيات التالية :

١ - ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(الانعام / ٤٣) .

٢ - ﴿ وَجَدْتُهُا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾

(النمل / ٤٢) .

٣ - ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾

(العنكبوت / ٣٨) .

٤ - ﴿ وَمَنْ يَغْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾

(الزخرف / ٣٦ - ٣٧) .

٥ - ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْأَنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(الانعام / ١١٢) .

٦ - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾

(محمد / ٢٥) .

٧- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾

(فاطر / ٥) .



شرح المفردات :

إن « الشيطان » خلافاً لما يظنّ البعض - ليس اسماً خاصاً بابليس وعلماً له ، بل له مفهوم عام ، وعلى ما يُصطلح عليه فهو « اسم جنس » يشمل كل موجود متمرد وباغ ومخرّب ، سواء كان من الجن أو الانس أو شيئاً آخر .

وهناك قولان في اصل هذه المفردة :

القول الاول هو القائل بأنه من مفردة « شَطُون » أي البُعد ، ولهذا قيل للبئر العميق والبعيد قعره عن متناول الأيدي « شَطُون » ، ويقول « خليل بن أحمد » : إن شَطَنَ تعني الحبل الطويل ، وبما أن الشيطان بعيد عن الحق وعن رحمة الله استعملت هذه المفردة فيه .

والقول الثاني هو القائل بأنه من مادة « شَيْط » ويعني الالتهاب والاحتراق غضباً ، وبما ان الشيطان خلق من نار واشتعل غضباً عندما أمر بالسجود الى آدم ﷺ أطلقت هذه المفردة عليه وعلى الموجودات الاخرى من أمثاله^(١) .

« الغرور » من مادة « غُرور » أي الخدعة والحيلة والغفلة عند اليقظة ، وقد اطلقت هذه المفردة على الشيطان لأنه يغرّ الناس بخدعِهِ وحِيلِهِ ويخرجهم عن

(١) التحقيق في كلمات القرآن الحكيم - مفردات الراغب - لسان العرب ومجمع البحرين (مادة شيطان) .

الطريق الصواب ، ويغير رؤيتهم للحق والباطل .

« الغرور » كل شيء يغرّ ويخدع ، وهو أعمّ من المال والمقام والشهوة والشيطان ، وإذا فسّر أحياناً بالشيطان فقط فذلك لأنه أخبت الخادعين والماكرين .

أما « التسويل » فمن مادة « سُؤْل » وفي الأصل يعني الحاجة والامنية التي ترغب النفس فيها ، والتسويل يعني تزيين الشيء بشكل حيث تشتاق إليه النفس ، كما جاء بمعنى تزيين الاشياء القبيحة .

هذا التفسير ذكره الراغب في مفرداته ، إلا أنه يستفاد من صحاح اللغة وكتاب العين ، أن معناها في الأصل هو الاسترخاء المتزامن مع الغرور والغفلة ، ولهذا اطلقت هذه المفردة على تزيين الامور غير السائغة واظهار عكس ما هي عليه وبشكل سائغ ، بحيث يُخدع الانسان من جرائها ويسترخي . وعلى أي حال ، فان المراد من تسويلات الشيطان في الايات هو إظهار القبح حسناً بشكل يخدع الانسان ويحرفه .



جمع الآيات وتفسيرها:

كيف يُزَيّن الباطل ؟ وكيف تُسحر العيون ؟

تحدثت الآية الاولى عن فريق من الأقوام السالفة الذين أرسل إليهم رسل ليؤمنوا ويسلموا أنفسهم للحق ، إلا أنهم اعرضوا عن ذلك ، فأنزل الله عليهم بأسه ، فابتلاهم بمختلف المشاكل والمصائب والحوادث الصعبة ، والفقر والمرض والقحط وغير ذلك ، كي يوقظهم من غفلتهم ، ولكي يخضعوا للحق ،

إلا أنهم اتخذوا السبيل المنحرف بدل سبيل الرشاد والرجوع الى الحق والتوبة .
يقول القرآن في هذا المجال : لماذا لم يتضرعوا بالرغم من مجيء بأسنا
لهم ؟ ثم يعد أسباب هذا الامر ويقول : الاول هو ﴿ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فما كادت
تخضع للحق .

والثاني هو : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، بحيث أصبحوا
يرون المعاصي صواباً والقبح جمالاً ، وقد نفذ الشيطان هنا من طريق عبادة
الهوى .

وبتعبير آخر : لم تؤثر فيهم لا مواعظ الانبياء اللفظية ، ولا مواعظ الله
العملية والتكوينية ، وعامل هذا الحجاب هو قسوة القلوب من جهة ، ومن جهة
اخرى تزيين الشيطان لهم ، بحيث سلب منهم روح التضرع والخضوع .

هناك بحث بين المفسرين في المراد من « تزيين الشيطان » ، فيقول
البعض : انه الوسواس الشيطانية التي تبدو المحاسن فيها قبائحاً والقبائح فيها
محاسناً ، أو العوامل الخارجية التي تزين للانسان سوء أعماله ، كما تجعل المواد
السامة في غلاف مُغرٍ وجميل ، وكما يُدعى للانحرافات الكبيرة تحت غطاء
التمدن والافكار النيرة والحررة .

وتحدثت الآية الثانية عن هدهد سليمان عندما قدم من رحلته الى بلاد
الملكة سبأ ، فبعد حكايته لقصة سبأ وحضارة بلادها العظيمة قال : ﴿ وَجَدْتُهَا
وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ ﴾ .

إن هذه الآية تكشف عن ان الهدهد بالرغم من محدودية عقله وذهنيته
الخاصة به وبعالمه يدرك بالاجمال حجب المعرفة ، ويعرف ان الشيطان يجعل
ستاراً على فكر الانسان يحول دون تمكنه من إدراك الحقائق ويغلق أبواب

المعرفة عنه ويحول دون وصول الانسان الى مراده المنشود .
وقد بحثنا امكانية اطلاع الحيوانات على عالم الانسان ، كما بحثنا مدى معرفتها لهذا العالم في تفسير الأمثل الجزء (١٥) ذيل الآية (١٨) من سورة النمل ، وفي الجزء (٥) ذيل الآية (٣٨) من سورة الأنعام .
كما تحدثنا في الجزء (١٩) ذيل الآية نفسها عن كيفية طي الهدهد المسافة الطويلة بين الشام واليمن ووصوله الى بلاد سبأ .



وقد تحدثت الآية الثالثة عن قوم عاد وثمود وطغيانهم وعصيانهم ثم هلاكهم ، كما عرضت على عرب الحجاز مدنهم الخربة التي يمرون بها عند رحلاتهم الى الشام واليمن كعبرة لهم ، ثم أشارت الى السبب الأساسي في إهلاكهم وهو تزيين الشيطان لأعمالهم بحيث ما كادوا يبصرون شيئاً ولا يعقلون رغم امتلاكهم للابصار والعقول ، وقد قالت الآية : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ .

إن عبارة ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ - كما يقول كثير من المفسرين - تعني غفلتهم وعدم تدبرهم في الحقائق بالرغم من امتلاكهم للعقول والحواس واقتدارهم على الاستدلال والتمييز بين الحق والباطل^(١) .

وقد جاء في تفسير الميزان : إنهم كانوا يعرفون طريق الحق بفطرتهم إلا أن

(١) مجمع البيان الجزء ٧ الصفحة ٢٨٣ ، روح البيان الجزء ٦ الصفحة ٤٦٨ ، كما نقل هذا عن بعض المفسرين في تفسير القرطبي .

الشیطان زینٌ لهم أعمالهم فمنعهم عنه^(١) .

ويقول البعض : إن المراد من العبارة هو معرفتهم للحق بواسطة دعوة الأنبياء وتعاليمهم^(٢) .

إن الآية بجميع تفاسيرها (سواء قبلنا أحدها أو قبلنا الجميع لعدم المنافاة بينها) شاهد على ما قلناه من أن تزوين الشیطان يجعل حجاباً على عقل الانسان وفكره .



وقد بينت الآية الرابعة بصورة عامة مصير الذي يعيش عن ذكر الله ويغفل عنه وقالت : ﴿ وَمَنْ يَغْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ... وَيَخْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ . ذكر المفسرون وائمة اللغة معنيين لفعل « يَغْشُ » ، فقال بعض : إنه ظلام خاص يحل في العين يفقد الانسان من جراءه بصره ويكون أعمى أو أعشى (أي لا يرى في الليل) وهو من مادة « عَشَى » ، كما يقال « عشواء » للجمل الذي لا يرى أمامه ويخطأ عند المشي ، وعبارة « خبط عشواء » إشارة الى هذا المعنى . وعلى هذا فيكون معنى الآية الشريفة هو : إنَّ الذي لا يرى آيات الله في الكون بعينه ، ولا يسمعها عن ألسنة أنبياءه ، فانه سيقع في فخ الشیطان وتسويلاته .

وقال بعض آخر : إنها من مادة « عَشَو » ، وعندما تستعمل مع « الى » فتعني

(١) الميزان الجزء ١٦ الصفحة ١٣١ .

(٢) تفسير الفخر الرازي الجزء ٢٥ الصفحة ٦٦ .

الهداية ببصر ضعيف ، وعندما تستعمل مع « عن » فتعني الاعراض^(١) .
وعلى هذا فيكون المراد من الآية هو : إن الذين يعرضون عن ذكر الله
فَنُقِضَ ونسلط الشيطان عليهم^(٢) .
إن « نُقِضَ » من مادة « قَنَضَ » وتعني قشر البيض ثم استعملت بمعنى
الاستيلاء ، واستعمال هذه المفردة في الآية أمرٌ مثير ، حيث يكشف عن ان
الشيطان عندما يَنْقُضُ على الانسان يحيط به من جميع الجهات ، ويقطع اتصاله
بالخارج بالكامل كما تفعل قشرة البيض بالبيض ، وهذا أسوأ أنواع حجب
المعرفة التي يُبْتَلَى بها الانسان ، كما ان هناك مثلاً عند العرب يقرب معنى الآية
للأذهان « استيلاء القيض على البيض » .
والأسوأ من هذا هو ان احاطة الشيطان بالانسان واستيلاءه عليه ومقارنته
له تستمر الى درجة تجعله يفتخر بضلالته ويحسب ان طريقه هو طريق الحق
والهداية ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ .



وقد تحدثت الآية الخامسة عن شياطين الانس والجن الذين نصبوا العدا
للانبياء والذين أعدوا أنفسهم لابطال فاعلية تعاليم الأنبياء ، يوحى بعضهم الى
بعض أقاويل مزخرفة باطلة لا أساس لها من الصحة ، كما يعلم بعضهم البعض

(١) يقول بعض المفسرين : إن هذه المفردة إن كانت من مادة (عَشَا ، يَعْشَو) ، فتعني التعامي من دون
أن تكون علة في بصره ، أما اذا كانت من مادة (عَشَى ، يَعْشَا) ، فتعني حصول علة في بصره ، روح
البيان الجزء ٨ الصفحة ٣٦٨ ، وينبغي الالتفات هنا الى انها في الآية من باب (عَشَا ، يَعْشَو) .
(٢) راجع لسان العرب ومفردات الراغب وتفسير القرطبي وروح البيان والميزان .

طرق المكر والخداع ، وذلك لاغفال الناس وكنتم الحقائق وجعل الحجب عليها ، وإبعاد الناس عن تعاليم الأنبياء .

وينبغي ذكر هذه النقطة هنا وهي : إن العدو ذكر بصيغة المفرد ، بينما الشياطين بصيغة الجمع ، وهذا قد يكون من حيث ان الشياطين متحدون ومتفقون في سبيل إغفال الناس وخداعهم وكأنهم عدو واحد .

ويقول البعض : إن « عدو » هنا بمعنى أعداء أي بمعنى الجمع^(١) .

كما صرح بعض آخر : إن « العدو » تطلق على المفرد والمثنى والجمع^(٢) .



والآية السادسة هي من آيات سورة محمد ﷺ التي أشير فيها الى حجب متعددة من حجب المعرفة ، فتارة تعدّ الفساد في الارض وقطع صلة الرحم سبباً للعمى الباطني لهم (الآية ٢٣) ، وتارة اخرى تعد ترك التدبر في القرآن بمثابة الإقفال على القلوب .

والآية المذكورة تعدّ تزوين الشيطان وتسويلاته سبباً لارتداد الضالين ، حيث يتبين لهم الحق ويؤمنون به أولاً ، ثم ينحرفون عنه من جراء تسويلاته وتزيينه لهم الى درجة يفتخرون فيها بضلالتهم الاخيرة .

من هم المشار إليهم في الآية ؟

هذا ما بحثه المفسرون وانقسموا من جراءه الى فريقين ، فبعض يقول : إنهم اليهود ، حيث كانوا مؤمنين بالرسول قبل ظهوره لما توحى إليهم كتبهم عن

(١) روح المعاني الجزء ٨ الصفحة ٤ .

(٢) المنار الجزء ٨ الصفحة ٥ .

ذلك الرسول ، ثم سلكوا سبيل العناد والمخالفة له بعد ظهوره ، ويُعدُّ هذا ارتداداً نوعاً ما . وبعض يقول : إنها تشير الى المنافقين الذين آمنوا في البداية ثم ارتدوا بعد ذلك ، أو أنهم آمنوا ظاهراً وهم كافرون باطناً ، لكن مع الالتفات الى كون الآيات التي سبقت هذه الآية والتي تليها ناظرة الى المنافقين ، لا يبعد أن تكون هذه الآية تشير إليهم كذلك فالمراد من الآية - إذن - المنافقون الذين آمنوا في البداية ثم ارتدوا بعد ذلك .

إن « أَمَلِي لَهُمْ » من مادة « املأ » أي الأمهال^(١) ، والمراد منها هنا هو الآمال البعيدة التي يوحىها الشيطان للانسان ، الآمال التي تشغل فكر الانسان وتزين له الباطل وتبعده عن الحق .



إن سابع وآخر آية أُنذرت الناس - بتعبير وافي - بأن وعد الله حق ، ثم ذكرت عاملين للضلالة والانحراف عن الحق ، الاول الدنيا ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ ، والثاني الشيطان ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ فتارة يؤملكم بكرمه وينسيكم غضبه ، وتارة اخرى يغويكم بشكل بحيث تنسون الله وتعاليمه ، أو تبدو تعاليمه مقلوبة لديكم .

إن « غرور » - وكما أشرنا سابقاً - هو كل ما خدع الانسان ، سواء كان مالاً أو جاهاً أو شهوات أو غير ذلك ، وبما أن الشيطان أوضح مصداق للخداع ، أطلق عليه ذلك كثيراً ، وقُسِّر به^(٢) .

(١) ينبغي الالتفات هنا الى ان أصل هذه المادة هو « مَلُو » لا « مَلَأ » - بالهمزة - .

(٢) إن « الغرور » صيغة مبالغة .

يعتقد كثير من المفسرين ان عبارة ﴿ لَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ تلميح الى أنَّ الشيطان غَرَّ الانسان بَعفو الله وكرمه بدرجة يمكِّنه من ارتكاب أي معصية أراد، ويبلغ به الأمر أن يعتقد بأن هذا ناشيء عن كمال معرفته لصفات الله ! وهذا أمر عجيب .

وحالة كحال من يتصور أن جسمه قوي وذو مناعة تمكنه من مقاومة جميع السموم المهلكة ، فيخدعه تصوره ويتناول السم فيموت .
وهذا هو أحد حجب المعرفة .



إيضاحات :

١ - من هو الشيطان ؟

إن « الشيطان » - وكما قلنا سابقاً - ليس اسماً خاصاً أو علماً لأبليس ، بل إن إبليس الذي امتنع عن السجود لآدم هو أحد الشياطين .

إن لأبليس جنوداً كثيرة من جنسه ومن الناس ، وتطلق مفردة الشيطان على الجميع ، وعلى هذا فقيادة الكفر والشرك والظلم والفساد في الارض ، والعاملون في الاجهزة الظالمة كلهم من جنود الشيطان ، ولقد جاء في رواية أن هناك شياطينَ من الانس أسوء من شياطين الجن ، حيث سأل رسول الله ﷺ أبا ذر يوماً : « هل تعوذت بالله من شر شياطين الجن والانس » ؟

فقال أبو ذر : وهل من الناس شياطين ؟

فاجابه الرسول ﷺ : « نعم هم شرّ من شياطين الجن »^(١).

كما ان المستشفّ من القرآن هو أن للشيطان جنوداً فرساناً وراجلين كما جاء ذلك في سورة الاسراء الآية « ٦٤ » : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ .
إن « اجلب » من مادة « إجلاب » ويعني التجمع السريع أو الضجيج والصياح لحث مجموعة ما على الحركة .

أما المراد من « خيلك ورجلك » ، فيقول الكثير من المفسرين : إنه الراجل أو الفارس الذي يخطو في معصية الله ، أو قاتل في هذا السبيل^(٢) .
ويقول البعض : إن للشيطان أعواناً وأنصاراً راجلين وفرساناً حقاً .

وحمل البعض العبارة على الكناية ، وقال : المراد من الآية هو ان الشيطان أعدّ العدة ووفّر جميع الوسائل لصراع ومجابهة الناس^(٣) .

كما يحتمل ان يكون المراد من الخيل هو قادة الكفر والظلم والفساد ، ومن الرجل ، الشخصيات المتوسطة الأضعف من الشخصيات السابقة .
كما يحتمل ان يكون المراد من الخيل هو الشهوات والصفات الذميمة التي تغلب على روح الانسان وتمتطيها ، والمراد من الراجلين هو العوامل الخارجية التي تسعى لانحراف الانسان عن الصراط المستقيم .



(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ١٣ الصفحة ١٥٤ .

(٢) نقل القرطبي هذا التفسير عن أكثر المفسرين .

(٣) ذكر الفخر الرازي هذا التفسير كاحتمال في تفسيره الجزء ٢١ الصفحة ٦ ، وقد جاء ما يشبه هذا الاحتمال في تفسيره (في ظلال القرآن) الجزء ٥ الصفحة ٣٤٣ .

٢ - الأجابة على سؤال :

هناك سؤال يرتبط ببحثنا وهو : كيف أمكن أن يتركنا الله لوحده نواجه جنود الشيطان القوية والقاسية ؟ وهل يتفق هذا مع حكمة الله وعدله ؟

يمكننا الاجابة على هذا السؤال بالالتفات الى نقطة ، وهي : إن الله - وكما جاء في القرآن الكريم - يجهز المؤمنين بجنود رحمانية ، أي الملائكة ، ويوظف القوى الغيبية التي في العالم لأن تتماشى معهم في طريق جهاد النفس والعدو :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاكُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾

(فصلت / ٣٠ - ٣١)



٣ - النقطة المهمة الاخرى :

هي : إن الشيطان لا يدخل قلوبنا فجأة ولا يعبر حدود دولة الروح من دون جواز ، إن هجومه ليس مباغتاً بل يدخل برخصتنا ، نعم انه يدخل من الباب لا من النافذة ، ونحن نفتح له الباب ، كما يقول القرآن في هذا المجال : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ - إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ (النحل / ٩٩ - ١٠٠) .

في الحقيقة ان أعمال الانسان هي التي توفر الأرضية لنفوذ الشيطان ، وذلك ما يقوله القرآن : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَالْإِنْسَانِ إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ ﴾ (الاسراء / ٢٧) .

إلا أنه لا طريق للنجاة من مكائد الشياطين المتنوعة وجنودهم في أشكالها المختلفة من الشهوات ومراكز الفساد والسياسات الاستعمارية والمذاهب المنحرفة والثقافات الفاسدة ، إلا اللجوء إلى الإيمان والتقوى والتظلل بالطفاء الله والتوكل على ذاته المقدسة ، وكما يقول القرآن : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(النساء / ٨٣) .



وقد انتهت إلى هنا حجب المعرفة العشرين ، فننتقل معاً إلى مؤهلات المعرفة .

مؤهلات المعرفة

٥ - مؤهلات المعرفة

تمهيد :

كما ان البذور تنمو في الاراضي الخصبة ، وكما أن الأزهار لا تتفتح في الاراضي المالحة بالرغم من استعمال أفضل البذور ، ونزول المطر المتوالي عليها ، كذلك بذور المعرفة فانها لا تنمو إلا في القلوب الصالحة والمؤهلة ، ولا تتفتح أزهارها إلا في الارواح الطاهرة .

ولهذا السبب فان الاطلاع على الروحيات و الاعمال التي تهيب وتُعدّ أرضية المعرفة يعد من أهم البحوث التي تتعلق بـ « المعرفة » ، وقد استعمل القرآن في هذا المجال تعابير ذات معانٍ عميقة وإشارات جميلة .

وبالرغم من ان المؤهلات للمعرفة كثيرة ، إلا أن الاسس المهمة والتي أشار إليها القرآن عبارة عن الامور التالية :

١ - التقوى .

٢ - الايمان .

٣ - الخشية والاحساس بالمسؤولية .

٤ - تزكية النفس .

٥ - الوعي .

٦ - المعرفة .

وسنبحث كلاً من هذا الامور في فصل خاص بعد ذكر الآيات التي تتعلق بها ، كما سنستعين بالروايات الاسلامية في هذا المجال كمؤكد وموضح لها ان شاء الله .

١ - علاقة التقوى بالمعرفة

في البداية نصغي خاشعين للآيات التالية :

١ - ﴿ اَلَمْ ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيْهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ ﴾

(البقرة / ١ - ٢)

٢ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اِنَّ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾

(الانفال / ٢٩)

٣ - ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ﴾

(البقرة / ٢٨٢)

٤ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرِسُوْلِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُوْنَ بِهٖ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴾

(الحديد / ٢٨)

شرح المفردات :

إن « التقوى » من مادة « وقاية » وتعني - كما يقول الراغب في مفرداته - حفظ الشيء من الآفات .

ثم يضيف : ان التقوى بمعنى حفظ الروح والنفس مما يخشى مضرته ، ثم اطلقت على الخوف ، كما ان التقوى في الشرع تطلق على التحفظ من المعاصي ، وكمالها ترك بعض المباحات المشكوكة ^(١) .

ولباقي أئمة اللغة تعابير تشبه ما جاء في المفردات ، فقد فسر لها بعض بالصيانة ^(٢) ، وبعض آخر بـ « الامتناع عن القبائح والأهواء » ^(٣) .

وقد نقل عدد من المفسرين حديثاً عن بعض الصحابة أنهم سألوا عن حقيقة التقوى فأجابوا :

« هل مررت بطريق مليء بالاشواك في يوم ما ؟ قال السائل : نعم . قال : لم تجمع ثيابك وترفع اذياك وتسعى للخلاص من الاشواك ؟ فحالتك هذه هي التقوى » .

نعم ، إن الطريق الى الله مليء بأشواك كثيرة كاشواك الشهوات والميول والأهواء والآمال البعيدة والكاذبة ، ومن هنا ينبغي على الانسان أن يحافظ على ثبات روحه دون ان تمس الاشواك أقدام روحه فتمزقها ، ينبغي أن لا تشغله دون إنهاء هذا الطريق .

(١) مفردات الراغب مادة وقى .

(٢) لسان العرب نفس المادة .

(٣) مجمع البحرين ، نفس المادة ، كما ينبغي الالتفات الى أن أصل مفردة التقوى هو « وقى » فانقلبت الواو تاء ، كما ذكر ذلك لخليل بن أحمد في كتابه « العين » .

وهذا لا يمكن إلا باليقظة والمعرفة والخبرة ومراقبة النفس على الدوام .
وبتعبير أبسط : إن التقوى هي الوقاية من الآفات التي تعترض الروح في
طريق التكامل ، وتجنّب الذنوب والشبهات حتى الحصول على الملكة .
وقد ذكر بعض المفسرين معاني عديدة للتقوى ، وجاؤا بشاهد من القرآن
لكل منها ، وفي الحقيقة إن كلاً منها مصداق من مصاديق التقوى ، مثل التوبة
والطاعة والاخلاص والایمان (العباداة والتوحيد)^(١) .

ويقول البعض : إن حقيقة التقوى هي أن يجعل الانسان حائلاً أو مانعاً أمام
آفة ما ، فكما يدفع الانسان تأثير ضربات العدو بالدرع ، كذلك المتقون فانهم
يصونون أنفسهم من عذاب الله بواسطة درع طاعة الله^(٢) .

نقسم التقوى الى ثلاث مراحل : التقوى عن الكفر ، والتقوى عن الذنب ،
والتقوى عما ينسي الانسان ذكر ربه^(٣) .

ولكن - كما هو واضح - فإن المعاني هذه كلها ترجع الى المعنى الأساسي
الذي ذكر للتقوى في البداية .



جمع الآيات وتفسيرها:

اتقوا كي يسطع نور العلم على قلوبكم !

يقول الله عز وجل في الآية الاولى : ﴿ ذَلِكِ الْكِتَابُ لِارْيَبَ فِيهِ هُدًى

لِلْمُتَّقِينَ ﴾ والتعبير هذا يثبت بوضوح تأثير التقوى على المعرفة كمؤهل لها .

(١) وجوه القرآن الصفحة ٥٥ ، وتفسير الفخر الرازي الجزء ٢ الصفحة ٢٠ .

(٢) روح البيان الجزء ١ الصفحة ٣٠ و ٣١ .

(٣) روح البيان الجزء ١ الصفحة ٣٠ و ٣١ .

وهذه هي الحقيقة ، فما لم تحصل في باطن الانسان مرحلة من مراحل التقوى ، لا يمكنه الاستفاضة من ينابيع الكتب السماوية ، وأقل التقوى هو أن يسلم الانسان نفسه الى الحق ويترك العناد ، فان الذين يفتقدون هذه المرحلة من التقوى ، سوف لا يرتفعون الى أدنى درجة من درجات المعرفة ولا يتقبلون الهداية أبداً .

طبيعي ان الانسان كلما كانت روح التقوى والتسليم الى الحق وقبول الحقائق والواقعات قوية عنده ، كانت استفاضته من ينابيع الهداية أكثر .
إن ينابيع الهداية وعلى رأسها القرآن المجيد كالغيث الذي يحيي الارض ويفتح أزهار المعرفة فيها ، وهذا يحدث في الارض الخصبة فقط لا في كل أرض .

إن التعبير بـ « هدى » أي بصيغة المصدر ، تأكيد لحقيقة أن روح التقوى اذا استيقظت عند الانسان وأصبحت فعالة ، فان القرآن سيصبح الهداية ذاتها (تأمل جيداً) .

وفي هذا المجال يقول بعض المفسرين العظام :

« ان الهداية الثانية لما كانت بالقرآن فالهداية الاولى قبل القرآن وبسبب سلامة الفطرة ، فان الفطرة اذا سلمت لم تنفك من أن تتنبه شاهدة لفقرها وحاجتها الى امرٍ خارج عنها ، وكذا احتياج كل ما سواها مما يقع عليه حس أو وهم أو عقل الى امرٍ خارج تقف دونه سلسلة الحوائج ، فهي مؤمنة مذعنة بوجود موجود غائب عن الحس ، منه بدأ الجميع وإليه ينتهي ويعود ، وانه كما لم يهمل دقيقة من دقائق ما يحتاج اليه الخلق كذلك لا يهمل هداية الناس الى ما ينجيهم من مهلكات الأعمال والاخلاق وهذا هو الاذعان بالتوحيد والنبوة

والمعاد وهي اصول الدين»^(١).

كما يقول الفخر الرازي :

والبعض الآخر ذكر في حصر الهداية بالمتقين لان الله تعالى ذكر المتقين مدحاً ليبين انهم هم الذين اهتدوا وانتفعوا به كما قال : ﴿ انما انت منذر من يخشاها ﴾ وقال : ﴿ انما تنذر من اتبع الذكر ﴾ وقد كان عليه السلام منذراً لكل الناس ، فذكر هؤلاء الناس لاجل ان هؤلاء هم الذين انتفعوا بانذاره^(٢).

وقد استنتج الفخر الرازي في بعض عباراته :

« ولو لم يكن للمتقي فضيلة إلا ما في قوله تعالى (هدى للمتقين) كفاه لانه تعالى بين ان القرآن هدى للناس في قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس ﴾ ثم قال : انه هدى للمتقين فهذا يدل على ان المتقين هم كل الناس فمن لا يكون متقياً كانه ليس بانسان^(٣).

وبالرغم من عدم تنافي التفاسير الماضية ، إلا أن التفسير الأول يبدو أوضح ، ومن هنا يعرف سُقم الرأي القائل (بحمل « المتقين » في الآية على المجاز ، والقول بأن المراد منهم سالكو طريق التقوى ، وذلك للحيلولة دون الوقوع في اشكال (تحصيل حاصل) ، وذلك لان للتقوى - وكما قلنا - مراحل ودرجات ، فمرحلة منه تؤهل لهداية القرآن ، والمراحل الرفيعة الاخرى تكون وليدة هداية القرآن .

ويُطرح هنا سؤال وهو : إن الآيات التي جاءت بعد « هدى للمتقين » عرفت المتقين بالذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و يؤتُونَ الزكاة ، وعلى

(١) الميزان الجزء ١ الصفحة ٤٢ .

(٢) تفسير الفخر الرازي الجزء ٢ الصفحة ٢١ .

(٣) تفسير الفخر الرازي الجزء ٢ الصفحة ٢١ .

هذا، افلا تكون هداية القرآن تحصيلاً للحاصل يا ترى ؟ !

إن الاجابة على هذا السؤال تتضح بالالتفات الى نقطة في هذا المجال وهي : إن الوصول الى هذه المراحل المذكورة في السؤال ليست نهاية الطريق ، بل هناك مراحل كثيرة اخرى ينبغي طيها لبلوغ المرحلة التكاملية اللائقة بالانسان ، وهذه المرحلة عند المتقين ستهديهم الى مراحل ارفع واسمى بالاستعانة بهداية القرآن .

وتوجد تعبيرات في القرآن تشبه ما جاء في الآية السابقة ، مثلما جاء في الآية (٤٨) من سورة الحاقة ﴿ وَانَّهُ لَتَذَكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

فعدت الآية الاولى القرآن « هدى » للمتقين وسبباً لهدايتهم ، والثانية « تذكرة » لهم ، ونعلم أن « التذكر » من مقدمات « الهداية » ، ولهذا عندما وصل عدد من المفسرين الى هذه الآية أرجعوا الحديث فيها الى نفس الحديث في بداية سورة البقرة .

وعلى أية حال ، فان هذه الآيات شاهد ناطق على دور التقوى كمهّـد للمعرفة والهداية .



وقد وضحت الآية الثانية علاقة التقوى بالمعرفة توضيحاً أكثر من الآية السابقة وصرحت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ .

إنَّ « الفرقان » - كما يقول بعض أئمة اللغة - : (اسم مصدر) ، وادعى بعض آخر أنه (مصدر) إلا أن أغلب المفسرين يصرحون بأن له - في موارد كهذا المورد - معنى فاعلياً مقروناً بالتأكيد (أشبه ما يكون بمفهوم صيغة المبالغة) ، ومعناه

الشيء الذي يفرق بين الحق والباطل ، وله مفهوم واسع يشمل القرآن المجيد ومعجزات الانبياء والأدلة العقلية الواضحة وشرح الصدر والتوفيق والنورانية الباطنية وغير ذلك^(١) .

وبهذا ، فالقرآن يقول بان « التقوى » هي الارضية التي تعد للمعرفة والتي يمكن الاستدلال بها تماماً في بعض المراحل ، وتنطوي في المراحل الاخرى ضمن الامدادات الالهية المعنوية .

سمى القرآن المجيد يوم معركة بدر « يوم الفرقان » ، وذلك من حيث أنه يوم شهد آيات الله البارزة تؤيد جند الاسلام ضد جند الشرك ، فبالرغم من عدّة وعدد المشركين الذي يقدر بثلاثة أضعاف عدد المسلمين ، تحملوا ضربات قاسية من المسلمين لم يتوقعها أحد .

إضافة الى هذا ، فان معركة بدر كانت أول مواجهة مسلحة بين المسلمين والمشركين انفصلت بها صفوف المسلمين عن المشركين ، ولذا سميت بـ « يوم الفرقان » .

وينبغي الالتفات الى أن « فرقاناً » جاءت بصيغة نكرة ومطلقة ، فدلّت على عظمة ذلك النور الالهي وعلى سعته ، بحيث يشمل المسائل الاعتقادية والعملية وكل ابداء رأي تجاه امور الحياة المهمة ، وعلى هذا ، فثمرة شجرة التقوى هي الولوج في كل خير وبركة والابتعاد عن كل شرّ وفساد .

يقول الفخر الرازي في شرحه لهذه الآية : بما أن لفظ الفرقان مطلق فينبغي حمله على كل ما يفرق المؤمنين عن الكافرين ، فهذا الفرقان إما في أحوال الدنيا وإما في أحوال الآخرة ، والذي يتعلق بأحوال الدنيا إما انه يتعلق بالقلب وهي

(١) راجع المفردات ، وكتاب العين ، ولسان العرب ، ومجمع البحرين ، والميزان ، والكشاف في ذيل الآية نفسها .

الاحوال الباطنة او في الاحوال الظاهرة ، فبالنسبة للقلب والباطن فالله يهدي قلوب المؤمنين ويلقي فيها المعرفة ويشرح صدورهم ويمحو عنها الحقد والحسد والبغض والعداوة ، بينما يمتليء قلب المنافق والكافر من هذه الرذائل والصفات السيئة ، لأن القلب اذا تنورّ بنور الايمان زالت ظلمات هذه الرذائل عنه ، أما الذي يتعلق بالظاهر ، فالله ينصر المسلمين ويفتح لهم ويمنحهم الرفعة^(١) .



والآية الثالثة التي هي جزء صغير من أطول اية في سورة البقرة أي الآية (٢٨٢) ، بعد ان بينت عدداً من الأوامر الالهية قالت : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ ﴾ .

يقول القرطبي في تفسيره :

« انه وعدّ من الله تعالى بأن من اتقاه علّمه ، أي يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يُلقى اليه ، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقانا ، اي فصلاً يفصل به بين الحق والباطل »^(٢) .

إن هذا الحديث لايعني ترك كسب العلم ، والاكتفاء بتهذيب النفس - كما يقول بعض الصوفية وأشخاص منحرفون - بل المراد هو ان التقوى تهبيء الأرضية لكسب العلم الحقيقي أشبه ما يكون بالأرض الخصبة والمُعَدَّة لنثر البذور .

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ١٥ الصفحة ١٥٣ (بتلخيص) .

(٢) تفسير القرطبي الجزء ٣ الصفحة ٤٠٦ .

صحيح أن جملة « اتقوا الله » ليست شرطاً وأن جملة « يعلمكم الله » ليست جزاء لها (ولهذا أنكر البعض العلاقة بين التقوى والعلم المستفادة من هذه الآية) ، لكن ممّا لا شك فيه هو أن اقتران أحدهما بالآخر لم يكن اعتباطاً ، بل هو تلميح الى العلاقة الموجودة بين هذين الاثنين ، وإلاّ فيعرض انسجام الآية للسؤال .



إن رابع وآخر آية بينت العلاقة بين التقوى والمعرفة بوضوح ، فبينت ثلاثة أجور للذين يتقون الله ويؤمنون برسوله .

الأول يؤتيهم الله كفلين أو نصيبين من رحمته ، نصيباً لايمانهم ونصيباً لتقواهم ، أو نصيباً لأجل ايمانهم بالانبياء السالفين ونصيباً لأجل ايمانهم بالرسول ﷺ ، وبالرغم من ان المخاطبين في الآية مؤمنون إلا أن الله يأمرهم أن يؤمنوا بالرسول ﷺ ، كما ان شأن نزول الآية يبين انها بصدد فريق من نصارى الحبشة الذين سمعوا القرآن وآمنوا بنبي الاسلام ﷺ^(١) .

والثاني : هو جعل الله لهم نوراً - لأجل ايمانهم وتقواهم - يهتدون به في صراطهم : ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ .

وبالرغم من ان البعض أراد تقييد مفهوم الآية والقول بأن النور الذي ذُكر فيها إشارة الى النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين وبأيمانهم في يوم القيامة) كما تشير الى ذلك الآية ١٢ من سورة الحديد : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾) ، لكن لا دليل لهم على

(١) الكفل : ما يعيل الانسان ويرفع حاجته ، ويعتقد البعض ان هذه المفردة حبشية دخيلة على العربية .

هذا التقييد ، بل ان مفهومها - وكما يقول صاحب الميزان - واسع يشمل الأنوار الالهية كلها في الدنيا والاخرة ، وعلى هذا فتكون الآية شاهداً على العلاقة بين « التقوى » و « المعرفة » .

أمّا الأخير فهو : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وهذا كله لأجل ايمانهم وتقواهم .

إيضاحات :

١ - علاقة العلم بالتقوى في الروايات الاسلامية :

وفي الروايات الاسلامية ايضاً تم بيان مدى تأثير القوى على مسألة العلم ، هذه الروايات تبين بوضوح ان تطهير القلب والروح بالتقوى يعد الارضية لتلقي المعارف الالهية .

نذكر هنا الأحاديث التالية كنماذج لما جاء في الروايات الاسلامية :

ونقرأ في حديث عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال :

« من غرس اشجار التقى جنى ثمار الهدى » ^(١) .

٢ - وجاء ايضاً في احدي خطب نهج البلاغة انه قال :

« اما بعد فاني أوصيكم بتقوى الله ... فان تقوى الله دواء داء قلوبكم وبصر

عمى افئدتكم وشفاء مرض اجسادكم وصلاح فساد صدوركم وطهور دنس انفسكم وجلاء عشا ابصاركم » ^(٢) .

٣ - وفي حديث عنه ايضاً أنه عليه السلام قال :

(١) غرر الحكم .

(٢) نهج البلاغة خطبة رقم ١٩٨ .

« للمتقي هدى في رشاد وتحرج عن فساد »^(١).

٤ - ونقرأ ايضاً في نهج البلاغة انه عليه السلام قال :

« اين العقول المستصبة بمصابيح الهدى والابصار اللامحة الى منار

التقوى »^(٢).

٥ - ونختم حديثنا بحديث ذي معنى عميق عن الرسول صلى الله عليه وآله حيث قال :

جاء في وصية الخضر لموسى عليه السلام : « ياموسى وطئن نفسك على الصبر تلق الحلم واشعر قلبك التقوى تنل العلم ورّض (روض) نفسك على الصبر تخلص من الاثم »^(٣).



٢ - كيفية الارتباط بين ينابيع العلم والتقوى ؟

ماهو تأثير التقوى واجتناب الذنوب وترك التلوث بها على مسألة

المعرفة ؟ وبتعبير آخر : ما هي العلاقة المنطقية بين العلم والأخلاق ؟

في الحقيقة إن لهذين الاثنين علاقة تقارب قوية ، وأي علاقة أقرب وأوثق

من العلاقة المتبادلة بين هذين الاثنين ؟ فالتقوى ينبوع العلم ، كما ان العلم ينبوع

التقوى ، وليس هذا بامر طبيعي فحسب بل انه اصل اساسي للسير في طريق

المعرفة .

فيمكن الاستدلال على تأثير التقوى على العلم بالطرق التالية :

(١) غرر الحكم .

(٢) نهج البلاغة خطبة رقم ١٤٤ .

(٣) منية المريد للشهيد الثاني (ينقل عن بحار الانوار الجزء ١ الصفحة ٢٢٧) .

أ - إن السنخية والتنسيق تسببان الجاذبية والارتباط دائماً .

فعندما تتطهر روح الانسان وتزكى بالتقوى تحصل جاذبية قوية بينها وبين المعارف والعلوم الحقيقية « فالسنخية تبعث على الارتباط العجيب » .

ب - إن منجل التقوى يحصد جميع الأشواك من مزرعة روح الانسان ، ويُعدّ القلب ويهيئه لنمو بذور العلم والمعرفة ، بل إذا دققنا النظر فان بذور العلوم جميعها قد نثرها الله في هذه المزرعة ، والمهم في الأمر هو حصد الأعشاب المزاحمة وإرواء المزرعة .

وقد جاء في حديث للمسيح ﷺ مخاطباً فيه أنصاره قائلاً :

« ليس العلم في السماء فينزل اليكم ، ولا في تخوم الارض فيصعد عليكم ، ولكن العلم مجبول في قلوبكم مركز في طبائعكم ، تخلقوا باخلاق الروحانيين يظهر لكم »^(١) .

ج - نعلم أنه لا وجود للبخل والحسد في مبدأ عالم الوجود ، وعلى ما جاء في الآية : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (الحجر / ٢١) ، فان خزائن النعم غير المتناهية عند الله ، ما ينقصه زيادة كرمه وكثرته شيئاً ، بل ان جوده وكرمه يتجلى أكثر « وَلَا يَزِيدُهُ كَثْرَةُ الْعَطَاءِ إِلَّا جُوداً وَكَرَمًا » .

وعليه ، فان الحرمان سببه عدم أهلية الأشخاص ، إن التقوى تجعل الانسان أهلاً للفيض الالهي ، وأي فيض أرفع شأناً من المعارف والعلوم الالهية ؟ إن القلوب كالأوعية كما يقول امير المؤمنين عليه السلام : (إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاها)^(٢) والمهم هو أن نوسع هذه الأوعية ، وأن لا تكون مقلوبة

(١) تفسير الصراط المستقيم الجزء ١ الصفحة ٢٦٧ .

(٢) نهج البلاغة الحكمة ١٤٧ .

لاتسع ولو لقطرة واحدة ، وهذا الأمر ممكن في ظل التقوى .

أما التأثير المتبادل بين العلم والتقوى : فهو ان العلم الحقيقي يمحو جذور الرذائل الأخلاقية وينابيع الاثم والذنب ، ويمثل أمامه عواقب الامور ، وهذه المعرفة تعين الانسان على تبلور التقوى في قلبه وعلى ابتعاده عن الاثم ، ويتضح من هنا ان العلم ينبوع للتقوى ، كما ان التقوى ينبوع للعلم ، غاية الامر ان مرحلة من التقوى تسبب مرحلة من العلم ، وتلك المرحلة من العلم تسبب مرحلة أرفع من التقوى ، وعلى هذا المنوال فان كلاً منهما يؤثر في الآخر تأثيراً متبادلاً ، وقد تكون الآية (٢٠١) من سورة الاعراف مشيرةً الى هذه النقطة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ .

أي ان التقوى تكون في البداية ، ثم التذكر ، ثم البصيرة ، والنتيجة هي النجاة من وساوس الشياطين .



٣ - استغلال العلاقة بين « العلم » و « التقوى » :

بالرغم من ان علاقة المعرفة بالتقوى علاقة لا يمكن انكارها ، سواء من وجهة نظر القرآن المجيد ، أو من وجهة نظر الدليل والعقل (وقد بينا ذلك بالتفصيل) ، إلا أن هذا الحديث لا يعني ترك طرق كسب العلم والمعرفة المتعارفة ، والاستغناء بتهذيب النفس عن كسب تنصب العلوم على قلوبنا العلم ، كما ظن ذلك عدد من الصوفية الذين اتخذوا هذه المسألة حجة لمقارعة المعرفة وكسب العلم وظلوا في جهل دامس .

إن الاسلام أوجب كسب العلم بدرجة حيث اعتبر الحضور في مجلس العلم كالحضور في روضة من رياض الجنة : « مجلس العلم روضة من رياض الجنة » .

كما عُدَّ النظر إلى وجه العالم عبادة « النظر إلى وجه العالم عبادة »^(١) ، وكل خطوة يخطوها في سبيل العلم فهي خطوة نحو الجنة^(٢) . وقد عُدَّ مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء^(٣) . وحفظ الحديث وكتابه من الفضائل العظيمة^(٤) . ويدعو الاسلام - من جهة أخرى - إلى تهذيب النفس وتزكيتها لأجل تهيتها لقبول المعارف والعلوم الالهية .

وعلى هذا ، فأولئك الذين تركوا طلب العلم وأوصوا زملائهم وأتباعهم بتركه ، والتوجه إلى تصفية الباطن وتزكيتها على خطأ ، لأن التزكية هذه غالباً ما تنحرف عن جادة الصواب بسبب عدم اقترانها بالعلم والمعرفة ، وكذلك أولئك الذين انهمكوا في كسب العلوم الرسمية وأهملوا تهذيب النفس ، فانهم في ضلالة ، نعم ينبغي السعي نحو كليهما .



(١) غرر الحكم .

(٢) البحار الجزء ١ الصفحة ١٦٤ .

(٣) البحار الجزء ٢ الصفحة ١٤ .

(٤) المحجة البيضاء الجزء ١ الصفحة ١٥ .

٢- الايمان والمعرفة

تمهيد :

إن روح الايمان هي التسليم للحق والخضوع أمام الواقعيات ، وبما أن أكبر واقعية في عالم الوجود هي ذات الله المقدسة ، فإن روح الايمان تتمحور حول التوحيد ومعرفة الله .

إن الايمان يفسح المجال أمام عقل الانسان لأن يدرك الواقعيات كما هي حقاً ، سواء كانت مرّة أو حلوة ، وسواء كانت ملائمة لمزاجه وطبعه أم لا .
إن معلومات اولئك الذين لم يسلموا للحق هي تصوّر وتمثّل لرغباتهم وأهوائهم ، لا لنفس الواقعيات الموجودة في الخارج ، انهم يرون الدنيا بالشكل الذي يرغبون فيه ، ولا يرونها بشكلها الواقعي .

وبهذا التمهيد تتضح علاقة الايمان بالمعرفة اجمالاً ، ونصفي الآن خاشعين الى آيات القرآن في هذا المجال :

١ - ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾

(الانعام / ١٢٢)

٢ - ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾

(النور / ٤٠)

٣ - ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ وَالشّٰهَدَاءُ

عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴿

(الحديد / ١٩)

٤ - ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ
لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

(الزمر / ٢٢)

جمع الآيات وتفسيرها:

تأثير الايمان على الرؤية الصحيحة :

تحدثت الآية الاولى عَمَّنْ كانوا موتى ثم أحياهم الله وجعل لهم نوراً
يهتدون به في الطريق .

والمراد من الموت والحياة هنا هو الايمان بعد الكفر ، كما جاء ذلك في
الآية (٢٤) من سورة الانفال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا
دَعَاكُمْ لِمَا يُخَيِّكُم ﴾ وعلى هذا فالحياة هي حياة الايمان الحقيقي والصادق ،
الحياة المقترنة بالنور والضياء والمعرفة .

والجانب المقابل لجانب الأحياء ، هو جانب أولئك الذين ضلوا في
ظلمات الكفر ولم يخرجوا منها أبداً ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ
مِنْهَا ﴾ .

يعتقد كثير من المفسرين أن هذا النور هو نور القرآن ، وقد فسره بعضهم
بنور الدين ، وبعضهم بنور الحكمة ^(١) ، وقد أضاف البعض على ذلك نور

(١) تفسير الفخر الرازي الجزء ١٣ الصفحة ١٧٢ وتفسير القرطبي الجزء ٤ الصفحة ٢١٤ والمنار الجزء

الطاعة^(١)، لكن المسلم ان لهذا النور مفهوماً واسعاً يشمل جميع أنواع المعرفة، ومن البديهي ان مراد القرآن هو اكمل مصاديقه.

إن التعبير بـ « يمشي به في الناس » يتناسب كثيراً مع الحياة الاجتماعية في الدنيا، كما يكشف عن أن « الايمان » يَعِدُّ أرضية « المعرفة » في قلب الانسان ويحول دون ارتكاب الأخطاء في الحياة الدنيا.



وقد شبهت الآية الثانية غير المؤمنين (أو أعمالهم) بظلمات أعماق بحرٍ لُجِّي تتلاطم الامواج على سطحه، وسمائه ملبدة بالغيوم بحيث اذا أخرج شخص يده لم يكدرها أحد. وقد أكدت في النهاية: ان الذين لم يجعل الله لهم نوراً فمالهم من نور أبداً.

إن عبارات هذه الآية تثبت بوضوح ان الكفر وعدم الايمان ظلمات، وان الايمان والاسلام نور.

إن الأخطاء التي تصدر من غير المؤمنين ومن المنحرفين بدرجة من الكثرة بحيث يحار الناظر اليهم كيف انهم لا يكادون يروون حتى موضع اقدامهم؟! وكيف انهم لا يستطيعون تمييز ما ينفعهم عما يضرهم؟

حقاً انه لا ظلام أشد من الظلام الذي رسمته الآية، فان طبيعة أعماق البحار هي الظلام، لأن نور الشمس لا ينفذ إلا لمدى أقصاه سبعمائة متر، وبعد ذلك لا شيء سوى الظلام الدامس، هذا اذا لم يكن البحر لجياً، وإلا فلا تنفذ

أشعة الشمس الالمدى قريب جداً من سطح البحر، وفضلاً عن هذا فان الغيوم تمنع من وصول أشعة الشمس أساساً .

ويقول البعض : إن المراد من الظلمات الثلاثة في الآية هو ظلمات الكفار في الاعتقاد ، وظلماتهم في الكلام ، وظلماتهم في العمل .

ويعتقد بعض ان المراد منها هو : ظلمات القلب وظلمات الباصرة وظلمات السمع ، وأضاف بعض آخر : ان هذه الظلمات عبارة عن : انه لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم ، ويظن أنه يعلم^(١) ، ولكن لا منافاة بين هذه التفاسير ، ومفهوم الآية يسع جميع هذه التفاسير .



والآية الثالثة ، بعدما وصفت المؤمنين بـ « الصديقين » و « الشهداء » أضافت : « لهم أجرهم ونورهم » .

إن « الصديق » صيغة مبالغة لصادق ، وتعني كثير الصدق ، ويقول البعض : إنها تعني الشخص الذي لم يصدر منه كذب أبداً ، ويعتقد بعض آخر : انها تعني الذي اعتاد على الصدق بحيث يمتنع عليه الكذب عادةً ، وبتعبير آخر : حصلت له طبيعة ثانوية على أساس الصدق وعدم الكذب .

ويقول البعض : إنها تعني الشخص الصادق في اعتقاده وكلامه ، ويكشف سلوكه عن صدقه اعتقاده^(٢) .

وتجتمع جميع هذه المعاني في القول بانها صيغة مبالغة لصادق ، لأن

(١) الفخر الرازي الجزء ٢٤ الصفحة ٨ .

(٢) المفردات ومجمع البحرين (مادة صدق) ، تفسير الميزان الجزء ١٩ الصفحة ١٨٦ ، وتفسير المراغي الجزء ٢٧ الصفحة ١٧٤ ، وتفسير مجمع البيان الجزء ٩ الصفحة ٢٣٦ .

المفهوم آنذاك يكون شاملاً لجميع المعاني المتقدمة ، وعلى هذا فالمسلم أن المراد ليس جميع المؤمنين بل المؤمنون أصحاب الدرجات الرفيعة في إيمانهم .

أما « الشهداء » فقد يكون المراد من ذلك هو أن المؤمنين الصديقين لهم أجر كأجر الشهداء ، كما جاء ذلك في حديث للامام الصادق عليه السلام عندما جاءه شخص يطلب الدعاء له بالشهادة ، فاجابه الامام عليه السلام : « إن المؤمن شهيد » ثم تلا الآية : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾ ^(١) .

كما يحتمل ان يكون المراد من الشهداء ، هو الشهداء على أعمال الناس ، لأن المستشف من آيات عديدة هو أن فريقاً من المؤمنين (الانبياء والأئمة) يشهدون على الامم .

ولا يبعد الجمع بين هذين المعنيين ^(٢) .

إن « الاجر » في عبارة « لهم أجرهم ونورهم » تعني جزاء الأعمال ، أما « النور » ففسره البعض بأنه النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين الذي يفتح الطريق نحو الجنة يوم القيامة ، إلا أنه لا دليل على هذا التحديد ، وقد جاء هنا مطلقاً ، فينبغي القول بعمومية مفهومه وشموله للنور الذي يجعله الله للمؤمنين في الدنيا كما يشمل النور الذي يهتدي به المؤمنون الى الجنة يوم القيامة ^(٣) .

(١) تفسير مجمع البيان الجزء ٩ الصفحة ٢٣٨ .

(٢) احتمل البعض ان جملة ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ليست عطفاً على الجملة التي سبقتها ، وانها جملة مستقلة مركبة من مبتدأ وخبر ، إلا أن هذا الاحتمال بعيد جداً .

(٣) الظاهر من تعبير بعض المفسرين أن الضمائر في جميع هذه الجمل ترجع الى المؤمنين ، بينما يصرح صاحب الميزان بأن الضمير في « لهم » يرجع الى « الذين آمنوا » والضميرين الآخرين يرجعان الى « الصديقين » و « الشهداء » ، أي أولئك الذين لهم أجر الصديقين والشهداء ولهم نورهم ، إلا أن هذا الاحتمال بعيد .

وقد طرحت الآية الرابعة والاخيرة استفهاماً تقريرياً قائلة : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ
 اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ؟ وهذا دليل واضح على أن قبول
 الايمان متزامن ومقترن مع شرح الصدر ، وشرح الصدر أرضية خصبة للنور
 الالهي ، النور الذي يضيء العالم أمام أعين المؤمنين ، ويكشف له حقائقه كما
 هي .

إن المراد من « شرح الصدر » هو اتساع الروح الى درجة تكون مستعدة
 لاستيعاب حقائق كثيرة ، وما يقابل شرح الصدر هو « ضيق الصدر » اي تضيق
 الروح بدرجة لاتمكن من استيعاب شيء من الحقائق ، وبتعبير آخر : إن شرح
 الصدر هو اتساع وعظمة الروح الذي يُعَدُّ الارتباط بالذات اللامتناهية أحد
 عوامله ، نعم إن الروح التي تتخذ صبغة الله وتتسع تكون أهلاً لقبول العلوم
 والمعارف الالهية .

إنها لا تتسع فحسب ، بل تلين وتختصب وتتهيء لنشر بذور المعرفة فيها ،
 ولهذا صرحت الآية في النهاية : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

إيضاحات :

علاقة الايمان بالعلم في الروايات الاسلامية :

١ - جاء في حديث عن الامام الصادق عليه السلام انه قال :

« ان المؤمن ينظر بنور الله » ^(١) فطلب احد اصحابه بيان معنى الحديث

فقال عليه السلام : هذا انما هو لاجل ان الله تعالى قد خلق المؤمن من نوره واحاطه

(١) بحار الانوار الجزء ٦٤ الصفحة ٧٤ الحديث رقم ٢ .

برحمته .

٢ - ونقرأ في حديث آخر عن الرسول الاكرم ﷺ انه قال :

« اتقوا فراسة المؤمن فأنه ينظر بنور الله ثم تلا : ان في ذلك لآيات للمتوسمين »^(١).

٣ - وفي رواية اخرى عن الامام موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه الكرام عن رسول الله ﷺ قال : « اياكم وفراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى »^(٢).

٤ - ونجد ان هذه الأمثال اتخذت أهمية كبرى كما هو المشاهد في بعض الروايات حيث ينقل نهج البلاغة عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال : « اتقوا ظنون المؤمنين فان الله سبحانه جعل الحق على السنتهم »^(٣).

٥ - وجاء عنه عليه السلام في نهج البلاغة ايضاً انه قال : وبالصالح يستدل على الايمان وبالايمان يعمر العلم »^(٤).

٦ - ونختم البحث بحديث عن الامام الباقر عليه السلام يقول فيه : « ما من مؤمن الا وله فراسة ينظر بنور الله على قدر ايمانه »^(٥).

وكما قلنا في بداية البحث ، فان الايمان الصادق يجعل الانسان عاشقاً للحق والحقيقة ومذعناً أمام الواقعيات والحقائق ، وبهذا تتحرر روح الانسان من جميع القيود وتتهياً لقبول جميع المعارف .

(١) بحار الانوار الجزء ٦٤ الصفحة ٧٤ الحديث رقم ٤ .

(٢) بحار الانوار الجزء ٦٤ الصفحة ٧٥ الحديث رقم ٨ .

(٣) الكلمات القصار جملة رقم ٣٠٩ .

(٤) نهج البلاغة خطبة رقم ١٥٦ .

(٥) عيون الاخبار الجزء ٢ الصفحة ٢٠٠ (ينقله عن كتاب الحياة الصفحة ٩٢) .

٣ - علاقة « الصبر والشكر » بـ « المعرفة »

في البداية نصغي خاشعين للآيات التالية :

١ - ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾
(ابراهيم / ٥)

٢ - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

(لقمان / ٣١)

٣ - ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

(سبأ / ١٩)

٤ - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾
(الشورى / ٣٢ - ٣٣)

جمع الآيات وتفسيرها:

السير في الآفاق والأنفس مع الصابرين :

تحدثت الآية الاولى عن « بني اسرائيل » ، حيث بُعثَ فيهم موسى عليه السلام

بمعاجز وآيات إلهية واضحة ، وكان موظفاً بأن يخرجهم من ظلمات الشرك والكفر والفساد الى نور التوحيد الذي هو ينبوع جميع البركات والخيرات ، ولأن يذكرهم بأيام الله ، ثم قالت الآية في النهاية : ﴿ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُوْرٍ ﴾ .

ما المراد من أيام الله ؟

هناك بحث بين المفسرين في هذا المجال ، فمنهم من فسرهما بالنعم والابتلاءات الالهية^(١) ، ومنهم من فسرهما بأيام انتصار الرسل والأمم الصالحة ، ومنهم من اعتبرها اشارة الى أيام عذاب الأقوام الطاغية والعاصية والظاهر عدم المنافاة بين هذه التفاسير لانها كلها من « ايام الله » .

إنَّ الـ «الأيام» معناها واضح ، وازافتها الى الله «اضافة تشريفية» ، والمراد منها هو جميع الايام المهمة من حيث أهميتها البالغة ، أو من حيث أن فيها نعمة إلهية شملت أقواماً صالحين كالانتصارات العظيمة على جند الشرك والظلم ، وكالنجاة من الظلمة والطواغيت ، وكالموقفية لأداء الجهاد أو فريضة عظيمة اخرى .

أو من حيث شمول عذاب الله ونقمته لأقوام عصاة وهلاكهم ، أو شمول نبذة من العقاب الالهي لهم ليستيقظوا من غفلتهم ويعوا ، كل هذه هي «أيام الله» وداخله في مفهومها الواسع .

أما سبب كون هذه الآيات عبرة للصابرين والشاكرين فقط دون غيرهم (ينبغي الالتفات هنا الى أن «صبور» «وشكور» صيغة مبالغة ، الاولى تعني كثير الصبر والثانية كثير الشكر) ، فذلك لأجل ان دراسة دقائق هذه الحوادث

(١) لقد جاء هذا التفسير في عدد من الاحاديث النبوية . تفسير الميزان الجزء ٥ الصفحة ١٥ و ١٦ ،

وتفسير نور الثقلين الجزء ٢ الصفحة ٥٢٦ .

وجذورها من جهة ، ونتائجها من جهة أخرى يحتاج الى صبر وتأن .
إضافة الى هذا ، فانه لا يستفيد من هذه الحوادث إلا أولئك الذين يقدرون
نعم الله ويشكرونه عليها ، وعلى هذا ، فالصبر والشكر أرضيتان ملائمتان للمعرفة
والعلم .

كما يحتمل ان يكون تقارن الصبر مع الشكر لأجل أن هؤلاء مجهزون
بالصبر عند المصائب ، وبالشكر عند النعم ، وعلى هذا فلا يركعون أمام
المصائب ، ولا يغترون عند نزول النعم ، فلا يضلون أنفسهم على أي حال ، فهم
مؤهلون لتقبل المعرفة وأخذ العبر والدروس من هذه الحوادث العظيمة .



في الآية الثانية والرابعة جاءت هذه العبارة : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ، وقد ذُكرت بعد التعرض لحركة السفن في البحار والمحيطات
التي تتم بإيعاز من الله وبلاستعانة بالرياح فتطوي المسافات البعيدة وتصل الى
مقاصدها بسرعة .

بديهي ان هذا الموضوع هو إحدى آيات الله التكوينية ، وآية من آيات
النظام الالهي وقدرة الله .

لكن هل يا ترى يكون استثمار هذه الآيات الالهية الموجودة في عالم
الوجود وحتى الكامنة في هبوب الرياح ممكناً للجميع ، أو أنه خاص بأولئك
الذين يدرسون ويتابعون نظام الخلق العجيب بدقة وصبرٍ وتأنٍ الى المستوى
الذي يتيح لهم العلم البشري فرصة الاستثمار ، ومن جهة أخرى فان الدافع نحو «
شكر المنعم » نفسه عامل للسعي والحركة في طريق المعرفة .

يقول « القرطبي » في تفسيره :

« والآية : العلامة ، والعلامة لا تتبين في صدر كل مؤمن إنما تتبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء »^(١).

وقد جاء في تفسير « روح البيان » :

« مبالغ في الصبر على المشاق فيتعب نفسه في التفكير في الانفس والآفاق »^(٢).

والجميل هنا هو ان الهواء الذي يحيط بالكرة الأرضية من أطف الموجدات ، وبالرغم من ذلك فهو عندما يتحرك ويتنقل فانه لا يحرك السفن العظيمة في البحار فحسب ، بل كذلك الغيوم التي تُعدُّ ينابيع للغيث ، فيأخذ بها نحو الصحاري والأراضي الميتة فيحييها ، كما أنه بانتقال الهواء الحار الى المناطق الباردة والهواء البارد الى المناطق الحارة تنهياً الأراضي الميتة للحياة ، واطافة الى هذا فان الهواء يلقي النباتات كالزهور والاشجار ويحمل احياناً البذور فتُزرع في الأماكن التي تسقط فيها ، ألم تكن هذه من آيات الله ؟ ومن يمكنه استثمار هذه الآيات غير الصابرين والشاكرين ؟

وقد جاء في حديث للرسول الأعظم ﷺ : « الايمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر »^(٣) وهذا الحديث تأكيد لما جاء في الآيات .



(١) تفسير القرطبي الجزء ١٤ الصفحة ٧٩ .

(٢) روح البيان الجزء ٧ الصفحة ٩٨ .

(٣) تفسير مجمع البيان الجزء ٧ الصفحة ٣٢٣ ، تفسير الفخر الرازي الجزء ٢٥ الصفحة ١٦٢ ، وتفسير المراغي الجزء ٢١ الصفحة ٩٧ ، وتفسير القرطبي الجزء ٥ الصفحة ٣٥٧١ ، وتفسير اخرى .

وأخيراً فإن الآية الثالثة أشارت الى قوم سبأ ، حيث شملهم التوفيق الالهي فاستطاعوا أن يوجدوا سداً عظيماً بين الجبال في « اليمن » : وادخروا فيه الماء الكثير ، وتمكنوا من ايجاد بساتين كثيرة ، فغمروا في النعم والفرح ، إلا أنهم سلكوا طريق كفران النعمة ، فتسلطت الأقوام المرفهة على الأقوام الضعيفة ظلماً وجوراً فعمّ مساكنهم الخراب والدمار ، بحيث هلك الحرث والنسل لانفجار السد ، فتفككوا وتشتتوا بشكل حيث جعلهم الله أحاديث للآخرين ﴿ فجعلناهم أحاديث ﴾ وأهلكهم جميعاً ﴿ ومزقناهم كل ممزق ﴾ ، ثم أضاف القرآن : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

وذلك لأنهم يستخلصون الدروس والعبر بدقتهم وتأنهم .

ومن جهة فان هذه الحقيقة تثبت ، وهي : ان بين الحياة والممات مسافة قصيرة جداً ، بحيث يمكنك البحث عن الممات في قلب الحياة ، فان وفرة الماء التي سببت تقدم قوم سبأ وازدهار بلادهم وتطور حضارتهم ، سببت هلاكهم يوماً ما !

ومن جهة اخرى ، فان هذا يكشف عن شدة ضعف هذا الانسان المغرور ، وذلك لأنه يقال انّ السدّ (الذي أطلق عليه سدّ مأرب) ، قد ثقب بواسطة الجرذان الصحراوية ثقباً صغيراً في البداية ثم توسع الثقب الى أن أدى بالسدّ لأن ينهدم بالكامل ، وبهذا نرى أن جرذاناً صحراوية أبادت حضارة عظيمة .

ومن جهة ثالثة ، فان المستكبرين من قوم سبأ الذين ما استعدوا لأن يروا المستضعفين بقربهم ، وحسبوا أنه ينبغي وجود فاصلة او سد عظيم كسد مأرب بين أقلية الأشراف والأكثرية المستضعفة ، طلبوا من الله ان يبعد مدنها عن مدن المستضعفين كي لا يتمكنوا من السفر مع المستكبرين ، ويبقى امتياز السفر

خاصاً بهم ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ إلا أن الله فرقهم بشكل حيث لاهم بقوا ولا ظنّونهم الباطلة .

ومن جهة رابعة ، فان حياتهم المرفهة أغفلتهم عن ذكر الله ، وما صحوا إلا بعد أن انتهى كل شيء .

وعلى هذا ، فيمكننا بالتأمل والدقة والاستعانة بالعقل أن نستشف آيات كثيرة من هذه القصة وهذا الحديث^(١) .



النتيجة :

ان المستشف من الآيات الاربع الماضية هو : ان كل من كان أدق وأكثر صبراً في دراسته لاسرار الخلق والحياة الاجتماعية ، وكل من كان شاكراً للنعم ومستعيناً بوسائل المعرفة فان له نصيباً أوفر وأكثر من المعرفة ، ولهذا كان الصبر والشكر أرضيتين ممهدين للمعرفة .



٤ - المعرفة تهيء الارضية للمعرفة

تمهيد :

المعروف هو ان الثروة تجلب الثروة ، اي ان مقداراً من رأس مال يكون

(١) ينبغي الالتفات الى ان مفردة « أحاديث » التي جاءت في الآية ، منتهى الجموع ونكشف عن وجود أحاديث وقصص كثيرة في ماضي قوم سبأ لاقصة واحدة .

ارضية لربح رأس مال اكبر ، وكلما ازداد مقداره ازداد مورد الانسان من رأس مال ذلك .

ان هذا الامر يحكم العلوم والمعارف كذلك ، فالذين يملكون رأس مال من العلوم تتوفر عندهم الارضية الخصبة لتقبل علوم ومعارف اخرى ، ولهذا قلنا : ان المعرفة تهيء الارضية للمعرفة اي لنيل معارف اخرى هي ارفع واوسع .

وقبل الخوض في البحث نستمع خاشعين للآيات التالية :

١ - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَانِيتُكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾

(الروم / ٢٢)

٢ - ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(النمل / ٥٢)

جمع الآيات وتفسيرها:

مالم تكن منا لن تطلع على اسرارنا :

ان الآية الاولى من جملة الآيات الكثيرة في سورة الروم التي اشارت لآيات الآفاق والانفس ، وعدت بعضاً من آيات الله في العالم الاكبر (الكون) وبعضاً من آيات العالم الاصغر « الانسان » ف اشارت الآية الى العالم الاكبر من جهة ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، ثم اشارت الى بعض دقائق خلق الانسان من جهة اخرى ﴿ وَاخْتِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَانِيتُكُمْ ﴾ .

الاختلاف ليس في اللسنة والالوان الظاهرة فحسب ، بل في السنة الفكر

والوان الاذواق والبواطن ، فانها مختلفة الى درجة بحيث لا يمكن العثور على شخصين متشابهين بالكامل ، وهذا الاختلاف جارٍ حتى بالنسبة للتوأم .

ان هذا الاختلاف يسبب - من جهة - التمايز بين الناس ، لانه اذا لم يكن تمايز بين الناس اختل النظام الاجتماعي للحياة ، كما هو الحال بالنسبة للتوأم فالذي يعاشرهم كثيراً ما يقع في اخطاء تجاههم ، فقد يقدم احدهم من السفر ويقوم صديقهم بزيارة الآخر الذي لم يسافر . او يمرض احدهم فيزور الآخر وهو صاح . أو يعطي الابوان الدواء للسليم لعدم التمييز بينهما .

تصوروا ما الذي يحصل لو كان الناس جميعاً متشابهين من جميع الجهات ؟!! ومن جهة اخرى . فان هذا التنوع والاختلاف يسبب انخراط كل مجموعة من الناس في جانب من جوانب الحياة وبهذا الاختلاف في الاذواق والقابليات تسدّ جميع احتياجات البشر الاجتماعية فلا يحصل خللٌ في هذا المجال ، الم تكن هذه الدقة العجيبة في هذا النظام من آيات الله ؟!

والجدير بالذكر ان المفسرين ذكروا احتمالات عديدة في تفسير (اختلاف الألسنة) فتارة قالوا : إن المراد منه هو الاختلاف في اللغة ، حيث نعلم ان اللغات الموجودة حالياً اكثر من الف لغة ، وهذا التنوع الذي لانريد الخوض في تفصيلاته فعلاً ، جيد لتعرف الاقوام المختلفة على بعضها البعض .

وتارة قالوا : ان المراد هو اللهجات وكيفية حديث الاشخاص التي تختلف من شخص الى آخر اختلافاً كبيراً ، فلكلٍ منطق واسلوب في البيان يعبر عن شخصيته .

وتارة قالوا : ان المراد هو الاصوات او ما يصطلح عليه بـ «الذبذبات» الذي يختلف عند الاشخاص اختلافاً فاحشاً ، ولهذا فان الاعمى يميز الاشخاص من اصواتهم ، كما ان البصير يميزهم من وجوههم .

ومن هنا يتضح ان اقتران اختلاف الألسنة والألوان بخلق السموات والارض في الآية هو لأجل الإشارة الى ان جميع موجودات العالم - صغيرها وكبيرها ، وابسطها واعقدها - بحسب الظاهر - تحكمها قوانين وانظمة دقيقة ، وهي آيات لعلم الله وقدرته وينبغي الإشارة الى ان الآية صرحت في النهاية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ نعم ان العلماء هم الذين يدرسون اسرار الكون ويتفحصونها واحدة تلو الاخرى ، وهم الذين تكون معرفتهم السابقة ارضية خصبة لمعارفهم الاكثر والأدق .



وقد تحدثت الآية الثانية عن مجاميع صغيرة مفسدة تعيش في « وادي القرى » بين قوم صالح (على ما يقوله المفسرون) ، وكان عددهم تسعة رهط (اي مجموعات صغيرة) ، وكانوا يفسدون في الأرض دائماً كما يصفهم القرآن الكريم ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ .

أمهلهم الله كثيراً كفرصة للتوبة والرجوع الى أنفسهم ، لكن ما زادهم الأمهال إلا غروراً ، وكان نهاية أمرهم أن أنزل الله عليهم صاعقة من السماء ، وزلزلة من الارض ختمت حياتهم .

يقول القرآن فيهم : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي خالية منهم بسبب ظلمهم وطغيانهم .

ثم يضيف : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

إن عبارة ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ تدل على ان الظلم هو السبب في دمار البيوت وخرابها ، قد نُقِلَ عن ابن عباس انه قال : إني وجدت هذه الحقيقة في كتاب الله

وهي : إن الظلم يهدم البيوت ، ثم تلا الآية المذكورة .

وقد جاء في التوراة : يا بن آدم لا تظلم فيهدم بيتك^(١) .

وينبغي الالتفات هنا الى أن مفردة « خاوية » تعني - في الأصل - خالية ، إلا أن كثيراً من المفسرين فسرها بالخربة ، وهذا قد يكون لأجل أن البيت اذا خلى وهُجِر خرب وانهدم^(٢) .



النتيجة :

من المعلوم ان آيات الله - سواء كانت آفاقية او في الانفس او تعلقت بدروس وعبر تاريخ الاقوام الغابرة - تخص الجميع ، وبما ان الجميع لا يستفيد منها ولا يستثمرها يقول القرآن عنها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .
وتارة يقول : « للمتقين » .

وتارة يقول : « لكل صَبَّار شكور » .

وهذه اشارة الى ان هذه الفرق - هي التي تنتفع بهذه الآيات وتستفيد منها دون سواها ، لما عندهم من ارضية خصبة لهذا الامر .

وهناك آيات كثيرة في القرآن المجيد لا تخلو من الاشارة الى حقيقة ان

(١) تفسير روح المعاني الجزء ١٩ الصفحة ١٩٤ .

(٢) ذكر صاحب تفسير روح البيان معنيين لمادة (خوى) احدهما الخلو والثاني السقوط والانهدام ، ومن هنا يعبر عرب الجاهلية عن النجم اذا سقط (خوى النجم) الا ان الظاهر ان المعنى الاول لهذه المادة هو : الاول فقط ، ويستعمل تعبير (خوى النجم) اذا ما غرب نجم او اقل بلا مطر (حيث كان يعتقد عرب الجاهلية ان طلوع كثير من النجوم مترامن مع المطر واذا لم يكن هناك مطر استعملوا التعبير السابق لذلك النجم) .

المعرفة تعتبر ارضية معدة وخصبة لمعارف اكثر ، كما جاء ذلك في الآيات التالية :

﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(الاعراف / ٣٢)

﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(يونس / ٥)

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(فصلت / ٣)

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة / ٢٣)

كما اتضح - مما مر - الجواب على السؤال عن حاجة العالمين لشرح وتبيين الآيات الالهية .

٥ - علاقة الخوف بالمعرفة

تمهيد :

إنَّ الانسان مالم يشعر بالمسؤولية لا يلتفت الى مصادر المعرفة وسوف لا يبالى بآيات الله ومواعظه .

ومن هنا ينبغي القول بان الاحساس بالمسؤولية والخوف من الله هو احدى ارضيات المعرفة التي تُعدُّ روح الانسان وتهيئها لتقبل علوم ومعارف مختلفة .

وبالالتفات الى هذا التمهيد نستمع خاشعين الى الآيات التالية :

١ - ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ - إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾

(هود / ١٠٢ - ١٠٣)

٢ - ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشْأًا نَّخْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾

(سبأ / ٩)

٣ - ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

(الذاريات / ٣٧)



شرح الآيات وتفسيرها :

المعرفة والشعور بالمسؤولية :-

إن الآية الاولى بعدما أشارت الى ماضي بعض من الاقوام السالفة (مثل قوم لوط وشعيب والفراعنة) ونزول أنواع من العذاب عليها ، قالت : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ ثم قالت في النهاية : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ثم قالت : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ أي في قصص الامم السالفة وعقابهم ونزول العذاب عليهم آية واضحة لمن خاف عذاب الآخرة .

لقد جاءت مفردة « آية » نكرة ، وذلك للإشارة الى عظمة وأهمية هذه الآية الالهية ودور العبرة فيها ، والتعبير بـ ﴿ لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ اشارة الى

الارضية المُعدّة للمعرفة عند اولئك الذين يخافون من عذاب الاخرة .
أما اولئك الذين لا يخافون عذاب الاخرة فلا يدركون علاقة هذه الذنوب
بهذه الانواع من العذاب الرباني ، إنهم يعدون العذاب أمراً قهرياً وجبرياً ،
أو يرجعون أسبابه الى حركة الافلاك والنجوم وأوهام وخرافات اخرى ، ولا
يدركون الاسباب الحقيقية له^(١) .

إضافة الى هذا ، فإن الانسان لا يقطع بالعذاب الدنيوي مالم يقطع بالعذاب
الاخروي ، لان كلاهما وليد شيء واحد وهو معرفة الله ومعرفة عدالته .
إن جملة « وهي ظالمة » تلميح الى ان الاخذ والدمار كان بسبب ظلم تلك
القرى ، وبتعبير آخر : فان جميع الانحرافات العقائدية والسلوكية داخلية في
مفردة الظلم .



والآية الثانية بعدما أشارت الى آيات الله في السموات والارض ، وبيان
قدرته على كل شيء أكدت بأن الله لم يعجز عن عذاب اولئك العصاة الذين
سخرُوا بآيات الله ورموك بالجنون ، واعتبروا المعاد محالاً ، إن شئنا خسفنا بهم
الارض ، أو أسقطنا عليهم من السماء أحجاراً سماوية ﴿ إِنَّ نَشْأَ نَخِيفُ بِهِمُ
الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ .

إن « كِسَفَ » جمع كِسَفٍ ويعني القماش المقطّع قطعاً قطعاً ، وقد
استعملت هذه المفردة هنا اشارة الى بعض الكرات السماوية التي تنفجر تحت

(١) لقد اشير الى هذا الأمر في التفاسير التالية : تفسير روح المعاني الجزء ١٢ الصفحة ١٢٣ ، وتفسير
الفخر الرازي الجزء ١٨ الصفحة ٥٨ ، وتفسير روح البيان الجزء ٤ الصفحة ١٨٥ .

ظروف خاصة وتتحول الى قطع متعددة تسبح في السماء ، واذا ما دخلت في مدار الارض ، تحولت (بايعاز من الله) الى أمطار من حجر ، او سقطت على وجه الارض بصورة قطع حجرية كبيرة ، كلٌ منها يمكنها تدمير منطقة واسعة من سطح الارض ، كما ان العلماء اكتشفوا نماذج من هذه الكُتل الحجرية في منطقة « سيبيريا » .

ثم قالت الآية في النهاية : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي لكل عبد راجع الى الله وخائف من عذابه ومتخذ سبيل التوبة .
المسلم هو ان هذه الآيات عامة لجميع البشر ، لكن لا ينتفع بها إلا من خاف الله وشعر بالمسؤولية^(١) .

وبتعبير آخر : فان جملة ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ بمثابة بيان لسبب جملة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ ، أي ان الالتفات الى حقيقة العبودية والتوبة والإنابة سبب للانتفاع بهذه الآيات^(٢) .

وفي الحقيقة ، إذا ما درسنا حقيقة مفهوم العبودية ، رأيناه لا يخلو من التوبة والإنابة عند اقتراف الذنب .



أما ثالث وآخر آية في البحث ، فقد أشارت مرة اخرى الى المصير الرهيب لقوم لوط ذلك المجتمع الذي بلغ من العار أقصاه ، وسخر من جميع قيم الايمان والانسانية وغمر في وحل الفساد والفحشاء ...

(١) تفسير القرطبي الجزء ٨ الصفحة ٥٣٤٦ .

(٢) تفسير روح المعاني الجزء ٢٢ الصفحة ١٠٤ .

إن الآية بعدما أشارت الى تدمير مدنهم وتخريبها قالت : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ يعتقد الكثير أن مدن قوم لوط كانت في الشامات قرب « البحر الميت » أو بين الشام والحجاز ، وكان يطلق عليها « المدائن المؤتفكة » ، ويقال : إنه عندما زلزلت الارض مدنها هدمتها ، ثم نزلت عليهم أمطار من الاحجار ، وانشقت عندها الارض شقاً نفذ فيه ماء « البحر الميت » ، وبذل هذه المدن الى مستنقعات نتنة ، ولهذا يدعي البعض العثور على آثار من الاعمدة وغيرها من هذه المدن في أطراف البحر الميت .

وعلى أي حال ، فإن هذه الآثار الباقية - سواء كانت في اليابسة أو تحت المستنقعات الآسنة - درس وعبرة ، ولا ينتفع بهذا الدرس إلا الذين يخافون عذاب الله ، ويشعرون بالمسؤولية (وتواجدت فيهم أرضية المعرفة) .

وبتعبير بعض المفسرين :

آية العبرة هذه هي لأولئك الذين من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوي القلوب القاسية فانهم لا يعتدون بها ولا يعدونها آية ودليلاً^(١) .

النتيجة :

إن الخوف سواء كان بمعنى الخوف من الله أو من عذابه أو من الذنب والمعصية (لأن جميعها ترجع الى معنى واحد) ، يُعدُّ الأرضية لروح الانسان لتقبل الحقائق والمعارف ، لأن الانسان مالم يشعر بالمسؤولية لا يتجه نحو

(١) روح المعاني الجزء ٢٧ الصفحة ١٣ .

مصادر المعرفة ولا يبحث في آيات الآفاق والأنفس والتكوين والتشريع .
 وخلاصة الحديث ، ان الحركة نحو العلم والمعرفة كأي حركة أخرى
 تحتاج الى محرك ، والمحرك يمكنه أن يكون احد الامور التالية :
 ١ - جاذبية العلم والعشق للمعرفة التي أودعت في روح الانسان منذ
 البداية .

٢ - الاطلاع على النتائج المثمرة والآثار القيمة للمعرفة ، ووصول الانسان
 الى المراحل الرفيعة تحت ظلها .
 ٣ - الشعور بالمسؤولية والخوف من العواقب المؤلمة لفقدان المعرفة
 والجزاء المترتب عليها .

إن كلاً من هذه الامور يمكنها أن تهني الأرضية المناسبة لطبي هذا الطريق
 المليء بالتعرجات ، واذا ما تعاضدت هذه الامور مع بعضها البعض ، فان الحركة
 نحو المعرفة ستكون أسرع وأعمق وأكثر ثماراً .



وآخر الحديث : إن أكبر فخر للانسان هو العلم والمعرفة ، والجاهلون هم
 موتى الأحياء .

إن بلوغ مرحلة المعرفة الكاملة ، لا يتم إلا مع توفر الأسباب ورفع الموانع
 والحجب وتهيئة الأرضية المناسبة .

وما أجمل ما قاله الشاعر :

فأجسامهم قبل القبور قبور	وفي الجهل قبل الموت موت لأهله
فليس له حتى النشور نشور	وانّ امرءاً لم يحيي بالعلم ميته



ربّنا ! علّمنا المعارف الحقيقية ، والأرفع من ذلك أي
معرفة ذاتك المقدسة الطاهرة وصفاتك الجليلة .

إلهي ! نعلم ان أعظم فخرنا هو علمنا ومعرفتنا ،
والاطلاع على أسمائك وصفاتك وعالم خلقك أي أفعالك ،
إلاّ أنه لا يتيسر طيّ هذا الطريق الصعب إلاّ بتوفيقك ، فوفقنا
وثبت أقدامنا .

يا مولانا ! إن شياطين الدرب كثيرون ، وأوديته
خطرة ، وموانعه عديدة ، ولا يمكن رفع هذه الموانع إلاّ
بامداداتك ، فزودنا بها وبألطافك الخاصة .

أمين يارب العالمين

نهاية المجلد الاول من نفحات القرآن

(التفسير الموضوعي)

صباح الجمعة - ٨ رجب ١٤٠٨ هـ . ق

الموافق لـ ٧ / ١٢ / ١٣٦٦ هـ . ش

الفهرس

الفهرس

المقدمة

٥	تاريخ التفسير الموضوعي
٥	الانماط المختلفة للتفسير
٧	ماهو التفسير الموضوعي ؟
١٠	ماهي المشكلات التي يُن حلُّها بالتفسير الموضوعي ؟
١٢	تاريخ التفسير الموضوعي
١٥	التفسير الموضوعي في كلمات العلماء السابقين
١٨	الاسلوب الصحيح في التفسير الموضوعي
١٨	يوجد اسلوبان للتفسير الموضوعي
٢٠	مشكلات التفسير الموضوعي
٢١	لماذا لم ينم هذا النوع من التفسير مواء كفيًا ؟



كل عمل باسم الله

٢٧	تمهيد
٢٩	شرح المفردات
٣١	جمع الآيات وتفسيرها
٣١	لماذا نبدأ فقط بـ «بسم الله» ؟
٣٤	توضيحات
٣٤	١ - الاهمية الخاصة لـ «بسم الله»
٣٦	٢ - هل ان بسم الله جزء لكل سورة ؟

- ٣ - لماذا لم تُذكر بسم الله في بداية سورة براءة ؟ ٤٠
- ٤ - لا تقرنوا اسم الله باسم غيره ؟ ٤١
- نظرية المعرفة ٤٥
- هل هناك عالم خارج اذهاننا ؟ ٤٦
- القرآن ووجوب المعرفة
- تمهيد ٥١
- وجوب تحصيل العلم ٥٢
- ١ - وجوب تحصيل العلم ٤٦
- ٢ - تكرار اللوم والتوبيخ على ترك التفكير ٥٤
- ٣ - التأكيد على لزوم التعليم والتعلم ٥٤
- ٤ - العلم والمعرفة هما الهدف من خلق العالم ٥٦
- ٥ - الهدف من بعثة الانبياء هو التعليم والتربية ٥٦
- ٦ - التفكير والتدبر هو الهدف من نزول القرآن ٥٧
- ٧ - المعرفة هي الهدف من المعراج ٥٨
- ٨ - الدعوة للإسلام بدأت بالدعوة للعلم ٥٨
- ٩ - العلم نور وضياء ٥٩
- ١٠ - إدراك أسرار الوجود خاصّ بالعلماء ٦٠
- ١١ - الله أول معلّم ٦٠
- ١٢ - بالعلم يتميز الإنسان عن الموجودات الأخرى ٦١
- ١٣ - درجات القرب من الله تتناسب مع درجات المعرفة ٦٢
- ١٤ - الأنبياء (ع) يطالبون بعلم أكثر ٦٣
- ١٥ - المعرفة مفتاح نجاة الإنسان ٦٤
- ١٦ - العلم فخر بجميع أشكاله ٦٦
- ١٧ - المعرفة شرط أساسي للإدارة والقيادة ٦٧
- ١٨ - العلم منبع الايمان ٦٨

- ١٩- العلم منشأ تقوى الله وخشيته ٧٠
- ٢٠- العلم منشأ الزهد ٧١
- ٢١- التطور المادي وليد العلم ٧٢
- ٢٢- العلم منبع القدرة (والعلم قدرة) ٧٣
- ٢٣- التزكية تنشأ عن العلم ٧٤
- ٢٤- الصبر والتحمل ينبع عن العلم ٧٥
- ٢٥- العلم والمعرفة خير كثير ٧٦
- ٢٦- اصحاب السعير هم الجاهلون ٧٧
- ٢٧- الجهل مصدر انحطاط البشر ٧٨
- ٢٨- الجهل عمى ٧٩
- ٢٩- الحياة مع الجهل هي أرذل العمر ٨٠
- ٣٠- الكفر ينشأ عن الجهل ٨٠
- ٣١- الجهل السبب الاساسي للخسران ٨٢
- ٣٢- الجهل منبع لاشاعة الفساد ٨٣
- ٣٣- الجهل أساس التعصب والعناد ٨٤
- ٣٤- الجهل منشأ التحجج ٨٦
- ٣٥- الجهل هو سبب التقليد الأعمى ٨٧
- ٣٦- الجهل يُسببُ الخلاف والفرقة ٨٨
- ٣٧- الجهل هو سبب إساءة الظن بالآخرين ٨٩
- ٣٨- فقدان الأدب ينشأ عن الجهل ٩٠
- ٣٩- الجهل سبب الندم والمشاكل الإجتماعية ٩١
- ٤٠- الجهلُ وتبدل القيم ٩٢
- استخلاص واستنتاج ٩٣
- إيضاحات ٩٤
- ١- إمكانية المعرفة من وجهة نظر فلسفية ٩٤

٩٤	ماهي شروط الوصول الى المعرفة
٩٧	الجواب
٩٩	ايضاح
١٠١	٢- العلم البشري المحدود
١٠٢	شرح المفردات
١٠٣	جمع الآيات وتفسيرها
١٠٨	نتيجة البحث
١٠٩	٣- الفلاسفة والعلماء يشهدون بقصور العلم البشري
١١٤	تذكير



٢- مصادر وسُبل المعرفة

١١٩	تمهيد



١- الحس و التجربة

١٢٥	شرح المفردات
١٢٦	جمع الآيات وتفسيرها
١٢٩	النتيجة
١٢٢	الفلاسفة ومصدر الحس
١٣٠	ايضاحات



٢- العقل

١٣٧	تمهيد
١٤٠	شرح المفردات
١٤٤	أفعال العقل
١٤٦	جمع الآيات وتفسيرها

١٤٦	قيمة العقل في مقياس القرآن
١٥٢	إيضاحات
١٥٢	١- الادراكات العقلية برؤية فلسفية
١٥٥	٢- شأن العقل في الروايات الاسلامية
١٥٧	٣- المخالفون لتحكيم العقل



٣- التاريخ والآثار التاريخية

١٦١	تمهيد
١٦٣	شرح المفردات
١٦٦	جمع الآيات وتفسيرها
١٧٠	إيضاحات
١٧٠	١- مرآة التاريخ
١٧٢	٢- جاذبية التاريخ
١٧٣	٣- وشائب التاريخ
١٧٥	٤- فلسفة التاريخ
١٧٦	٥- التاريخ «النقلي» و«العلمي» و«فلسفة التاريخ»
١٧٩	٦- التاريخ في نهج البلاغة والروايات الاسلامية
١٧٩	الاجابة على إشكال
١٨٣	آخر الحديث حول التاريخ المعلم



٤- الفطرة والوجدان والشعور الباطني

١٨٧	تلميح
١٩٠	معاني المفردات
١٩٢	جمع الآيات وتفسيرها
١٩٧	النتيجة

١٩٧	إيضاحات
١٩٧	١- فروع الفطرة والوجدان
١٩٩	٢- هل توجد معرفة فطرية ؟
٢٠٢	سؤال
٢٠٢	الجواب
٢٠٣	سؤال آخر
٢٠٤	الجواب
٢٠٤	٣- «الفطرة» و «الوجدان» في الروايات الاسلامية
	٥- الوحي السماوي
٢٠٩	تمهيد
٢١١	شرح المفردات
٢١٥	جمع الآيات وتفسيرها
٢١٥	شمس الوحي الساطعة
٢٢٠	إيضاحات
٢٢٠	١- أقسام « الوحي » في القرآن المجيد
٢٢٢	٢- ما هي حقيقة الوحي ؟
٢٢٥	٣- الوحي عند فلاسفة الشرق والغرب
٢٢٩	٤- فرضية كون الوحي غريزة
٢٣٣	٥- كيف تيقن الرسول بأن الوحي من الله ؟
٢٣٤	٦- القرآن أغنى مصدر للمعرفة في الاحاديث الاسلامية
٢٣٦	٧- الوحي الخاص الى غير الأنبياء (وحي الالهام)
٢٣٨	٨- كيفية نزول الوحي على الرسول
٢٤٠	٩- الالهامات الغريزية



٤٧٥	الفهرس
٢٤٧	تمهيد
٢٥٠	شرح المفردات
٢٥١	جمع الآيات وتفسيرها
٢٦١	النتيجة
٢٦١	إيضاحات
٢٦١	١ - نماذج جميلة من الكشف والشهود في الأحاديث الإسلامية
٢٦٦	٢ - كيف تُرفع الحجب ؟
٢٦٩	٣ - سبعة منامات صادقة في القرآن المجيد
٢٧٧	النتيجة
٢٧٨	سؤال
٢٧٨	الجواب
٢٧٩	٤ - المكاشفات الرحمانية والمكاشفات الشيطانية
٢٨٣	سؤال
٢٨٣	الجواب

حُجُب المعرفة وآفاتها

٢٨٧	تمهيد
٢٨٨	حُجُب المعرفة
٢٩٠	شرح المفردات
٢٩٣	جمع الآيات وتفسيرها
٢٩٣	النفوذ التدريجي لآفات المعرفة
٢٩٣	(الانحرافات والرین والأمراض والأكنة والأققال)
٣٠٤	النتيجة الأخيرة

حجب المعرفة وآفاتها (بالتفصيل)

تمهيد ٣٠٧

الصفات التي تحول دون المعرفة

- ١ - حجاب اتخاذ الهوى إلهاً ٣١١
- جمع الآيات وتفسيرها ٣١٢
- إتباع الهوى يُعمي القلب ٣٢٢
- ٢ - حجاب حب الدنيا ٣١٥
- جمع الآيات وتفسيرها ٣١٥
- ٣ - حجاب الكبر والغرور وسكرة القدرة! ٣١٧
- جمع الآيات وتفسيرها ٣١٨
- الجبارون المغرورون لا يدركون الحق! ٣١٨
- حجاب الغرور في الأحاديث الإسلامية ٣١٩
- حجاب الجهل والغفلة ٣٢٠
- جمع الآيات وتفسيرها ٣٢٠
- حجاب الجهل في الأحاديث الإسلامية ٣٢٢
- ٥ - حجاب النفاق ٣٢٣
- شرح الآيات تفسيرها ٣٢٤
- المنافقون عمي القلوب ٣٢٣
- سؤال ٣٢٧
- الجواب ٣٢٧
- ٦ - حجاب التعصب والعناد ٣٢٨
- جمع الآيات وتفسيرها ٣٢٩
- الموقى المتحركون ٣٢٩
- النتيجة ٣٣٣
- ٧ - حجاب التقليد الأعمى ٣٣٥

٣٣٦	شرح المفردات
٣٣٧	جمع الآيات وتفسيرها
٣٣٧	قومٌ أهلكتهم تقليد هم
٣٣٩	إيضاحات
٣٣٩	١- أنواع التقليد المختلفة
٣٤٢	٢- شروط التقليد المسدوح
٣٤٣	٣- عوامل التقليد الأعمى
٣٤٥	٨- حجاب حب الرفاه
٣٤٦	جمع الآيات وتفسيرها
٣٤٦	اعفنا عن الجهاد
٣٤٨	٩- حجاب الأمانى
٣٤٨	الآمال الطويلة
٣٣٩	شرح الآيات تفسيرها
٣٥١	إيضاحات
٣٥١	حجاب الأمانى فى الروايات الاسلاميه



القسم الثانى

الأعمال التى تحجب عن المعرفة

٣٥٥	١٠- حجب الذنوب
٣٥٦	جمع الآيات وتفسيرها
٣٥٦	الذنب يُعمى الانسان ويصمه
	إيضاحات . ٣٦٠
٣٦٠	إن الذنب حجاب فى الروايات الاسلاميه
٣٦٣	١١- حجاب الكفر والاعراض
٣٦٤	جمع الآيات وتفسيرها

٣٦٤	لِمَ يحجب الذنبُ القلوبَ عن الذنّه ؟
٣٦٨	١٢ - حجاب الاعتداء والعدوان
٣٦٨	جمع الآيات وتفسيرها
٣٧٠	١٣ - حجاب الرؤية السطحية وترك التدبر
٣٧٠	جمع الآيات وتفسيرها
٣٧٠	اقفال القلوب الثقيلة
٣٧٥	١٤ - حجاب الارتداد
٣٧٥	جمع الآيات وتفسيرها
٣٧٦	١٥ - حجاب الكذب والافتراء
٣٧٧	جمع الآيات وتفسيرها
٣٧٧	خداع الكذب
٣٨٠	١٦ - حجاب الظن السميك
٣٨١	جمع الآيات وتفسيرها



الحُجُبُ الخارجيّة

٣٨٧	١٧ - حجاب القادة الضالين والفسدة
٣٨٧	تمهيد
٣٨٨	جمع الآيات وتفسيرها
٣٨٨	شجار اصحاب النار
٣٩١	إيضاحات
٣٩١	١ - « المستضعفون » و « المستكبرون » في القرآن المجيد
٣٩٢	٢ - دور القادة في الروايات الاسلامية
٣٩٤	١٨ - حجاب الأصدقاء الضالين
٣٩٤	جمع الآيات وتفسيرها
٣٩٦	إيضاحات

٣٩٦	دور الأصدقاء في طريقة التفكير
٣٩٧	١٩ - حجاب الاعلام والمحيط
٣٩٨	جمع الآيات وتفسيرها
٣٩٨	الأعلام المسموم
٤٠٨	إيضاحات
٤٠٨	الجوانب المتعددة للاعلام المضلل
٤١١	٢٠ - حجاب وساوس الشياطين
٤١٢	شرح المفردات
٤١٣	جمع الآيات وتفسيرها
٤١٣	كيف يُزيّن الباطل ؟ وكيف تُسحر العيون ؟
٤٢٠	إيضاحات
٤٢٠	١ - من هو الشيطان ؟
٤٢٢	٢ - الاجابة على سؤال
٤٢٢	٣ - النقطة المهمة الاخرى



٥ - مؤهلات المعرفة

٤٢٧	تمهيد
٤٢٨	١ - علاقة التقوى بالمعرفة
٤٢٩	شرح المفردات
٣٤٠	جمع الآيات وتفسيرها
٤٣٠	اتقوا كي يسطع نور العلم على قلوبكم
٤٣٧	إيضاحات
٤٣٧	١ - علاقة العلم بالتقوى في الروايات الاسلامية
٤٣٨	٢ - كيفية الارتباط بين ينابيع العلم والتقوى ؟
٤٤٠	٣ - استغلال العلاقة بين « العلم » و « التقوى »

٤٤٢	٢- الايمان والمعرفة
٤٤٢	تمهيد
٤٤٣	جمع الآيات وتفسيرها
٤٤٣	تأثير الايمان على الرؤية الصحيحة
٤٤٧	إيضاحات
٤٤٧	علاقة الايمان بالعلم في الروايات الاسلامية
٤٤٩	٣- علاقة « الصبر والشكر » بـ « المعرفة »
٤٤٩	جمع الآيات وتفسيرها
٤٤٩	السير في الآفاق والأنفس مع الصابرين
٤٥٤	النتيجة
٤٥٤	٤- المعرفة تهيء الارضية للمعرفة
٤٥٤	تمهيد
٤٥٥	جمع الآيات وتفسيرها
٤٥٥	مالم تكن منّا لن تطالع على اسرارنا
٤٥٨	النتيجة
٤٥٩	٥- علاقة الخوف بالمعرفة
٤٥٩	تمهيد
٤٦٠	جمع الآيات وتفسيرها
٤٦٠	المعرفة والشعور بالمسؤولية
٤٦٣	النتيجة
٤٦٥	الدعاء